تراث

شهرية تصدر عن نادي تراث الإمارات
السنة الثامنة - العدد ٩٥
رمضان- شوال١٤٢٧ هـ- أكتوبر ٢٠٠٦م



حديث الذكريات

"يريور" الأمس يخاف من "يريور" اليوم


مفاهيم جديدة في الخدمات المصرفية
سهل SAHEL
AL KHAIR الخير
NOOR نور
قوارب GAWARIB
ترحال Terhaal
البطاقة الإسلامية المغطاة Islamic Covered Card
قيم أصيلة ورؤية حضارية
للمزيد من المعلومات يرجى الاتصال على الهاتف المجاني: ٨٠٠٢٢٨٨
مصرف أبوظبي الإسلامي
Abu Dhabi Islamic Bank

أول القرطاس

«قناة فضائية لكل عربي» شعار رفعته بعض القوى الإعلامية المقتدرة في وطننا الكبير حتى «يشبع» الإنسان العربي غرائزه من ثقافة هز الوسط.. ويملأ بطنه من برامج الطبخ التي أصبح عددها أكثر من قدور أي مطبخ ميسور.. وتتعلم زوجاتنا أن أشجار البلوط وجذوع الصنوبر يمكن أن تصبح أغصان البان تهتز «هزيز غصن تاهي بأوراق».. ويتعلم النشء أسس الأدب والاحترام وتوقير الناس من كلام الأغاني الرصينة الهادفة مثل أغنية: «قوم اقف وانت بتكلمني».!

والشيء المهم أن هذه القنوات تتصارع لأسر العقل العربي.. واختطاف العيون من مآقيها بمنطق: «الجمهور عايز كده».. فلم يفرضوا عليه ما يشاهده فقط.. بل حجروا على رأيه وفرغوه من إرادة صاحبه.. فانسلخ عن القيم النبيلة.. وابتعد عن الفطرة السليمة.. وجرى وراء القشور العقيمة.

وشهر رمضان الذي كان الصحابة رضوان الله عليهم يلحون في الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يبلغهم إياه ليزدادوا فيه إيماناً مع إيمانهم.. فإن أهل الفن والمغنى وأرباب تلك القنوات الفضائية يدعون الله أيضا أن يبلغهم رمضان حتى يزدادوا غنى مع غناهم من خلال المسلسلات التي لا تراعي في المسلمين إلاً ولا ذمة.. وتهوي بهم في غياهب عالم المخدرات والمسكرات.. وقصص الحب والهيام والهجر والخصام.. وكأنه لم يعد في مجتمعاتنا العربية من مشاكل سوى الحب وصد الحبيب.. والغدر والخيانة من البعيد والقريب.. تصوروا أن قناة فضائية من إياها استضافت بنات ليل لتناقش معهن مشاكلهن.. وسبب ثرائهن؟!!!.. قناة أخرى ناقشت الخيانة الزوجية.. وجاءت بمن يعترفون بجناياتهم وعلى الهواء مباشرة بواسطة الهاتف.

ماذا تريد القناة الأولى أن تقوله للفتيات.. وماذا تريد القناة الأخرى أن تقوله للزوجات وللأزواج أيضاً على حد سواء؟!!. هل هذه هي الحرية وهل ذلك هو الإعلام الجريء!

تلك المسلسلات التي تسابقت القنوات الفضائية في الإعلان عنها قبل «الهنا بسنة» كما يقولون.. يعلم الجميع أنها أعدت من أجل شهر رمضان.. فهل راعت هذا الشهر واحترمت قدسيته وروحانياته؟.. أليس في تراثنا.. وتاريخنا ما يمكن أن يقدم من خلال دراما تحترم عقل المشاهد.. ومشاعره.. وشعائره.. وتقدم له ثقافة دسمة بدلاً من الغث الذي ينهال علينا من كل حدب وصوب بدواعي التسلية؟.. من قال لهؤلاء: إن شهر رمضان للتسلية.. من قال لهم: إنه شهر الترويح عن النفس والانغماس في المسلسلات.. ولماذا لم يقل لهم أحد: إن ذنوب كل هؤلاء الذين تفتنهم المسلسلات بفاتناتها إنما هي في رقابهم يحاسبون عليها يوم لا ينفع مال ولا بنون؟

والغريب أن يبدو الهروب من التاريخ والتراث متعمداً لأنه كما يقولون: لا يؤكل خبزاً.. رغم أن لدينا شواهد حية ما زالت تعاد إذاعتها وبثها.. مسلسلات ناجحة رائعة تعتمد التاريخ نصاً وروحاً.. لكن الفن له رأي آخر.. وآه أيها الفن.. كم من الجرائم ترتكب باسمك؟.■

تراث

محتويات العدد

الغلاف



معارض

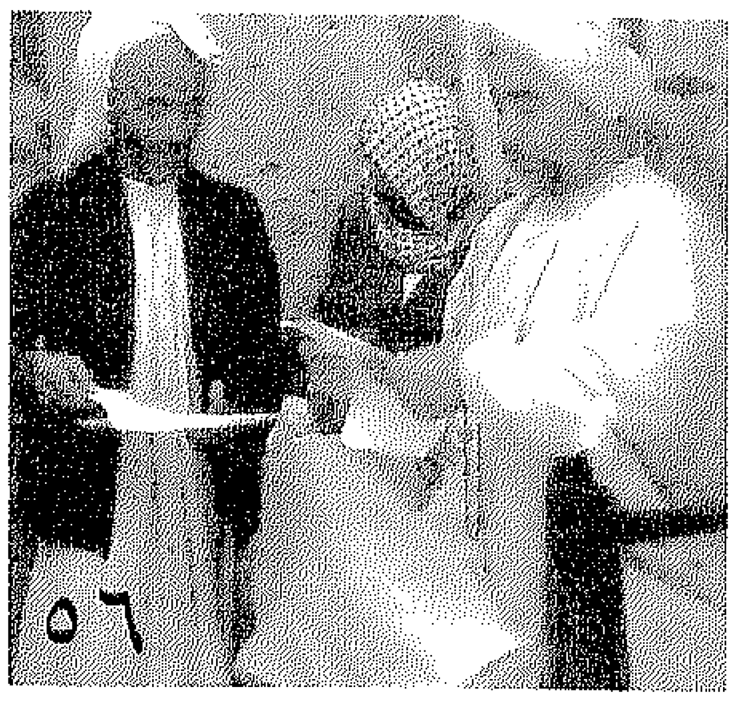


رمضانيات



لغة وأدب

تاريخ واثار


٥٦

متاحف

فيض المشاعر

إشراف: محمد ابراهيم الحديدي

استطلاع


٦٣

زوايا ثابتة:

تراث

مجـلة شـهرية ثقـافية منوعـة تصـدر عن
نادي تراث الإمارات – العدد (٩٥) – السنة الثامنة
رمضان– شوال ١٤٢٧هـ – أكتوبر ٢٠٠٦م

سكرتير التحرير
حـمـــدي نـصـــر
hamdi_nasr@yahoo.com

هيئة التحرير
حنفـي محمـود جـايل
محمد رجب السامرائي

الإخراج والتنفيذ
مـأمـون السعـيد
هـالـــة شعبـان

المراسلات:
نادي تراث الإمارات، ص.ب: ٢٧٧٦٥ أبوظبي
الإمارات العربية المتحدة، هاتف: ٤٤٦٦١١٦
فاكس: ٤٤٣٠٨٨١ (٠٢)
بريد الكتروني
email: turathmag@yahoo.com

ثمن النسخة
الإمارات ٥ دراهم، قطر والسعودية ٥ ريالات
البحرين والكويت ٥٠٠ فلس، عُمان: ٥٠٠ بيسة
مصر: ٥ جنيهات، اليمن: ١٥٠ ريالاً
الأردن: دينار ونصف
الدول العربية دولار أمريكي واحد
أوروبا وأمريكا والدول الأجنبية ٢ دولار

مندوبو تراث:
■ **القاهرة: عبد العال الباقوري**
محمـول: ٠٠٢-٠١٠-١٦١٠٢٠٩
■ **اليمن: محمد السيد**
محمول: ٠٠٩٦٧-٧-٣٦٦-٤٦٩٦

الاشتراك السنوي (درهم)

	محلياً	خليجياً	عربياً
أفراد	٨٥	٢٠٧	٢٧٩
مؤسسات	١٥٠	٢٦٧	٣٣٩

التجهيز الطباعي
قسم الإعلام – نادي تراث الإمارات

أهلاً بكـــــم

ترحب مجلة «تراث» بمساهمات الكتاب والقراء والتي تتعلق بالتراث والتاريخ باعتبارهما الخط الأساسي للمجلة، موضحة أن المقالات التي يتم نشرها تعبّر عن وجهة نظر أصحابها وليس بالضرورة عن وجهة نظر المجلة.. ونحن نرحب بالمقالات والمساهمات وفق المعايير التالية:

- ■ أن تكون المقالات جديدة.. ومخصصة لمجلة تراث فقط.. ولم يسبق نشرها.. ومرفقة بصور حديثة وملونة للموضوع.
- ■ أن تكون المساهمات مطبوعة على الحاسب الآلي أو الآلة الطابعة على وجه واحد من الورقة.. مذيلة بالمراجع التي تم استقاء البحث منها، مع تخريج الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة.
- ■ زاوية «خزانة الكتب» التي يتم فيها استعراض الكتب القديمة أو الحديثة هي من اختصاص هيئة التحرير فقط.. ونعتذر عن عدم قبول أي مساهمات في هذا المجال.
- ■ التحقيقات والاستطلاعات واللقاءات مع كبار المفكرين والشخصيات هي من اختصاص هيئة التحرير، أو بطلب مباشر منها.
- ■ المقالات التي يتم الاعتذار عن عدم نشرها ليس بالضرورة لعدم جودتها، وإنما قد تكون المجلة سبق لها أن نشرت موضوعاً أو عدة موضوعات حول الفكرة نفسها ولا ترغب في المزيد أو منعاً للتكرار.
- ■ المجلة غير مسؤولة عن إعادة المقالات أو المساهمات – التي لم تنشر – إلى أصحابها.
- ■ قد يتأخر نشر بعض المساهمات نظراً لارتباطها بمناسبة معينة، أو لكثرة المساهمات التي تصل من السادة الكتّاب.
- ■ المساهمات أو المكاتبات التي تنشر في زاوية «رسائلكم وصلت» لا تخصص لأصحابها مكافآت مالية.
- ■ عند استلام المساهمة.. يتم إخطار الكاتب بوصولها موضحاً إن كانت تحت الدراسة أو الاعتذار عن عدم النشر، وفي حال النشر يتم إرسال نسخة من العدد المنشورة فيه للكاتب.
- ■ ترجو المجلة من السادة الكتّاب أن يوضحوا في ورقة منفصلة اسم الكاتب ثلاثياً على الأقل، وأرقام الهواتف أو الفاكسات أو البريد الإلكتروني والعنوان البريدي الذي يمكن الاتصال به عن طريقه، ورقم حسابه في البنك الذي يتعامل معه حتى يمكن إرسال المكافآت المالية بطريقة أسرع وأكثر سهولة. وفق النظام المالي المعمول به في المجلة.





سمو الشيخ سلطان بن زايد يكرم إحدى المتفوقات

سلطان بن زايد يشيد بجهود إحياء التراث

كان حضور سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس نادي تراث الإمارات الحفل الختامي للملتقى الصيفي ٢٠٠٦ هو التكريم الحقيقي للمتفوقين الذين شاركوا في الملتقى الذي استمر ثلاثة أشهر، ونجحت خلاله إدارة النادي في استقطاب أعداد كبيرة من أبناء الدولة للمشاركة في إحياء الجوانب التراثية من حياة الآباء والأجداد.

جولة سموه في مبنى إدارة الأنشطة والفروع التابعة للنادي الذي أقيم فيه الاحتفال شملت مركز المعلومات وصالات الأنشطة والألعاب والصالة المغطاة وخيمة القرية التراثية التي أقيم بها المعرض التراثي.

وقد أشاد سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس نادي تراث الإمارات بجهود النادي في إحياء التراث وتعليمه للأجيال الجديدة.

وأضاف سموه في تصريحات صحفية: إن نادي تراث الإمارات كعادته سنوياً يوفق في تنظيم ملتقى صيفي تراثي يشارك فيه أبناء الإمارات، مشيراً إلى أن هذا العام تميز بالمشاركة المثالية من أبناء الإمارات وتنوع الأنشطة وهذا ما نهدف له في الحفاظ على التراث وصونه.

وأعرب سموه عن سعادته بما شاهده من أنشطة، ومن حماس لدى المشاركين، ووجه شكره وتقديره للقائمين على الملتقى ونادي تراث الإمارات.

وشهد الاحتفال الشيخ هزاع بن سلطان آل نهيان، والشيخ أحمد بن حمدان بن محمد آل نهيان، وعدد من المسؤولين بالنادي وأولياء أمور الطلبة المشاركين بالملتقى.

وكان الحفل قد بدأ بآيات من القرآن الكريم، ثم ألقى الطالب

محمد جمعة العفريت كلمة المشاركين التي أكد خلالها على أن الملتقى هذا العام فاق التوقع، حيث تميز بالتنوع والدقة في التنظيم والتنفيذ والمتابعة التي جعلت من النادي بمثابة البيت بالنسبة للمشاركين، مثمناً رعاية سمو الشيخ سلطان بن زايد ومتابعته وحرصه على أمن وسلامة المشاركين.

من ناحية أخرى.. أشاد الشيخ هزاع بن سلطان آل نهيان بجهود صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة -حفظه الله- في إرساء منظومة من الأفكار الرائدة في سبيل بناء وطن متمسك بقيمه وعاداته الأصيلة في إطار الحفاظ على التراث سيراً على خطى المغفور له بإذن الله الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، كما أشاد بجهود سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس نادي تراث الإمارات للمحافظة على التراث وحمايته وترسيخه في أذهان شباب وشابات الوطن، وهو ما تمثل مؤخراً في ملتقى السمالية الصيفي ٢٠٠٦م، وقال: إن نادي التراث صاحب ريادة في نشر التراث وتعليمه للأجيال، مشيراً إلى نجاح هذا الملتقى التراثي واستقطابه لعدد كبير من أبناء الوطن، باعتبار أن التراث يمثل هويتهم الوطنية ويعمق انتماءهم لوطنهم، ويحقق في الوقت نفسه التوجيهات الحكيمة للقيادة الرشيدة للمساهمة في عملية البناء والتحديث ضمن معادلة الأصالة والمعاصرة.■



وسموه يكرم أحد المتفوقين في الملتقى الصيفي (تصوير: نزار بلوط)

..ويزور معرض الصيد والفروسية



بعد أن تفقد أجنحته وأقسامه.. قال سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء عن معرض الصيد والفروسية الذي أقيمت فعالياته في أبوظبي الشهر الماضي: «إنه معرض متكامل.. يقدم منتجات متميزة للعارضين والزوار». وأكد سموه على أهمية الجانب التراثي في المعرض والذي كان له دور كبير في فعالياته، معرباً عن أمله في استمرارية تطور المعرض.

وكان سموه قد استمع خلال جولته لشرح وافٍ عن معرض الصيد والفروسية أبوظبي ٢٠٠٦م من سعادة محمد خلف المزروعي رئيس اللجنة المنظمة للمعرض وعضو مجلس إدارة نادي صقاري الإمارات.■

«أبو الأبيض».. استحق الناموس



تسليم الجوائز للفائزين

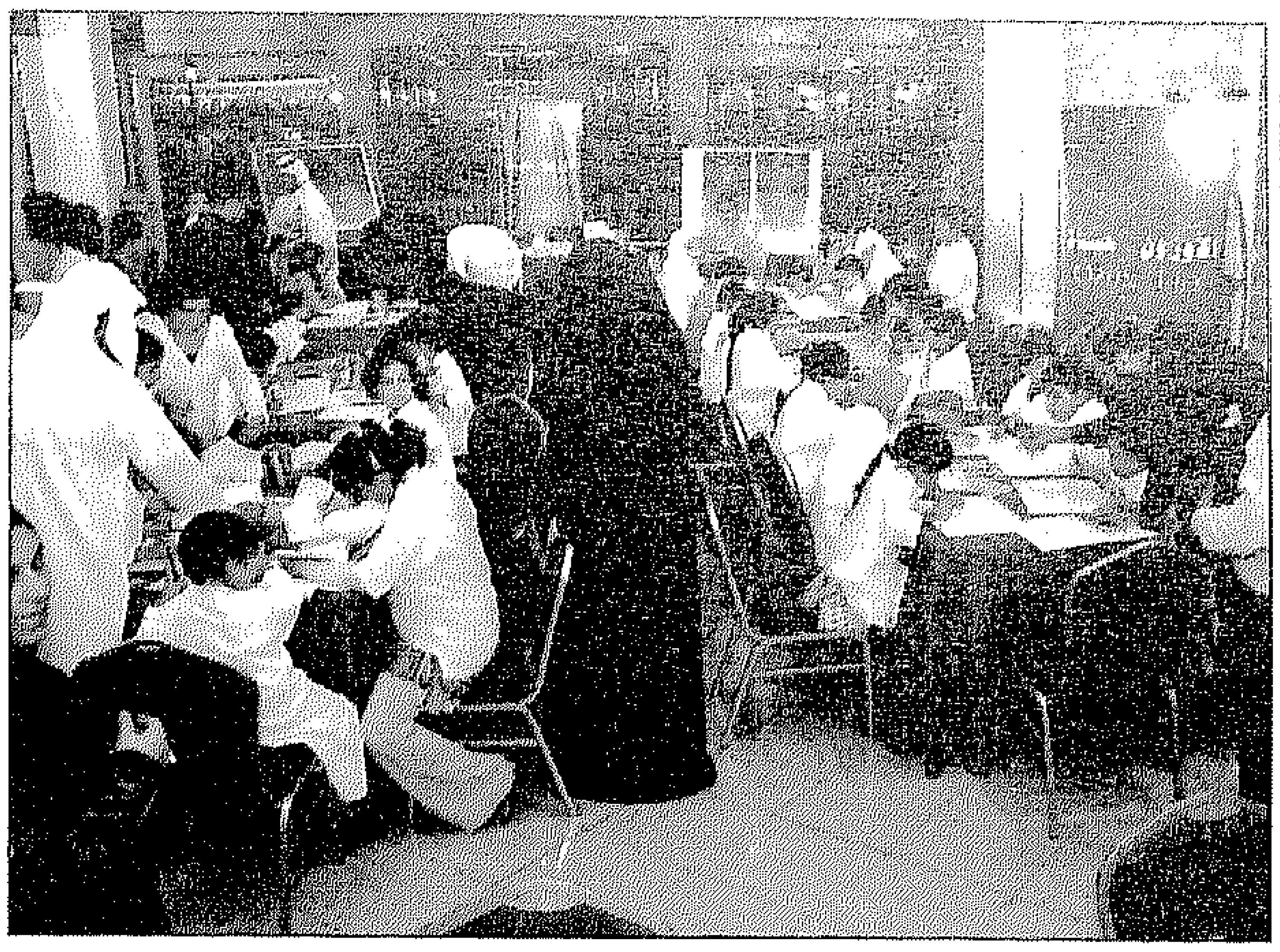
استحق القارب أبو الأبيض الناموس في سباق كأس صاحب السمو رئيس الدولة للقوارب الشراعية فئة ٦٠ قدما الذي أقيم من منطقة الغلان إلى كاسر الأمواج بالقرية التراثية لمسافة ٣١ ميلا.. وشارك فيه مائة قارب و١٥٠٠ متسابق من المواطنين. السباق أقيم تحت رعاية سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس نادي تراث الإمارات.. وكانت جائزة المركز الأول نموذج قارب ذهبي وسيارة نيسان بترول و٨٠ ألف درهم تسلمها ماجد عتيق المهيري نوخذا القارب.. وجاء القارب غازي لخليفة علي الرميثي في المركز الثاني بقيادة النوخذا أحمد سعيد الرميثي وكانت جائزته عبارة عن نموذج قارب فضي وسيارة نيسان بترول و٧٥ ألف درهم، أما المركز الثالث فكان من نصيب القارب دعيس لصاحبه وقائده خادم راشد المهيري وكانت جائزته عبارة عن نموذج لقارب برونزي وسيارة بترول نيسان و٧٠ ألف درهم.

وعقب أن سلم الفائزين جوائزهم قال خميس راشد الرميثي رئيس اللجنة العليا المنظمة رئيس مجلس إدارة نادي تراث الإمارات الذي نظم السباق: إن هذا السباق يستمد قوته وثقله لكونه يحمل اسماً عزيزاً وغالياً على قلوب الجميع وهو اسم صاحب السمو رئيس الدولة، حفظه الله ورعاه، كما أشاد بجهود سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس نادي تراث الإمارات من أجل تطوير السباقات البحرية التي ينظمها النادي واهتمامه الشخصي بالمحافظة على التراث.■

انطلاق الموسم الثقافي لمركز زايد بالعين

استضاف مركز زايد للتراث والتاريخ بمدينة العين الدكتور سمر روحي الفيصل أستاذ اللغة العربية بوحدة المتطلبات الجامعية جامعة الإمارات، والذي ألقى محاضرة بعنوان «أسلوب الرواية العربية» بدأها بالتأكيد على أن الإنسان عندما يقرأ أي نص مكتوب فإنه يرى فيه شيئاً واحداً، هو اللغة التي كتب بهذا هذا النص، سواء أكان النص وظيفياً أم كان نصاً علمياً ويستعمل مصطلحات هذا العلم ويتقيد بأسلوبه، أم كان نصاً أدبياً، في جنس من أجناس الأدب أم كان نصاً تاريخياً أم جغرافياً أم نقدياً أم غير ذلك من نصوص الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، وهي نصوص كثيرة متنوعة، وهذا شيء بديهي لأن اللغة أداة التعبير عند العرب وعند غيرهم من الأمم.■

الإمارات



الاحتفال بيوم الأوزون

احتفل نادي تراث الإمارات منتصف الشهر الماضي بيوم الأوزون العالمي من خلال برنامج نظمته إدارة البحوث البيئية في النادي واستمر لمدة يومين.. وشارك فيه عدد كبير من المهتمين بالبيئة.

تضمن البرنامج عدداً من المسابقات الثقافية العلمية التي لها علاقة بالأوزون.. وتم فيه استعراض جهود دولة الإمارات العربية المتحدة ومساهمتها الجادة في حماية طبقة الأوزون باعتبارها من أوائل الدول التي وقعت على اتفاقية الحد من استخدام المواد المستنزفة لطبقة الأوزون وعددها ١٥٠ دولة.■

عمان

باب حصن عمره ٢١٠ سنوات

عثر فريق تونسي يعمل في التنقيب عن الآثار والإشراف على ترميم بعض الحصون والقلاع التاريخية في سلطنة عُمان على البوابة الرئيسية لمدخل حصن «العوابي» التاريخي والذي شيد قبل حوالي ٢١٠ سنوات في منطقة الباطنه.

وقال رئيس الفريق إن البوابة كانت مطموسة وظلت غير ظاهرة طوال الفترة الماضية ما ساعد على بقائها، وأنها تعد تحفة جمالية في حد ذاتها لما فيها من فن النقش وتزيين، وهي شاهدة على قدرة العُماني على الإبداع.■

شاليهات تراثية بجزيرة السمالية

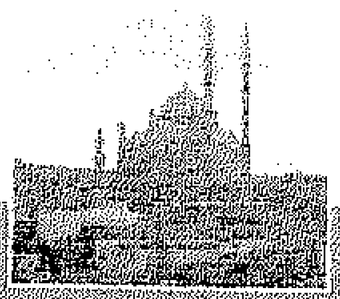
تسلمت دائرة البلديات والزراعة «بلدية أبوظبي» مشروع تشييد عشرة شاليهات تراثية سياحية ومبنى فندقياً يضم أكثر من ٢٠٠ غرفة مخصص لاستضافة الفعاليات والمعسكرات التي تنظم في جزيرة السمالية.

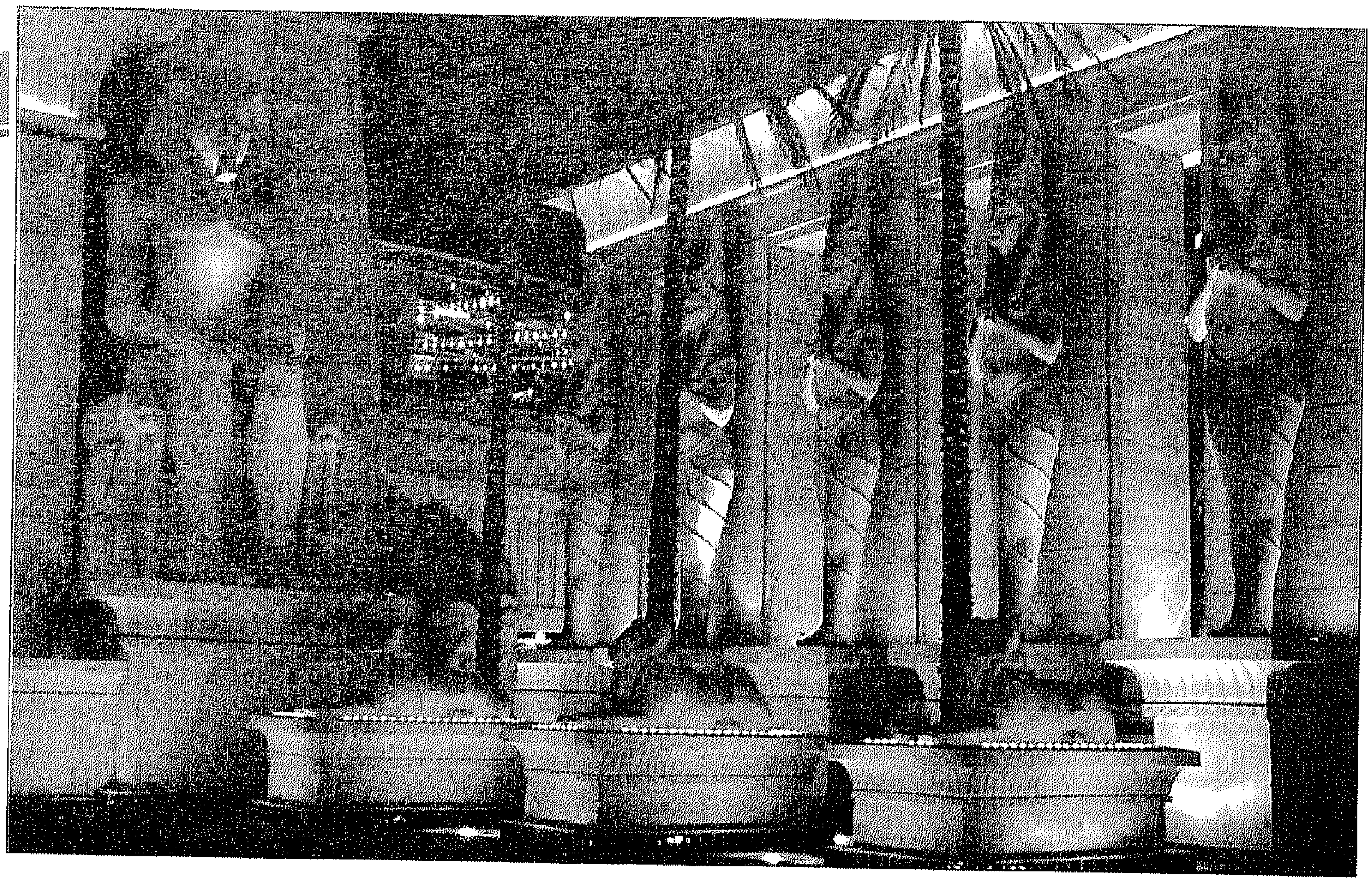
المشروع يأتي وفقاً للطراز المعماري التراثي بما يتلاءم مع طبيعة جزيرة السمالية التراثية، بحيث تشكل الشاليهات وحدة معمارية وبيئية متناسقة تبرز الطابع المعماري المحلي بأبهى صوره من خلال البراجيل الهوائية التي كانت تستخدم قديماً للتهوية وتبريد البيوت في الإمارات بالإضافة إلى الأشكال الهندسية من أقواس وقناطر، فيما اتخذ اللون الخارجي الوردي الموشي بلون الرمال تناغماً مع المحيط الخارجي.■

رمضان.. في القرية التراثية

أعدت القرية التراثية على كاسر الأمواج في أبوظبي والتابعة لنادي تراث الإمارات مهرجاناً دينياً تراثياً بمناسبة شهر رمضان الكريم.. يتضمن العديد من المحاضرات الثقافية والمسابقات الدينية والتراثية.■ (طالع ص ٤٤)

مصر

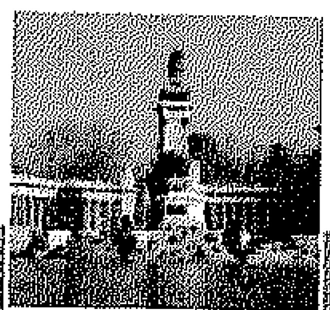




الأقصر مقراً لأول مركز لإحياء الفن الفرعوني

وقع اختيار المجلس الأعلى للآثار في جمهورية مصر العربية على مدينة الأقصر بصعيد مصر لتصبح مقراً لأول مركز لإحياء الفن المصري القديم عند الفراعنة، وإنتاج النماذج الأثرية وذلك في إطار احتفال المجلس بمهرجان «الفرعوني الصغير» نسبة إلى الملك «توت عنخ آمون». وسيقوم المركز بنحت وتصنيع المستنسخات الأثرية بغرض بيعها في المتاحف والمعارض المحلية وتوزيعها خارجياً في معارض الآثار المتنقلة أو تلك التي تستضيفها دول العالم، ويذكر أن مهرجان «الفرعون الصغير» يقام سنوياً في عدة مدن مصرية وينظم مسابقات لإحياء الفن المصري القديم بين شباب مصر.■

إسبانيا



إعادة مومياء عمرها عدة قرون إلى جزر الخالدات

طلبت لجنة شكلها مجلس الشيوخ الإسباني من إدارة متحف مدريد لعلم السلالات البشرية «الإنثروبولوجي» إعادة رفات أحد أفراد شعب جوانشي إلى جزر الخالدات لإعطاء زخم إضافي للاتجاه الدولي المتنامي لإعادة الرفات البشرية إلى بلادها الأصلية.

وشعب جوانشي هم من السكان الأصليين الذين استوطنوا إسبانيا في القرن الثامن عشر، وتربطهم صلات نسب وقربى مع بربر شمال إفريقيا الذين تعرضوا للغزو الإسباني في القرن الخامس عشر.

وقد سبق لمتحف إجنتيني أن أعاد مومياء لشعب جوانشي إلى متحف مدريد بإسبانيا في عام ٢٠٠٣م فيما لا تزال المطالبة قائمة بإعادة مومياء ثالثة من مانشستر في انجلترا.

وتأتي هذه المطالبة في إطار حملة عالمية لإعادة الرفات البشرية التي جمعتها المتاحف خلال ذروة الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية.■



حمدان بن زايد آل نهيان يفتتح المعرض الدولي للصيد والفروسية- أبوظبي ٢٠٠٦

تظاهرة تراثية في أبوظبي حول الصيد والفروسية

■ كتب: محمّد رجب السّامرائي

شهدت مدينة أبوظبي تظاهرة تراثية وثقافية وسياحية خلال الفترة من ١٠ إلى ١٥ سبتمبر الماضي، شارك فيها٥٢٥ عارضاً من ٤٢ دولة من قارات العالم.. وكان شاهداً عليها مئات من رجال وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، نقلوا للعالم بإعجاب فعاليات هذه التظاهرة المتمثلة في المعرض الدولي للصيد والفروسية، الذي رعاه سمو الشيخ حمدان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس نادي صقاري الإمارات وافتتحه في مركز أبوظبي الدولي للمعارض، وحضره جمهور كبير وعدد من المسؤولين بالدولة وسفراء الدول العربية والأجنبية المعتمدين.

وقد قام سموه بجولة في أقسام وأجنحة المعرض حيث شاهد أحدث مستجدات التقنيات المستخدمة في رياضة الصيد والفروسية.

وقد استمع سمو الشيخ حمدان بن زايد آل نهيان من سعادة محمد خلف المزروعي رئيس اللجنة المنظمة للمعرض وعضو مجلس إدارة نادي صقاري الإمارات، لشرح واف عن فعاليات المعرض التراثية والثقافية.. وإيجازات قدمها العارضون في مختلف الأجنحة.. الذين أكدوا حرصهم على المشاركة سنويا نظراً للسمعة الطيبة التي يحظى بها المعرض على الصعيد العالمي، مما مكنه من استقطاب آلاف الزوار من محبي رياضة الصيد والفروسية.

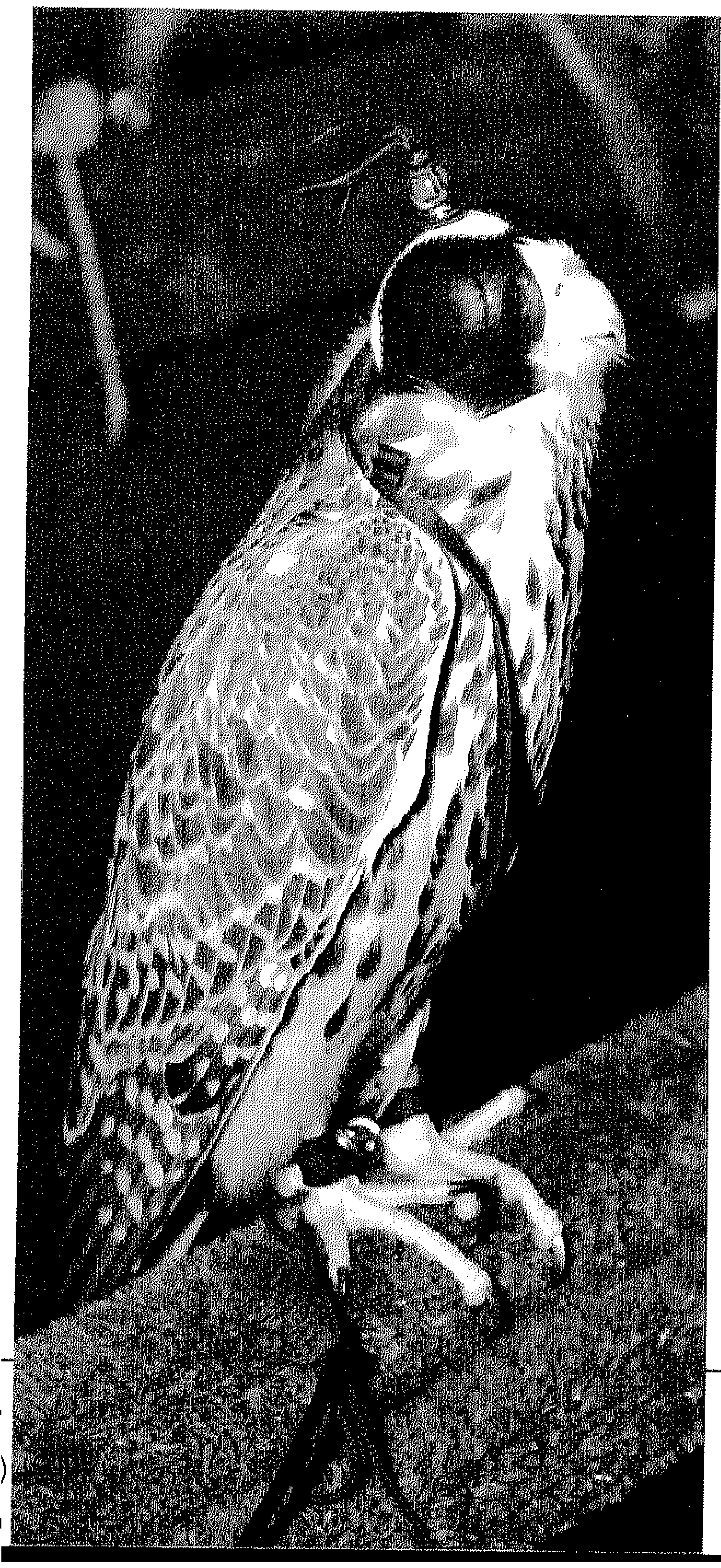
كما زار سموه المعرض التراثي الخاص بالمغفور له الشيخ زايد «رحمه الله» بعنوان «زايد العطاء» والذي تضمن صوراً نادرة لهوايات الصيد والفروسية، وتعريفاً واضحاً لبرنامج الشيخ زايد لإطلاق الصقور والذي استطاع حتى اليوم إعادة أكثر من ١٠٠٠ صقر للبرية من نوعي الحُر والشاهين.

بعد الجولة.. ثمن سمو الشيخ حمدان بن زايد آل نهيان الاهتمام الكبير الذي يوليه صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة «حفظه الله»، للمحافظة على التراث وصونه، وسعي دولة الإمارات لتسجيل الصقارة كتراث ثقافي عالمي في منظمة اليونسكو، كما أشاد بالرعاية المباشرة التي يقدمها صاحب السمو رئيس الدولة لمشروع البروفالكن العالمي لإكثار الصقور.. حيث تبرع مؤخراً بمائة صقر تم إكثارها في مشروع البروفالكن ليتم السحب عليها خلال فعاليات المعرض.. من منطلق حرص سموه على التراث وصونه، وتأكيداً من سموه على أهمية الحفاظ على رياضة الصقارة من الانقراض وحمايتها كتاريخ وإرث حضاري ثقافي عالمي، من خلال توريثها للأجيال القادمة باتباع أساليب الصيد المستدام التي توازن بين صون التراث وحماية البيئة.

وتضمن المعرض أيضاً مسابقة فنية عن الصقور والخيول للرسامين والمصورين العرب والعالميين لاختيار أجمل لوحة رسم في الصيد والفروسية والتراث، وكذلك أجمل صورة فوتوغرافية في الصيد والفروسية.

وتضمن المعرض الذي نظمه نادي صقاري الإمارات، بالتعاون مع هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث معدات متعددة وعالية الجودة للصقارة والصيد المتنوع، ومزادات الهجن والخيول، وعروض السلوقي ومسابقة الجَمَال، فضلاً عن فرص البيع وعقد الصفقات، وتنظيم المعارض الخاصة وسحوبات الصقور والمسابقات التراثية والثقافية، وفعاليات الشعر.

كما أقيمت في المعرض مسابقة فريدة من نوعها لاختيار أفضل السيارات المُجهزة لرحلات



الصيد، ومسابقة أفضل بحث يتناول الصيد والفروسية عند العرب، وأمسية تراثية عبارة عن «محاورة شعرية» معروفة شعبياً باسم «القَلْطَة». ويأتي التركيز على هذا النوع من الفعاليات التراثية في المعرض ضمن الاستراتيجية العامة التي تتبناها هيئة أبوظبي للثقافة والتراث ونادي صقاري الإمارات من أجل مواكبة التراث للنهضة الكبيرة التي تشهدها إمارة أبوظبي على مختلف الصُعُد.

وقد مكن اختيار فن القلطة متذوقي الشعر من التعايش مع تجربة فنية ربما تكون جديدة على العديد من محبي الشعر، فقد كانت مليئة بالإثارة والتحدي الإبداعي، لأنّها قائمة على الارتجال الشعري الفوري بين شاعرين أو أكثر وذلك على مشهد ومسمع من الجمهور، ويلتزم المشاركون فيها بالوزن نفسه والقافية نفسها، إلى جانب ضرورة أن يكون المعنى في الأبيات المرتجلة متعلقاً بما قبله، وأن يقول الشاعر الثاني ما ينقض به كلام الأول ويرد عليه، وهو ما يعرف عند أهل القَلْطَة بـ «الفتل والنقض»، وفي ذلك من الإثارة والمتعة والتشويق الكثير، خصوصاً أن خلف كلا الفريقين صفاً من الرجال يعرفون بـ «الشيالة» يرددون ما يقوله المتحاورون في أداء فني ساحر، يلهب مشاعر الشعراء ويجعلهم أكثر قدرة على الارتجال واستحضار المعاني المناسبة.

وتُعدُّ «القَلْطَة» من أبرز أنواع الشعر النبطي وأصعبها، لأنها تحتاج إلى حضور الذهن وسرعة البديهة والشاعرية المتوهجة، والجرأة الأدبية.

أما عن أصولها التاريخية فإنّ المختصين في الشعر النبطي يرجعون القَلْطَة إلى الشعر الفصيح فيما عُرف فيه باسم «النقائض» في العصر الأموي التي كان من أبرز شعرائها الأخطل والفرزدق وجرير، غير أن الفرق بين القَلْطَة والنقائض يعود في الأساس إلى الفرق بين الشعرين النبطي والفصيح، ففي حين تتقيد النقائض بضوابط وقواعد فنية صارمة، فإن بحور القَلْطَة قابلة للتجديد والتطوير في كل زمان ومكان، ويجوز فيها للشاعر ما لا يجوز لغيره، فهو الآمر الناهي والمجال مفتوح أمامه ليقول ما يشاء وكيفما شاء دون قيد أو شرط، خاصة حينما تكون البداية منه. غير أن هذا لا يعني بالطبع أن القَلْطَة ليست لها أصول وقواعد وقوانين وإنما العكس فقد أصبح لها كل ذلك، غير أن أصولها وقواعدها وقوانينها أشبه ما تكون بالعرف المتبع بين الشعراء، إلا أن روح التحدي فيها تجعل الشاعر يخرج عن كل الأعراف المتبعة ويقول كل ما يتراءى له.

محمد بن زايد يتوقف

عند زيارة الفريق أول سمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان ولي عهد أبوظبي نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة لمعرض الصيد والفروسية أبوظبي ٢٠٠٦، توقف سموه طويلاً أمام المعرض التراثي الخاص بالمغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان -رحمه الله- والذي يحمل عنوان (زايد العطاء)، حيث شاهد سموه صوراً نادرة عن ممارسة هوايات الصيد والفروسية بما يعكس ملامح متعددة من جهود المغفور له الشيخ زايد في إطلاق الصقور والذي استطاع خلالها إعادة أكثر من ألف صقر للبرية من نوعي الحر والشاهين.

رافق سموه خلال الزيارة الفريق سمو الشيخ سيف بن زايد آل نهيان وزير الداخلية، وسمو الشيخ طحنون بن زايد آل نهيان رئيس هيئة الطيران الأميري بأبوظبي..

كما شاهد سموه خلال جولته عدداً من الفعاليات والأنشطة المصاحبة للمعرض كعرض السلوقي وفلكلور تراثي قدمه عدد من المشاركين بما يعكس التميز والتنوع الكبيرين لدورة المعرض هذا العام.

وأشاد سمو ولي عهد أبوظبي نائب القائد

ــف طويــلاً أمـام معــرض زايــد التراثــي



محمد بن زايد آل نهيان يتفقد المعرض الدولي للصيد والفروسية- أبوظبي ٢٠٠٦

الأعلى للقوات المسلحة بالجهود التنظيمية الكبيرة المبذولة.

كما نوه سموه بالتطور الذي شهده المعرض هذا العام من حيث مستوى نوعية المشاركة مثمناً الدعم الكبير الذي يحظى به المعرض من قبل صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة «حفظه الله» وحرص سموه على إحياء التراث والمحافظة على الرياضات التراثية الأصيلة التي ارتبط بها المواطنون وأبناء المنطقة منذ القدم. وأكد سموه في ختام زيارته حرص دولة الإمارات على العمل المستمر بشتى الوسائل للحفاظ على تراثها الغني والقيم كونه جزءاً أساسياً من الذاكرة الوطنية والهوية العربية الأصيلة.■

وتضمن منهاج فعاليات المعرض إقامة مزاد للهجن وعرض الهجن المشاركة في المزاد، ومزاد الخيول في إسطبلاتها، في حين توزعت عروض السلوقي ومسابقة الجَمَال وعروض المراوغة طيلة أيام المعرض الأربعة.

كما تخللت أيام المعرض الدولي للصيد والفروسية سحوبات على الصقور، ومسابقات تراثية ثقافية تضمنت جوائز قيمة للزوار، وتم الإعلان عن نتائج مسابقات المعرض من خلال المركز الإعلامي، بينما تمّ الإعلان عن نتيجة مسابقة أفضل بحث عن الصيد والفروسية عند العرب، وأجمل اللوحات والصور الفوتوغرافية، ونتيجة مسابقة أفضل الاختراعات وأفضل سيارة صيد، ونتيجة مسابقة أجمل الصقور المتكاثرة في الأسر، وقد اختتم المعرض الدولي فعالياته يوم الجمعة ١٥ سبتمبر الماضي بإعلان نتيجة مسابقة أجمل القصائد في الطير والمِقْنَاص.■



■ حمدي نصر

كل الكتب التي قرأناها عن الغوص.. وكل القصص التي سمعناها ممن عاصروا أيامه..

تؤكد أنها كانت أيام تعب ومكدة.. والموت منها أرحم.. أو كما قالوا: الذاهب إلى الغوص مفقود.. والعائد منه مولود.. وقلب العائد كان يرقص من الفرح عندما يقترب المحمل من السيف..

وقليل من الغواصين الذين كانوا معروفين بالشدة وقوة التحمل.. قليل منهم من كان يستطيع إخفاء دموع فرحة العودة.

ومع كل هذا.. فإن محمد بن سعيد بن حرمش (٥٧عاماً).. و«ربيعه» (صديقه) محمد بن خليفة بن ثاني المهيري (٥٥ عاماً) قد أجمعا على شوقهما لأيام الغوص رغم اعترافهما بخطورته وصعوبته.. ولما سألناهما لماذا؟.. قالا: أيام الغوص تعب ومكدة.. لكنها أيام تراحم ومودة.. فالنفوس صافية.. والقلوب مرتاحة.. والجميع يتقاسمون الهموم والأفراح.. وإذا نادى مناد فزع له الجميع وكأنهم رجل واحد.

سألنا بن حرمش: وهل تجد متعة فعلاً في تذكر تلك الأيام رغم قسوتها؟.. قال: نعم.. وأنا أحن إليها.. وحتى الآن أذهب إلى الغوص مرتين سنوياً.. مرة في (الشتاء) أكتوبر، والأخرى في لصفري (الربيع) في أبريل تقريباً.. ويتابع بن حرمش: لكن.. غوص هذه الأيام غير.. فعلى



الأقل.. «يريور» الأمس.. أصبح يخاف من «يريور» اليوم.. والغوص «أصبح راحة ونزهة.. من بعد التعب والمكدة».

حديث الذكريات الشائق مع محمد بن سعيد بن حرمش ومحمد بن خليفة بن ثاني المهيري كان طبيعياً أن يتناول رمضان أيام زمان.. خاصة ونحن نعيش أيامه حالياً.. وقد سألناهما: هل مر عليكما رمضان في أيام الغوص؟.. قال بن حرمش: لم يحدث أن مر علينا رمضان في أيام الغوص.. لكن الصوم بشكل عام كان متعباً فعلاً في أيام الحر وليس الغوص فقط.. فأنا تعرضت ثلاث مرات في حياتي لتعب شديد وعطش أشد في أيام رمضان.. وكدت أن أفطر.. لكن الله سبحانه وتعالى أعانني على الصبر والتحمل وعلى طرد الشيطان.. وأكملت الصيام.

بن ثاني قال: الجو أيام زمان كان حاراً.. ولا توجد مكيفات ولا بنكات (مراوح).. والإنسان كان يهلك من الحر خاصة الذين يعملون في رعي الحلال (الماشية والجمال).. فهم مجبورون على الخروج إلى المراعي حتى ولو كان الجو حاراً.. لكنهم يتبعون الظل لتخفيف تعب الصيام عن أجسادهم.

ودخول رمضان زمان كان بالشوف.. أي برؤية الهلال.. والعيد كان بالشوف أولاً.. وإذا غم عليهم الهلال يكون بالحساب.. أي يحسبون ٣٠ يوماً من دخول رمضان ثم يفطرون ويحتفلون بالعيد.

ابن ثاني قال: عندما تتم الرؤية ويتأكد الناس من دخول رمضان.. كان بوطبيلة (المسحراتي بطبلته) يدور على البيوت ليعلن دخول شهر رمضان.. وكان يطوف على البيوت أيضاً في المساء ليوقظهم لتناول السحور.. رغم أن الناس في الوقت الذي عايشناه -كما يقول بن ثاني- كانوا يعتمدون على الساعة في معرفة دخول وقت الإفطار أو السحور.. لأن الساعات كانت موجودة عند بعض البيوت.. ومن لا يملكون الساعات كانوا يطالعون مجرى النجوم في السماء ويستطيعون تحديد وقت السحور والإمساك بحكم خبرتهم.

بن ثاني قال: إن السحور كان مكوناً من اللحم والعيش والسمك.. سألناه: ألا يعد ذلك ثقيلاً على المعدة في السحور؟.. قال: أبداً.. لأنه رغم الحر والصيام.. كنا كثيري الحركة.. نسعى على أرزاقنا من بعد صلاة الفجر لمن يكون مرتبطاً بعمل وحتى الذين كانوا ينامون بعد الصلاة كان نومهم خفيفاً.. ويخرجون لقضاء ما يحتاجونه بعد طلوع الشمس مباشرة.. أي أنه كانت هناك حركة وجهد في رمضان وغير رمضان.

نفطر على المجبوس والمالح

محمد بن سعيد بن حرمش قال: إن الناس كانوا يتجمعون قبل الإفطار مباشرة في بيت أحدهم.. وكانوا في الغالب يطالعون غياب الشمس.. وعندما يتأكدون من غيابها يفطرون على حبات من التمر وقليل من الحليب أو الماء.. ثم يصلون المغرب جماعة.. وعقب الصلاة يأتي كل منهم بما عنده.. قد يأتي أحدهم بالعيش، والثاني باللحم والثالث بالثريد.. ومنهم من يأتي بالسمك.. كل حسب مايتوفر عنده.. وكانوا يعشقون الإفطار

على المالح.

الاستعداد لرمضان

والاستعداد لرمضان زمان كان بتجهيز الذبائح.. وشراء كميات من العيش (الرز) والسمك موجود طوال الشهر.. لأن معظم الطعام كان من هذه النوعيات مع التمر والحليب.

بن ثاني حدثنا أيضاً عن جلسات ما بعد صلاة التراويح.. قال: كنا ''دور دواري''.. أي كل يوم في بيت.. حيث يأتون بالقهوة ويجلسون للسوالف التي كان معظمها عن البحر والمحامل والنخل والزرع.. والكبار يتكلمون عن الغوص.. نستمع إليهم ونستفيد منهم خبرة في الحياة.. وتستمر السوالف حسب طاقة الإنسان ووقته.. فمنهم من يذهب إلى بيته مبكراً، ومنهم من يظل في سمره إلى منتصف الليل.. بعدها يعود الجميع إلى بيوتهم ينتظرون السحور.. أو ينامون إلى أن يحين موعده.. والسحور كان من اللحم والثريد والسمك والعيش.. والتمر والحليب.. كنا نأكل في السحور وجبات دسمة لا تتحملها المعدة الآن.

وفي العيد كنا -كما قال محمد بن سعيد بن حرمش- نصلي صلاة العيد.. ونجتمع مع بعضنا بعضاً في بيت أحدنا نتبادل التهنئة بالعيد.. نتناول الريوق (الإفطار) المكون من هريس وخبيص والمحلى وما شابه ذلك مثل اللقيمات ونشرب القهوة والشاي.. ونذهب بقلوب صافية سعيدة إلى الأهل لتهنئتهم بالعيد.. والبعض كان يذهب للأقارب والأرحام في مناطق بعيدة.. أيام العيد كانت أيام فرح وسعادة.. وكان الجميع يشعرون بها.. لا تجد بيتاً إلا وقد دخله كل أهل الفريج للتهنئة بالعيد حتى يعم السرور والفرح على الجميع.

محمد بن حرمش ومحمد بن خليفة بن ثاني المهيري كما قلنا كانا ممن شاركوا في رحلات الغوص.. بن ثاني قال: شاركت في رحلات الغوص مع والدي عندما كنت طفلاً صغيراً.. ولم



محمد بن خليفة المهيري

يحدث أن غصت.. ولكن خلال السنوات الثلاث التي ذهبت فيها معهم كنت «وليد» أنفذ ما يطلبونه مني.. وأحياناً كنت «سيب» أساعد الغواص في الخروج من البحر بالحبل الذي كان ممتداً معه.. وحتى تلك المشاركات كانت صعبة.. فرحلة الغوص كانت تستمر ثلاثة أشهر لا ترى فيها أهلك.. وكل يومك على الماء لا ترى من حولك إلا زرقته.. كان طعامنا في النهار قليلاً من التمر ورشفة ماء.. فالغواص لا يستطيع ولا يجب أن يأكل كثيراً حتى لا تمتلئ معدته فلا يستطيع الغوص.. وفي الليل وجبة العشاء التي كانت من العيش والسمك.. ثم النوم ليس على فراش وثير كما هي الحال هذه الأيام.. وإنما حصير نفرشه فوق أصداف المحار التي كانت تؤلم أجسادنا ولكن لا مفر منها.. وكانت رحمة الله بنا أن ننام بمجرد أن نلقي بأجسادنا عليها من فرط التعب.

الحنين إلى الغوص

محمد بن سعيد بن حرمش قال: إنه رغم تعب الغوص.. إلا أن من عايشوه ومارسوه يحنون إليه.. فهو شخصياً يذهب إلى الغوص مرتين سنوياً.. مرة في الشتاء (شهر أكتوبر) ومرة في لصفري (شهر أبريل) وهو موسم الربيع.

■■

غواص الأمس يرتدي الشمشول خوفاً من الدول الذي يحرق الأجساد

■■





محمد بن سعيد بن حرمش

سألته: هل تهوى التعب.. هل تذهب للمكدة برجليك؟

ابتسم قائلاً: غوص الأمس غير غوص اليوم.. أمس كان مكدة وتعباً واليوم راحة ونزهة.. أمس كانت محامل كبيرة مكشوفة تبحر بالشراع والمجاديف.. واليوم لنشات حديثة بها كبائن مكيفة الهواء.. وبها أسرة للنوم ومنافع للراحة والاستحمام.. والأكل يمكن أن يكون في أي وقت وبالكميات والنوعيات التي يريدها الغواص.. غوص الأمس كان صعباً وقاسياً لأنه يعتمد على قدرة الغواص وطول نَفَسِه.. الغواص في الماضي كان لا يرتدي إلا (هاف) يستر نفسه وإذا ارتدى الشمشول (الملابس الكاملة البيضاء) فإنه يرتديها خوفاً من الدول «قنديل البحر» الذي يحرق الأجساد بالمادة التي يفرزها.. أما غواص اليوم فيرتدي ملابس الغوص السوداء التي تحمل خطاً أصفر وتحمي كامل جسمه.. الغواص أمس كان يتحرك في قاع البحر معتمداً على يديه وقدرته على السباحة.. أما اليوم فيعتمد على زعانف تجعل الغوص والحركة أكثر راحة.. غواص الأمس كان يضع «خبط» حول أصابعه حتى لا تتجرح عندما ينزع المحارة من عرقها الذي تتشبث به في الأرض..



الغوص أمس كان مكدة وتعباً.. واليوم متعة ونزهة

أما اليوم فإنه يرتدي قفازاً يحمي كامل يديه وليس أصابعه فقط.. الغواص في الأمس كان يخاف من البوزيزي.. وهي أسماك صغيرة كانت تندفع ناحية بريق العيون وتنغرس فيها.. لذا فهو يعمد إلى حماية عينيه بيديه إذا كان هناك سرب من هذه الأسماك ويقع في حيرة، هل يحمي عينيه أم يلتقط المحار قبل تنقطع أنفاسه؟.. أما اليوم فهو يضع نظارة على عينيه تحميهما من أي خطر، والأهم من كل ذلك أن البقاء تحت الماء بالأمس لم يكن يزيد على دقيقة أو دقيقتين على أكثر تقدير.. ثم يفزع الغواص للخروج من الماء.. أما اليوم فالغواص يمكن أن يبقى تحت الماء ساعة أو نصف ساعة دون تعب وانقطاع نفس لأنه مزود باسطوانات الأوكسجين.. الغواص في الماضي كان يضع بعض حبات من المحار في الديين ويصعد به، أما اليوم فالغواص يتمكن من ملء الديين عدة مرات والبقاء تحت الماء مستمتعاً بمناظر قعر البحر.

سألته: وهل تخافون من أسماك القرش (اليريور) التي كانت تسبب رعباً للغواصين؟

قال بن حرمش مبتسماً: «يريور الأمس يخاف من يريور اليوم» فأسماك القرش عندما ترى الغواص في هيئته وملابسه السوداء المخططة بالأصفر تظن أنه سمكة كبيرة متوحشة، فتخاف منه وتذهب بعيداً.

ولماذا الغوص هذه الأيام.. وهل هو مجد خاصة في ظل الأضرار التي أصابت المغاصات؟

قال بن حرمش: نحن نعشق الغوص كما قلت لك.. وعلى فكرة لسنا وحدنا في هذا العشق.. فهناك محامل أخرى تخرج معنا من أبوظبي ودبي.. نحن بعودتنا لممارسة الغوص نَحِنُّ إلى أيام تعبنا منها لكن عشقناها.. الغوص هو جزء من تاريخنا.. ومن حياتنا.. ونجد متعة كبيرة في العودة إليه رغم أنه لم يعد مجدياً كما كان في الماضي.. لقد تأثرت المغاصات بهجر الغواصين لها.. ونحن نحاول إحياء هذا التاريخ.. وذلك التراث.. الذي أوشك على الانتهاء.



موائد الإفطار الجماعي في التراث الإسلامي

■ د.سماح أحمد فريد مصطفى

تعد موائد الإفطار الجماعي إحدى مظاهر الاحتفالات الدينية الشعبية التي تجري بمناسبة حلول شهر رمضان، وإلى جانب ذلك فهي تمثل إحدى الممارسات التي تستمد أصولها من التراث الديني الذي يحث على إطعام الفقراء وعابري السبيل، فضلاً عن إنها تمثل في الوقت ذاته إحدى الممارسات الاجتماعية التي تجري من قبل بعض الأفراد والجماعات في مناسبة دينية لها مغزاها في حياة الأفراد بغية تحقيق التكافل الاجتماعي الذي يعد الغاية الرئيسية لنشأة الظاهرة والمبرر الأصلي لتواجدها في الحياة الاجتماعية.

ومجتمع موائد الإفطار الجماعي في علاقته بالمدينة الأم وبالإطار العالمي يتأثر بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية مما ينشأ عنه أوضاع جديدة هي وليدة تلك التفاعلات، وهو ما انعكس بدوره على بعض العادات المرتبطة بهذه الظاهرة.

إطلالة على التاريخ

وقبل أن نسترسل في الحديث عن موائد الإفطار الجماعي في رمضان نلقي أولاً نظرة تاريخية عليها. فهذه الموائد لها تاريخ طويل يرجع إلى عصور إسلامية سابقة، والروايات التاريخية تؤكد أن المصريين عُرفوا بإعداد موائد الإفطار في شهر رمضان منذ زمن طويل، ويقال في هذا الصدد إن أحمد بن طولون حاكم مصر ومؤسس الدولة الطولونية هو أول من رأى في شهر رمضان مناسبة لاستثمار التكافل الاجتماعي ومد الموائد في ربوع مصر، أيضا في ظل العصر الفاطمي تميزت الموائد والتي سميت في تلك الفترة «بالأسمطة» بانتشارها في كافة ربوع مدن مصر، ولم تقتصر على شهر رمضان فقط، بل امتدت إلى مواسم ومناسبات دينية أخرى، فبخلاف سماط الإفطار أقام الفاطميون أيضا سماط السحور، فضلاً عن أسمطة العيدين، والموالد الأربعة النبوي والعلوي والفاطمي والإمام الحاضر، وسماط الحزن الذي كان يمد في عاشوراء، وقد بالغ الفاطميون في تكاليف إقامة هذه الأسمطة التي أقاموا لها داراً تعرف بدار الفطرة، كما اقترنت بتلك الأسمطة ضروب لا تحصى من الهبات والإنعامات والخلع على المسلمين. وتدلنا المصادر التاريخية على حرص الخلفاء الفاطميين على الظهور أمام عامة الناس قبل بدء السماط والمبالغة في إظهار حرص السلطة السياسية على رعاية الشعب. وتميل معظم المصادر التاريخية إلى إرجاع مغالاة الفاطميين في الإحسان للفقراء وغير الفقراء أثناء المناسبات الدينية إلى الدافع السياسي والمتمثل في نشر المذهب الشيعي بين المصريين، والاحتفاظ بمصر كمركز للدولة الفاطمية المترامية الأطراف حينذاك.[1]

كما اتخذ المماليك بعد ذلك من إقامة الولائم في المناسبات الدينية المتعددة وسيلة لإضفاء الشرعية على حكمهم واستمالة المصريين إليهم، فأعادوا مرة أخرى مظاهر المبالغة في إقامة الأسمطة في حضور السلاطين، كما حاكى أمراء المماليك سلاطينهم في الإكثار من الإحسان والصدقات خاصة في شهر رمضان، وارتبط حجم المائدة ومدى اتساعها لأكبر عدد من الرعية بمحاولة إثبات مدى تفوق كل أمير عن غيره من الأمراء الآخرين.[2]

وقد اتسمت فترة الحكم العثماني بالتأرجح بين فترات تم فيها إقامة الولائم ببذخ من قبل السلاطين العثمانيين وبعض الأعيان في القرى والأرياف والتي سميت «بموائد الإفطار»، وفترات أخرى اختفت فيها إقامة الموائد وذلك تبعاً للكوارث الاقتصادية التي تعرضت لها مصر من مجاعة وأوبئة وغلاء شديد، حيث ظهرت في تلك الظروف ضروب أخرى من التكافل الاجتماعي من قبل ميسوري الحال وبعض شيوخ الأزهر ومتوسطي كبار التجار، وقد أعطى الجبرتي صورة حية عن عادات وصدقات الأغنياء وإطعام الفقراء في أنحاء المساجد حول مدينة القاهرة، فضلاً عن إنشاء بعض الأعيان ما يعرف بالتكايا التي كانت تخصص غلتها للإنفاق على أعمال الخير.[3]

في العصر الحديث

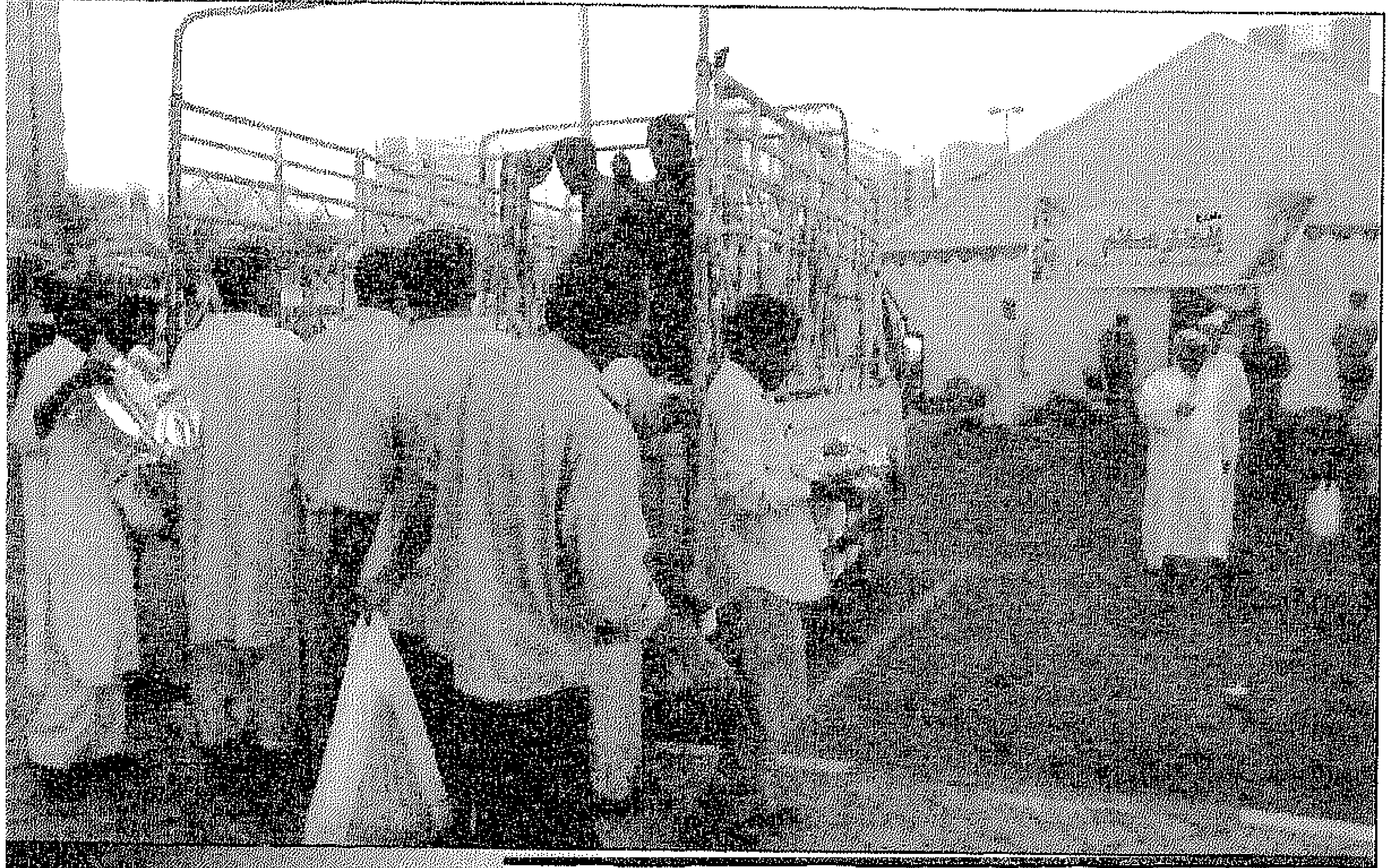
وقد ازدهرت مظاهر التكافل الاجتماعي في عصور مصر الحديثة، ففي ظل الاحتلال الفرنسي تكاتف أهالي الحارة الواحدة غنيهم وفقيرهم في الوقوف ضد الاستعمار، وكانت منازل العلماء تفتح مرتين كل يوم وقت الظهر ووقت المساء كمنزل الشيخ البكري والشيخ السادات لإطعام فقراء القاهرة، ولم يقتصر التكافل الاجتماعي على المساعدات العينية التي يقدمها ميسورو الحال والعلماء للفقراء في المناسبات الدينية، ولكنه امتد ليشمل وجود مظاهر للتضامن الاجتماعي بصورة واضحة، فقد كان كل حي بمثابة الخلية الرئيسية للمدينة، كما كان مسرحاً لحياة اجتماعية مشتركة نشطة ضد الاحتلال الفرنسي.[4]

وقد برزت أيضاً إلى السطح مظاهر التكافل الاجتماعي بين السكان في فترة محمد علي نظراً

لظهور نظام الطوائف الحرفية والأحياء وشيوخ الأحياء، فقد كان مجتمع القاهرة بالرغم من وحدته منقسماً إلى طوائف وأحياء بل وعائلات تربطها في الغالب مصلحة مشتركة كأن تكون اقتصادية كحارة الصاغة أو دينية كحارة النصارى، أو عرقية كحارة المغاربة، وقد كان لتلك البنية الاجتماعية أثرها في تكاتف أو تعاون أهل الحارة الواحدة في السراء والضراء، ويتجلى هذا التعاون في المناسبات الدينية حيث يحرص أغنياء الحي أو الطائفة على إقامة المآدب للفقراء ليأكل منها عابرو السبيل والشحاذون ومساكين الحي.(٥)

وقد تطورت مظاهر التكافل الاجتماعي وأنماطه في فترة الاحتلال البريطاني لمصر كالشكل المؤسسي الذي تمثل في إنشاء وزارة للأوقاف، وتطور اختصاصاتها في مساعدة الفقراء والمحتاجين، والطابع غير المؤسسي الذي عبرت عنه مشاركة الجمعيات الأهلية في التكفل بالفقراء، والطابع الفردي والجماعي الذي تمثل في تبرعات الأهالي وانتشار ظاهرة النذور.(٦)

ولعبت التغيرات التي حدثت في بداية ثورة ١٩٥٢ دوراً مهماً في تقلص عدد الموائد واندثارها على المستويين الرسمي والشعبي معاً، حيث اتجهت الدولة بدلاً من ذلك إلى تقريب الفوارق الطبقية وتحسين أوضاع الفقراء - خاصة العمال منهم- فسنت التشريعات السياسية التي استهدفت زيادة الأجر اليومي للعامل، وتخفيض إيجارات المسكن، وتحسين



توصيل الوجبات الجاهزة إلى خيام الإفطار الجماعي

أوضاع العمل، وإصدار قانون التأمينات الاجتماعية، أما في الريف فكانت الموائد تقام من قبل الموسرين أو العمد، ولم تكن تستمر على مدار شهر رمضان كله بل لمدة يوم أو يومين فقط.(٧)

وقد أسهمت التغيرات التي حدثت في النصف الثاني من عهد السادات -خاصة عملية التحول من النظام الاشتراكي إلى النظام الرأسمالي- بالإضافة إلى انتشار المد الديني، ومحاولة بعض الفئات الطفيلية اكتساب أهمية ومكانة داخل المجتمع المصري في تدعيم بعض الرموز التراثية من خلال المبالغة المظهرية في الإحسان وتوزيع الأطعمة في الأعياد الدينية وإقامة موائد الإفطار والتي سميت في تلك الفترة وحتى الآن بموائد الإفطار الجماعي.■

المراجع

١- ابن الطوير، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، جمع وتحقيق أيمن فؤاد سيد، ألمانيا، ١٩٩٢.

٢- ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٨٤.

٣- أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.

٤- الهام محمد علي ذهني، مصر في كتابات الرحالة الفرنسية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١.

٥- أندريه ريمون، القاهرة تاريخ وحضارة، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.

٦- شحاتة صيام، الدين الشعبي في مصر، نقد العقل المتحايل، رامتان للنشر والتوزيع، الاسكندرية، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

٧- أحمد زايد، الإسلام وتناقضات الحداثة، المجلة الاجتماعية القومية، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، مج ٣١، ١٩٩٤.



إفطار جماعي في إحدى خيام الهلال الأحمر بالإمارات

جهود الهلال الأحمر:

٢٥٠ ألف وجبة إفطار صائم في الإمارات وخدماتها تشمل ٥٠ ألف شخص في ٤٠ دولة

تحرص دولة الإمارات العربية المتحدة على إقامة موائد الإفطار الجماعي في رمضان بشكل رسمي وشعبي.. فعلى المستوى الرسمي تقوم هيئة الهلال الأحمر سنويا بتنفيذ مشاريع رمضان الخيرية المتمثلة في إفطار صائم وزكاة الفطر وكسوة العيد داخل وخارج الدولة، وذلك لمساعدة المحتاجين وتخفيف معاناة المحرومين، وإدخال السرور والغبطة على أسرهم خلال الشهر الفضيل وأيام العيد المباركة انطلاقاً من تعاليم الدين الحنيف التي جعلت من رمضان شهراً للتراحم والتكافل والعطاء، واقتداء بنهج الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)، مترسمة خطى المغفور له بإذن الله الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيب الله ثراه- الذي أرسى أنبل القيم في مساندة الضعيف ونجدة المنكوب وإغاثة الملهوف، ورسخ معاني البذل والعطاء في نفوس أبناء شعبه لأهلهم وجيرانهم والإنسانية جمعاء.

وكما هي عادتها، أعدت الهيئة عدتها هذا العام مبكراً لتعزيز روح التضامن الإنساني في شهر رمضان، من خلال إتاحة الفرصة للمشاركة في أعمالها الخيرية، وفتح الأبواب أمام مساهمات المحسنين، فعلى المستوى المحلي تنفذ الهيئة مشروع إفطار صائم الذي تقدم من خلاله ٢٥٠ ألف وجبة إفطار خلال الشهر الفضيل داخل الدولة، من خلال ٢٨ موقعاً في أبوظبي وبني ياس ومصفح، حيث تقدم حوالي ٨٤ ألف وجبة إفطار خلال الشهر بواقع ٢٨٠٠ وجبة يوميا، و١٢

موقعاً في رأس الخيمة تقدم فيها ٢٧ ألف وجبة إفطار خلال الشهر بواقع ٩٠٠ وجبة يوميا، و٦ مواقع في الفجيرة تقدم ٢٤ ألف وجبة خلال الشهر، كما يقدم المشروع في الشارقة ١٨ ألف وجبة، وفي دبي ١٢ ألف وجبة، وفي عجمان وأم القيوين ١٢ ألف وجبة، وفي العين يقدم المشروع ٣٦ ألف وجبة عبر ٧ مواقع داخل المدينة والمناطق المجاورة لها، إلى جانب ٣٦ ألف وجبة إفطار يتم تقديمها في المنطقة الغربية عبر ١٢ موقعا تغطي مدينة زايد وليوا والمرفأ وغياثي والرويس والسلع. كما تقيم الهيئة بجانب الخيام الرمضانية عدداً من المراكز لتوزيع وجبات الإفطار على الأسر المتعففة في بعض المناطق لتوفير احتياجاتها من المواد الغذائية، نسبة لأن الخيام الرمضانية لا يؤمها إلا العزاب.

وخارجيا تنفذ هيئة الهلال الأحمر خلال شهر رمضان الكريم مشاريع إفطار صائم وكسوة العيد وزكاة الفطر في حوالي ٤٠ دولة في مختلف أنحاء العالم، ويستفيد منها ٥٠ ألف شخص، وذلك انطلاقا من رسالة الهيئة الإنسانية، ومسؤولياتها تجاه الفقراء والمحتاجين، وتحقيقاً لتطلعاتها في تحسين ظروف المستضعفين، ومد جسور التعاون والعطاء مع الشعوب الشقيقة والصديقة كافة، وخصوصا تلك التي تعاني من وطأة الظروف وشظف العيش. والدول التي تشملها تلك المشاريع هي: البوسنة، السنغال، الصومال، السودان، الأردن، البحرين، العراق، الفلبين، الهند، اليمن، أفغانستان، ألبانيا، إثيوبيا، أريتريا، أندونيسيا، باكستان، بنجلاديش، بنين، بوركينافاسو، تايلاند، تشاد، تنزانيا، توجو، تونس، جنوب أفريقيا، جامبيا، سيرلانكا، سوريا، طاجكستان، عمان، غانا، فلسطين، فيتنام، كازخستان، كمبوديا، لبنان، مصر، منغوليا، موريتانيا.

ودائما ما تخصص الهيئة مبالغ إضافية لتنفيذ تلك المشاريع في المناطق الملتهبة من العالم والدول التي تواجه ظروفاً إنسانية استثنائية نتيجة للأزمات والكوارث التي ألمت بها، وفي الأعوام السابقة كانت العراق وفلسطين من أكثر الدول التي نالت اهتمام الهيئة وحظيت بأكبر قدر من تلك المشاريع نسبة لتصاعد وتيرة الأحداث بهما وازدياد حدة الاستضعاف بين سكانهما.

وهذا العام تستعد الهيئة لتعزيز مشاريعها الرمضانية على الساحة اللبنانية التي نكبت بفعل الحرب وتردت أوضاع الأشقاء في لبنان بصورة كبيرة نتيجة لحجم الدمار والخراب الذي لحق بدولتهم، ويجيء تعزيز تلك المشاريع في لبنان امتدادا للبرامج الإنسانية والعمليات الإغاثية التي نفذتها الهيئة لصالح المتأثرين والنازحين بسبب الحرب، حيث تتواصل جهود الهيئة الإغاثية منذ بداية الأزمة وحتى الآن للحد من معاناة الضحايا والمنكوبين وتحسين ظروفهم الإنسانية. وتمكنت الهيئة حتى الآن من إيصال آلاف الأطنان من المواد الإغاثية للمناطق اللبنانية الأكثر تضرراً.

(الجودة بالموجودة)

أما على المستوى الشعبي في دولة الإمارات.. فيحرص كثير من المواطنين في القرى على الجلوس لحظة الإفطار في الساحات أو الشوارع أمام بيوتهم.. يفترشون الحصر.. وأمامهم أصناف متعددة من الطعام جاء بها كل منهم بما تجود به نفسه وإمكانياته.. أو كما يقولون: «الجودة بالموجود».. يعني ما توفر في البيت.. وينتظرون معا لحظة الإفطار.. ويحرصون على دعوة كل مار ليتناول معهم طعام الإفطار بعبارات الترحيب المعتادة «حياك.. حياك.. اقرب» أي تفضل معنا.. وفي هذا تخفيف عن الغريب.. أو من لم يتمكن من الوصول إلى بيته قبل موعد الإفطار.. أما في المدن فيحرص أهل الخير على تقديم وجبات خفيفة على أبواب المساجد يتناول منها المصلون ما يفطرون به قبل الصلاة كما هي سنة الرسول صلى الله عليه وسلم.. وتجد بعض أهل الخير أو من ينوب عنهم يقفون على أبواب المساجد يحملون التمر والماء لتقديمه للقادمين إلى الصلاة. ■

موائد الرحمن في مصر

أشكال متنوعة وتباين شديد في الخصائص

وفي مصر كشفت دراسة ميدانية أنماط الإفطار الجماعي في كل من القاهرة والجيزة وجود تباين شديد في خصائص الموائد وفقاً لتباين الهوية الاجتماعية والسياسية لمنظميها، وكذلك وفقاً لعملية إعادة انتاج ملامح الظاهرة بشكل مستمر، ومن ثم يمكن تقسيم أنماط الموائد وفقاً لمنظميها على النحو التالي:

- الموائد المقامة من قبل التنظيمات والمؤسسات الدينية والتي تعتمد بصفة أساسية على التبرعات المادية والعينية للأهالي كالمساجد والزوايا والأضرحة.

- الموائد التي تقام من قبل التنظيمات أو المؤسسات الدينية كالجمعيات الأهلية والجمعيات الدينية والأحزاب السياسية وبعض المؤسسات التعليمية والتي تعتمد أيضا على تبرعات الأهالي.

- الموائد التي تقام من قبل بعض أصحاب الأنشطة الفردية والجماعية، وينقسم هذا النمط بدوره إلى موائد تقام من قبل أصحاب الأنشطة المهنية كاشتراك مجموعة من الأسر الغنية في تمويل المائدة، أو اشتراك بعض الأصدقاء من ميسوري الحال في تقسيم التكلفة والعمل اللازمين لإقامة المائدة بالتساوي بينهم، وينتشر هذا النمط في بعض الأحياء المتوسطة بمدينة القاهرة، وهناك الموائد التي تقام من قبل أصحاب الأنشطة الدينية كشيوخ الأضرحة، والطرق الصوفية، وبعض التنظيمات الدينية الشعبية، وقد أثبت العمل الميداني أن مسؤولية تمويل المائدة والإنفاق عليها يقع العبء الأكبر منهما على تبرعات الأهالي المادية والعينية، كما تنتشر الموائد التي يقيمها أصحاب الأنشطة التجارية والاقتصادية خاصة في الأحياء الراقية من حضر القاهرة كالمقاولين ورجال الأعمال وأصحاب شركات الصرافة وأصحاب المصانع والمتاجر وشركات الاتصالات الحديثة، وهناك أيضاً أصحاب الأنشطة السياسية كمرشحي الدوائر الانتخابية، وأصحاب الأنشطة الفنية والترويحية كالفنادق الليلية.

أشكالها وصورها

١- السرادقات الكبيرة

قد تظهر مائدة الإفطار الجماعي على شكل سرادق كبير أو مجموعة من السرادقات المتلاصقة والتي تنصب على شكل صوان كبير في أحد أرجاء الشوارع الرئيسية أو الجانبية، وغالباً ما يستوعب السرادق أعداداً كبيرة من المترددين علي الموائد قد يصل في بعض الحالات إلى ألف شخص، ويتكون السرادق عادة من صوان كبير مصنوع من قماش الخيام والتي يشتهر بها حي الخيامية بالدرب الأحمر بالقاهرة، ويوضع به عدد من المناضد والمقاعد المتلاصقة بجوار بعضها وذلك لاستغلال الفراغات المتواجدة بين المناضد، بحيث يترك جزء صغير أمام مدخل السرادق فقط لاستخدامه في مرور المترددين وتوزيع الأطعمة.

٢- السرادقات الصغيرة

تمثل هذه السرادقات شكلاً آخر من أشكال موائد الإفطار الجماعي التي تتواجد بكثرة في الواقع الميداني نظراً لسهولة نصبها في



إفطار جماعي في مصر فيما يسمى هناك بموائد الرحمن

الشوارع الضيقة والفرعية وعلى الأرصفة، فضلاً عن قدرتها على استيعاب أعدادٍ كبيرة من المترددين يتراوح عددهم ما بين ٣٠٠-٤٠٠ فرد.

٣- الخيام

تعد الخيام شكلاً آخر من أشكال الموائد، وغالباً ما يتواجد هذا الشكل بكثرة في الأحياء الراقية، حيث يتم نصب خيمة كبيرة أو متوسطة الحجم من القماش العادي أو قماش الخيام وفرشها بالحصر داخل الخيمة وأحياناً خارجها لتوضع عليها إما طبليات من الخشب أو من الصاج متراصة بجوار بعضها، بحيث تجلس على كل طبلية عائلة أو جماعة من الأفراد، وغالباً لا تتجاوز سعة الخيمة الواحدة حوالي ١٥٠ فرداً.

٤- المناضد المكشوفة

تحتل المناضد المتراصة بجانب بعضها والمكشوفة في الشوارع والميادين نسبة كبيرة أيضاً من أشكال موائد الإفطار الجماعي، وتتنوع ما بين المناضد الخشبية والمناضد الملونة والمناضد البلاستيكية، ومن ثم توضع المناضد متلاصقة بجوار بعضها حتى لا تحتل مساحة كبيرة من الشوارع، وتحرص بعض الجمعيات الأهلية والدينية على وضع هذه المناضد داخل مقر المؤسسة ذاتها حرصاً على عدم إحراج المترددين بتناول طعام الإفطار أمام أعين المارة.

٥- الحصر على الأرض

قد يكتفي القائمون على شؤون هذه الموائد بفرش حصر فقط خضراء اللون على الأرض ليجلس عليها جمهور المترددين دون الدخول في عناء إقامة السرادقات وما يستلزم ذلك من إمكانيات مادية قد لا تتوافر لبعض منظمي الموائد، ومن ثم يحرص أصحاب الموائد على تقسيم مكان المائدة بحصر منفصلة عن بعضها البعض بحيث تخصص حصيرة طويلة للنساء، وأخرى للرجال، وحصر صغيرة توضع في ركن معين بعيداً عن الحصر الأخرى كي يجلس عليها بعض الأسر مجتمعة مع أطفالهم.

تنويعات فلكلورية لوجبات الإفطار

١- الوجبات الجماعية

يقوم عمال المائدة هنا بوضع بعض الأطباق المشتركة من الأطعمة ليشترك فيها الحاضرون كافة على المائدة، وفيما يتعلق بكيفية توزيع هذه الوجبات فتمدنا الشواهد الميدانية بمرور عمال المائدة بين المترددين وتشكيلهم لكل مجموعة من المترددين الذين يتم توزيعهم على تشكيلات دائرية لتسهيل مرورهم وايصال الأطباق ووضعها داخل كل تشكيل، ثم يمرون مرة أخرى لتوزيع قطع اللحم أو الدجاج على كل فرد منهم على حدة، ويعد هذا النوع من أسوأ أنواع الوجبات التي تقدم نظراً لأنها قد تظهر أنماطاً متعددة من الصراعات بين المترددين على ما يقدم من أطعمة.

٢- الوجبات الثنائية

يستعين بعض مقيمي موائد الإفطار الجماعي ببعض الصواني المقسمة إلى فراغات لوضع بعض الأطعمة بها، بحيث تخصص كل صينية لكل فردين متقابلين على المائدة، ويؤخذ على هذا النوع من الوجبات أنه في كثير من الأحيان لا تكفي الأطعمة حاجات المترددين نظراً لصغر حجم الفراغات الموجودة بالصينية.

٣- الوجبات الفردية

ويندرج تحت هذا النوع معظم حالات الدراسة الميدانية، ويتمثل في تقديم وجبة لكل فرد مكونة من طبق من الأرز وآخر من الخضار المطهي وقطعة من اللحم أو الدجاج وأحياناً طبق من السلاطة، وقد تبين من البحث الميداني أن الشكل السائد في توزيع وجبات الإفطار الفردية يتمثل في تقديم الوجبات تباعاً على كل منضدة يكتمل فيها عدد الأفراد الجالسين حولها، ويفضل مقيمو الموائد تقديم مثل هذا النوع من الوجبات لأنه يكفي حاجات الصائمين، كما إنه يقلل من حدة الصراعات التي قد تتواجد على الموائد نظراً لتقسيم أنواع الطعام المطهي على كافة المترددين بالتساوي.

حداثة الوجبات

ارتبط التغير الحادث في بنية الظاهرة وشكلها العام بثقافة الحداثة التي اجتاحت عناصر التراث الشعبي كافة، بما في ذلك العادات والتقاليد الشعبية والمستمدة أساساً من التراث الثقافي والديني كالتجديد في أشكال الوجبات، وتجديد أشكال السرادقات وزينتها، فضلاً عن استحداث بعض الأشكال الدعائية وأشكال الإعلان عنها، وفيما يلي بعض مظاهر الحداثة التي طرأت على الموائد.

١- الوجبات الجاهزة

بدأ بعض منظمي الموائد باستحداث نوع من الوجبات يسمى في الواقع الميداني «الوجبات الجاهزة» وهي من الظواهر المستحدثة، حيث يتم وضع بعض الأطعمة في علب أو صناديق من الورق المقوى، أو في أكياس نايلون تمهيداً لتوزيعها على الأفراد الراغبين في الإفطار مع أسرهم أو في أماكن عملهم، ويتميز هذا الشكل بسهولة توزيعه، ويحظى بالإقبال الشديد عليه من جانب المترددين نظراً لكونه عامراً بمختلف الأطعمة، وغالبا ما تتكون كل وجبة من علبة بلاستيكية من الأرز وأخرى تحتوي على نوع من الخضار المطهي وعلبة من السلاطة الخضراء بجانب قطعة اللحم أو ربع دجاجة ملفوفة بورق الفويل، أو النايلون، بالإضافة إلى تقديم نوع من الحلويات كبلح الشام أو علبة بلاستيكية من المهلبية أو الأرز باللبن، وفي بعض الموائد يتم الاتفاق مع أحد المطاعم الصغيرة لإعداد أطعمة المائدة وتجهيزها في علب كرتونية وإحضارها إلى المائدة قبل الإفطار مباشرة ليتم توزيعها على الأفراد من خلال طوابير مزدحمة، وهناك قليل من الموائد التي يحرص أصحابها على إرسال هذه الوجبات المجهزة إلى بعض الأفراد في أماكن عملهم كعساكر المرور وعمال المحال التجارية والأفراد وغيرهم من الفئات التي يعتبرونها مستحقة لوجبات الإفطار، وهناك من الموائد ما تقتصر على توزيع الوجبات الجاهزة

فقط نظراً لسهولة توزيع الطعام دون عناء إقامة سرادق أو الاستعانة بالعمال للطهي وغيرها من الأمور المرتبطة بإقامة المائدة.

٢- الوجبات السريعة

يشير مصطلح الوجبات السريعة هنا إلى بعض الوجبات التي تقدم لبعض المترددين الذين يحضرون إلى المائدة مبكراً، ويكون قبل الإفطار بساعتين لأخذ وجباتهم في أدوات خاصة بهم يحضرونها خصيصاً لملئها بالأطعمة، ويتم تقديم مثل هذه الوجبات عن طريق وقوف أحد العاملين أو القائمين على شؤون المائدة أمام إحدى المناضد التي يوضع عليها إناء الطعام ليتم توزيع ما فيه على الأفراد للحصول على وجبة سريعة. وهناك بعض منظمي الموائد ممن يرفضون هذه الطريقة لانتفاء الوظيفة المنوطة بها وهي إفطار عابري السبيل.

٣- بطاقات وجبات الإفطار

حرص بعض منظمي الموائد على تخصيص بطاقات (كوبونات) لإفطار بعض الجماعات التي يعدونها مستحقة للعطاء، وهي عبارة عن مجموعة من البطاقات المختومة من إدارة الجمعية الأهلية أو المؤسسة التي تتبعها المائدة، والمقسمة إلى ثلاثين يوماً بحيث يتم توزيع هذه البطاقات على عمال المترو وبعض سائقي الحافلات وعساكر المرور بالمنطقة وبعض العاملين بالمؤسسات والمصانع والشركات المجاورة للمائدة وبعض الباعة الجائلين قبل حلول شهر رمضان بعدة أيام، ووفقاً لذلك يقوم موزعو الطعام بإعطاء كل فرد الوجبة المخصصة له.

٤- خدمة توصيل الوجبات للمنازل

أظهرت الدراسة الميدانية وجود شكل آخر من وجبات الإفطار مؤداه أن يقوم أحد المتطوعين من سكان أحد الأحياء -غالبا ما يكون من الشباب- بتجميع بعض التبرعات من السكان وذلك لشراء بعض المواد التموينية كالسكر والزيت والسمن وأكياس من الأرز والتمر وتوزيعها على بعض فقراء الحي أو العاملين به كالبوابين والكناسين والمعروفين لديهم سلفا.

وهناك أيضا بعض الأسر التي تأخذ على عاتقها مهمة إرسال وجبات الإفطار لبعض الجيران من فقراء الحي، وغالباً ما يتم ذلك بشكل سري حفاظاً على كرامة الأسر الفقيرة التي قد تتحرج من الجلوس على المائدة أمام المارة وخاصة في الأحياء الشعبية، وقد امتد هذا التقليد في الفترة الأخيرة إلى العديد من مؤسسات المجتمع المدني.

٥- رسائل المحمول والبريد الالكتروني لتوصيل الطلبات

تقوم بعض المؤسسات والجمعيات الخيرية بنشر رسائل عبر المحمول وكذلك البريد الالكتروني لبعض المتبرعين ورجال الأعمال المعروفين بإقامتهم لموائد الإفطار الجماعي أو أية أنشطة تكافلية شبيهة بغرض توجيههم لأماكن بعض الفقراء أو المحتاجين كي يقوموا بتوصيل الوجبات الجاهزة إليهم في موعد الإفطار، وهناك أيضا شكل آخر يتمثل في دعوة بعض الأفراد لشراء الأطعمة الجافة كالسكر أو ياميش رمضان أو الأرز أو السمن وغيرها من المواد التموينية وإرسالها في أكياس صغيرة إلى مقر الجمعية، أو توصيلها بأنفسهم إلى الفقراء المسجلين سلفاً في سجلات الجمعية كأفراد مستحقين للعطاء.

٦- وسائل التبرع الالكتروني

استفادت بعض الجمعيات من استئجار خدمات الانترنت المجاني ليدخل عليها من يريد التبرع بحيث تستفيد الجمعية من عائد الخدمة المالي في توصيل الطلبات الجاهزة للصائمين، وأحياناً تتم الدعاية لرقم الإنترنت المجاني عبر وسائل الإعلام من أجل زيادة عدد الأفراد المتبرعين، ويطلق على هذا التبرع مصطلح «إنترنت الخير» وهو مصطلح تم اشتقاقه من عمليات التبرع التي يقوم بها الأفراد لبناء بعض المستشفيات وغيرها، وقد لاقى هذا النمط من أشكال التبرع قبولاً وانتشاراً كبيرين بين الأفراد خلال شهر رمضان.■

وفي اليمن..

عدد المستفيدين يصل إلى مليون شخص

■ صنعاء - محمد السيد

ما إن يقترب رمضان.. حتى تنتشر في اليمن إعلانات مشاريع الإفطار الجماعي الرمضانية في الشوارع وشاشات التلفزة وعلى صفحات الصحف، والتي اتضح منها أن المنافسة محتدمة هذا العام بين عشرات الجمعيات الخيرية على إقامة موائد الإفطار الجماعي لضيوفها من الفقراء والمساكين وعابري السبيل، وقد أصبحت هذه الموائد ظاهرة تنتشر في القرى والمدن اليمنية، وقد أكدت التقديرات أن عدد روادها قفز إلى نحو مليون شخص سنويا.

وتبرز هذه الظاهرة الطيبة بشكل لافت للنظر في القرى، حيث تمتد الموائد عامرة بأطيب الأطعمة الشعبية في دواوين تسمى بـ (دواوين الوقف) أوقفها أصحابها منذ زمن بعيد لهذا الغرض.

أما في المدن، فتنتشر هذه الموائد في الشوارع والمساجد والخيام التي تقام خصيصاً لنفس الهدف مجسدة صورة رائعة من التكافل والتراحم بين أوساط المجتمع اليمني.

البداية مجهولة

لا أحد يعرف على وجه اليقين متى بدأت موائد الإفطار الجماعي في اليمن، لكنها تظل أحد أهم مظاهر الاحتفال بشهر رمضان، لما تشهده من تنافس محموم من قبل القائمين عليها.. الذين يختلفون من فترة زمنية لأخرى، فخلال الفترة من (١٩٥٠ - ١٩٨٠م) تولى الأغنياء والموسرون في مجتمع القرى اليمنية إقامة موائد الإفطار، كما يوجد في بعض المساجد مرفق ملحق بها يُسمى (منزلة)، يجد فيه الكثيرون فرصة لإقامة موائد الإفطار من خلال جهود ذاتية، أو يتولى كل بيت إعداد بعض الأطباق وتقديمها إلى ضيوف الرحمن في المنزلة، ولا يبدؤون الطعام إلاّ بعد صلاة المغرب.

أما في المدن مثل صنعاء وحضرموت وعدن وتعز، فتأخذ المساجد على عاتقها هذا الدور، حيث تتلقى التبرعات والهبات من المصلين الذين يحرص عدد منهم على الإفطار مع ضيوف المائدة.

وخلال العقد الأخير من القرن العشرين (١٩٩٠ - ٢٠٠٠م) برز العمل الخيري بصورة أكثر تنظيماً، حيث طورت الجمعيات الخيرية خدماتها، حتى وصل عددها عام ١٩٩٩م إلى (١٠٩٦) جمعية خيرية و(٧٢٢) جمعية تعاونية و(١٦٧) جمعية اجتماعية.. بالإضافة إلى ست مؤسسات خيرية وفق إحصاءات وزارة الشؤون الاجتماعية باليمن. وقد حاولنا البحث عن أرقام وإحصائيات محددة بمقدار ما ينفقه اليمنيون على موائد الإفطار الجماعي، إلاّ أن جهودنا تلك باءت بالفشل، لكن المؤشرات تؤكد دخول هذه الأرقام دائرة الملايين من الريالات.. وقد قدرت جمعية الإصلاح الاجتماعي الخيرية باليمن عدد المستفيدين من موائد الإفطار الرمضانية المفتوحة التي تُقيمها بمعظم المحافظات اليمنية خلال عام واحد فقط بنحو ٨٧٣ ألف شخص، إضافة إلى توزيع وجبات إفطار جاهزة على ٣٩ ألف أسرة فقيرة، حيث اتبعت بعض الجمعيات الخيرية تقليداً جديداً هو إرسال وجبات الإفطار إلى منازل الفقراء والمحتاجين الذين يمنعهم



الهلال الأحمر الإماراتية تساهم في تقديم وجبات الإفطار الجماعي في اليمن

التعفف من الذهاب إلى موائد الإفطار.

انتشار في كل مكان

يقول الدكتور عبد المؤمن شجاع الدين أستاذ الفقه المقارن بكلية الشريعة والقانون -جامعة صنعاء: إن ظاهرة موائد الإفطار الجماعي أو ما يطلق عليها اليوم بـ(موائد الرحمن)، انتشرت في المدن والقرى اليمنية منذ القدم، فتكاد لا تخلو قرية يمنية من وجود ديوان يُسمى بـ(ديوان الوقف) يتم فرشه وتجهيزه من قبل أصحاب الوقف، حيث تقام الموائد سواءً من قبل متعهد وقف الديوان نفسه، أو من قبل أهل الخير، ولا يزال العديد منها قائماً إلى يومنا هذا تحتضن عابري السبيل والفقراء من أهل القرية وخارجها. فقد كانت هذه الطريقة أكثر فعالية مما يتم الآن في كثير من الدول بما يُعرف بـ(موائد الرحمن).

ومن جهة أخرى، فإن هذه الدواوين -التي يحرص أصحابها على عدم إظهار أسمائهم وعدم المفاخرة بأعمالهم- قد لعبت دوراً في استمرار روح التكافل الاجتماعي بين مختلف شرائح المجتمع. إضافة إلى أن بعض المصلين يأتون لصلاة المغرب في المسجد وكل منهم يحمل ما تجود به نفسه من أطعمة ومشروبات ويضعها أمام المشاركين.

التسابق لفعل الخير

الدكتور أحمد عبد الوهاب أستاذ الدراسات الإسلامية أشار إلى أن الريف اليمني يحرص على الإعداد لموائد الإفطار قبل حلول رمضان بشهر، التي كما ذكرنا يتكفل بها أحد الأغنياء والوجهاء الموسرون في القرية طوال شهر رمضان، أو أن يتم تقسيم سكان القرية إلى مجموعات كل مجموعة تتكفل بإعداد مائدة الإفطار في يوم معين، وهو ما يعرف باسم (راتب)، وهذا ما يفضله سكان القرية على أساس أنه يعطي الجميع فرصة المشاركة في عمل الخير دون أن يثقل كاهلهم.



من أعمال الخير لجمعية الهلال الأحمر الإماراتية في اليمن

أجر مضاعف

فضيلة الشيخ جبري إبراهيم الأهدل يؤكد بدوره على أن موائد الإفطار الجماعي تكتسب أهمية كبيرة كونها تتميز بأجرها المضاعف في شهر رمضان، وهي تستهدف شريحة مهمة من المجتمع المسلم تتمثل بشريحة الفقراء والمساكين، لذا فقد حرص السلف الصالح منذ القدم على إقامة موائد الإفطار طمعاً ورجاءً في نيل الخير والثواب.

موائد الأمس واليوم

هل ما تزال موائد الإفطار الجماعي اليوم كما كانت علية أيام زمان؟!

أستاذ علم الاجتماع عبد الله فؤاد يجيبنا على هذا التساؤل بقوله: لعل أهم ما يميز موائد رمضان في الزمن الجميل (قديماً)، إنها كانت تقام في (دواوين الوقف)، حيث يجتمع الغني والفقير والمسكين لتناول وجبة الإفطار، وبعد ذلك تتحول هذه الدواوين إلى مكان للسهر يحتضن مختلف شرائح المجتمع فقراء وأغنياء، بل وعابري سبيل لساعات متأخرة من الليل، يناقشون أمور دينهم ودنياهم، ويتعارف الجميع فيزداد الترابط والتواصل الاجتماعي، وتسقط الحواجز النفسية والاجتماعية بين الفقراء والأغنياء. أما موائد الإفطار الجماعي في هذه الأيام، فقد خرجت من دواوين الوقف و(منزلة) المسجد إلى مشاريع إفطار إعلانية في الشوارع والصحف وشاشات التلفزة. والأطرف من ذلك أنها لم تُعد للمحتاجين فقط، ولم تعد حكراً على الجمعيات الخيرية، فالأشخاص الموسرون الذين يعملون جنباً إلى جنب يومياً يجدون في شهر رمضان فرصة للالتقاء حول موائد الإفطار الرمضانية، ولا سيما الموظفون والعاملون من العزاب. ■

وفي الجزائر..

«الشوربة للجميع» في مطعم الرحمة

■ نجاة أحمد عروة

في منتصف القرن التاسع عشر، حين بدأت عادة السفر للمتعة والاستكشاف تنتشر في الوسط الأوروبي، زارت الآنسة «بيتم إوارد» الانجليزية مدينة الجزائر. ثم كتبت مذكراتها تحكي رحلتها على متن سفينة انطلاقاً من ميناء مرسيليا، وإقامتها بمدينة الجزائر وجولاتها عبر شوارعها. كتبت عن تقاليد أهل العاصمة آنذاك، ومن بين ما شد انتباهها صوم رمضان الكريم وامتناع الناس فيه عن الطعام حتى وقت الإفطار مساء وحرصهم على مساعدة الفقراء طيلة الشهر المعظم.

الواقع أنها شاهدت ما شاهده غيرها من الرحالة والمؤلفين ودوّنوه في تلك الفترة وقبلها. فعادة توفير إفطار للفقراء وعابري السبيل في شهر رمضان شائعة في الجزائر منذ عهد بعيد لا يذكر بالضبط، كان ينفق لها من مال الوقف ومن الهبات الخاصة فهو شهر التضامن والتآزر والرحمة.

وقد جرت عادة توفير موائد الإفطار في مختلف أنحاء الجزائر طيلة شهر رمضان بجمع الأموال من عند أعيان المدينة، ثم تعيين وكيل عليها يكلف عوناً (معاون) بشراء الخضراوات والفواكه واللحوم وغيرها من التوابل ومستحقات تحضير الفطور بالكمية الكافية، ويكلف عوناً آخر باستئجار الطباخين والأواني وتهيئة المحل الذي يتم فيه تحضير وتقديم موائد الإفطار. هناك أيضا مساعدات مادية أخرى يقدمها بعض التجار والمزارعين والشركات الخاصة أو العمومية، مما تنتجه من مواد غذائية وخضراوات وفواكه ولحوم ومشروبات وحلوى ومخبوزات وغيرها. كان الأمر يتم على هذا النحو بمبادرة من الأهالي ولا تزال العادة كذلك، غير أنها أصبحت هذه الأيام تتم أيضا بمشاركة الجمعيات الخيرية سيما منظمة الهلال الأحمر الجزائري، ووزارة العمل والتضامن الاجتماعي التي تعين لجنة تنظيمية مشتركة مكونة من ممثلي عدة وزارات، مكلفة بتخطيط وتحضير ومتابعة وتقييم العملية على مستوى البلديات. حيث يهيء بعض أصحاب المطاعم والمقاهي محلاتهم لإيواء «مائدة رمضان» أو «مائدة الهلال» (نسبة للهلال الأحمر الجزائري) أو «الشوربة للجميع» (الشوربة هي حساء تقليدي يقدم في مقدمة الأكل) لفائدة المحتاجين وعابري السبيل، وتسمى بالمناسبة «مطعم الرحمة». فالهلال الأحمر وحده يدير ما يفوق ٢٥٠ مطعماً، ويقدم ما يقارب المليون ونصف المليون وجبة غذائية سنوياً. الملاحظ أن النساء من ذوات الحاجة محتشمات وقليلات التردد على هذه الموائد، وهن يفضلن أخذ نصيبهن من الطعام في الأواني والعودة لتناوله مع أولادهن في البيوت. تقدم في الغالب وجبتان، واحدة عند الإفطار وواحدة قبل الإمساك، تحتويان على نفس الطعام الذي يهيأ في البيت تماما. بداية بالتمر والمشروبات، ثم الشوربة الحمراء التقليدية، ثم بعض أطباق اللحم والسلطة وملفوف «البوراك» المحشي باللحم أو بغيره، ثم الفواكه إلى أن يختتم الطعام بفنجان القهوة أو الشاي والحلويات الرمضانية. ■

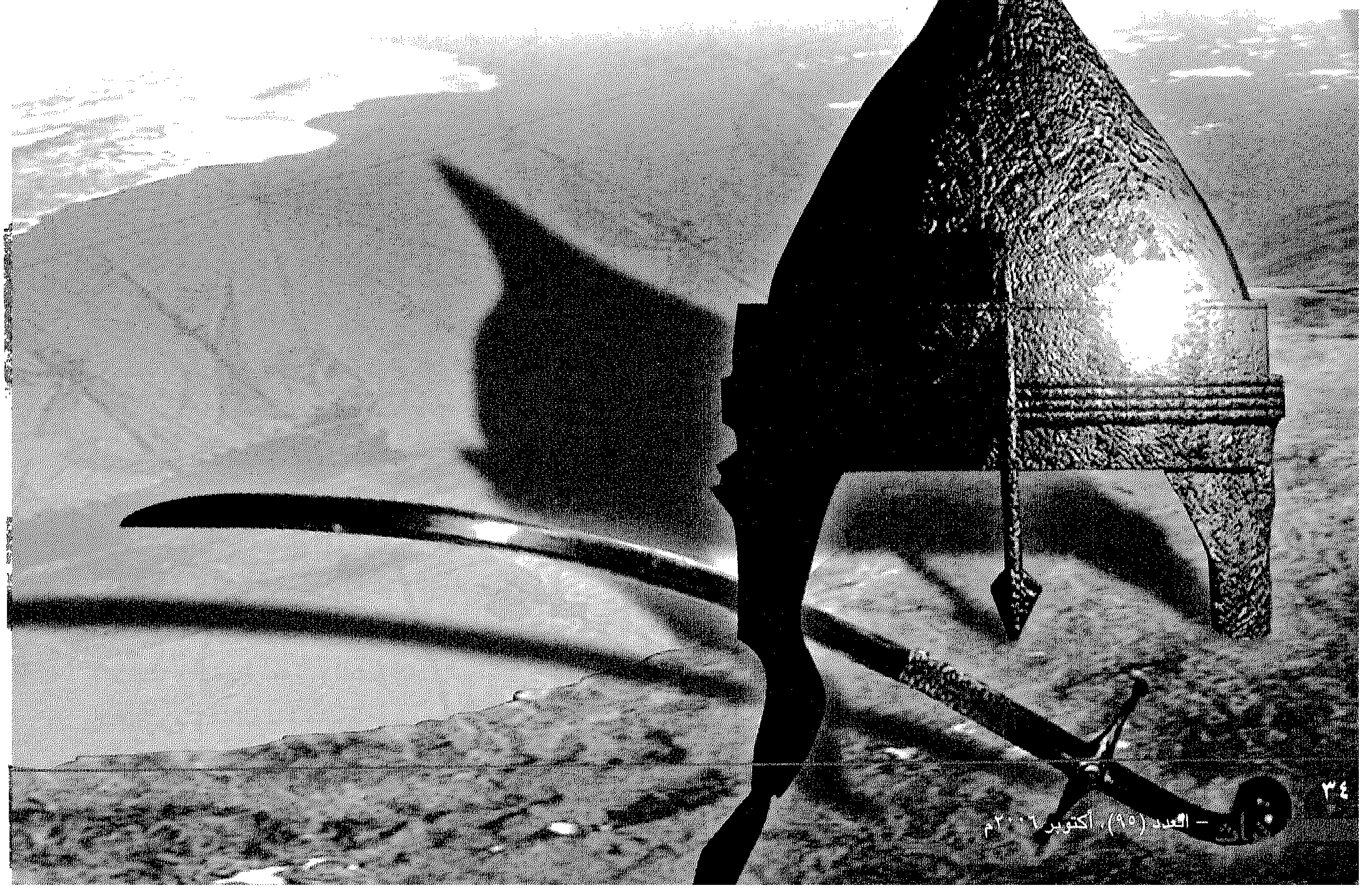
الفتح الأندلسي في رمضان

■ أ.د. عبدالرحمن الحَجّي

في التاريخ الإسلامي أمجاد فتوحات متنوّعة عسكرية ونفسية وعلمية، امتلأت بها صفحات التاريخ الإسلامي بشكل عام، والأندلسي بشكل خاص، وفي حديثنا عن أحداث الأندلس نجد أن بعضها لم يَخْلُ من المرارة، إلا أنّ الأحداث المجيدة فيه كثيرة متكاثرة، وهي مرموقة متفاخرة.

ففي رمضان سنة ٩١هـ (٧١٠م) كان عبور سَرِيَّة طَرِيف بن مالك (أبو زُرْعة) لقيادة الحملة الاستكشافية، من سَبْتة إلى الأندلس، في خمسمائة جندي، فيهم مئة فارس. ثمّ عبر طارق بجيشه في الخامس من رجب سنة ٩٢هـ (٧١١م)، حيث جرت في رمضان معركة وادي البَرْباط.. وهي المعركة الفاصلة التي جرت مع الجيش القُوطي في جنوبي إسبانيا. وسيأتي الحديث عنها لاحقاً.

أستاذ التاريخ الأندلسي
dr_hajji@hotmail.com



ثم عبور موسى بن نُصَيْر إلى الأندلس بجيش فاتح، نجدةً لطارق، بثمانية عشر ألف جندي، سنة ٩٣هـ (حزيران ٧١٢م).

وهناك عدّة أمور تخصّ الفتح الإسلامي في الأندلس، جَرَت في السنة التالية (٩٤هـ).

- ابتداء ولاية السَّمْح بن مالك الخَوْلاني للأندلس في رمضان سنة مئة هجرية، أيام الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (١٠٢هـ). واستُشْهد السمح في جَنوبي فرنسا مجاهداً، يوم التروية أو عرفة سنة ١٠٢هـ.

- كانت معركة بَلاط الشهداء (تور- بواتييه Tours - Poitiers)، واستمرّت عشرة أيام سنة ١١٤هـ (تشرين الأول . تشرين الثاني ٧٣٢م). ولعلّي أُفردها بمقال مستقلّ، إن شاء الله تعالى.

انظر الخريطة (ص٣٧) التي تبين موقع معركة بلاط الشهداء وخطوط سير حملات الفتح في فرنسا شرقاً وغرباً، ابتداءً من ولاية السمح بن مالك الخولاني:

- كان ظهور النورمان (الهجوم الخامس) على سواحل الأندلس بداية رمضان سنة ٣٦٠هـ (٩٦١م).

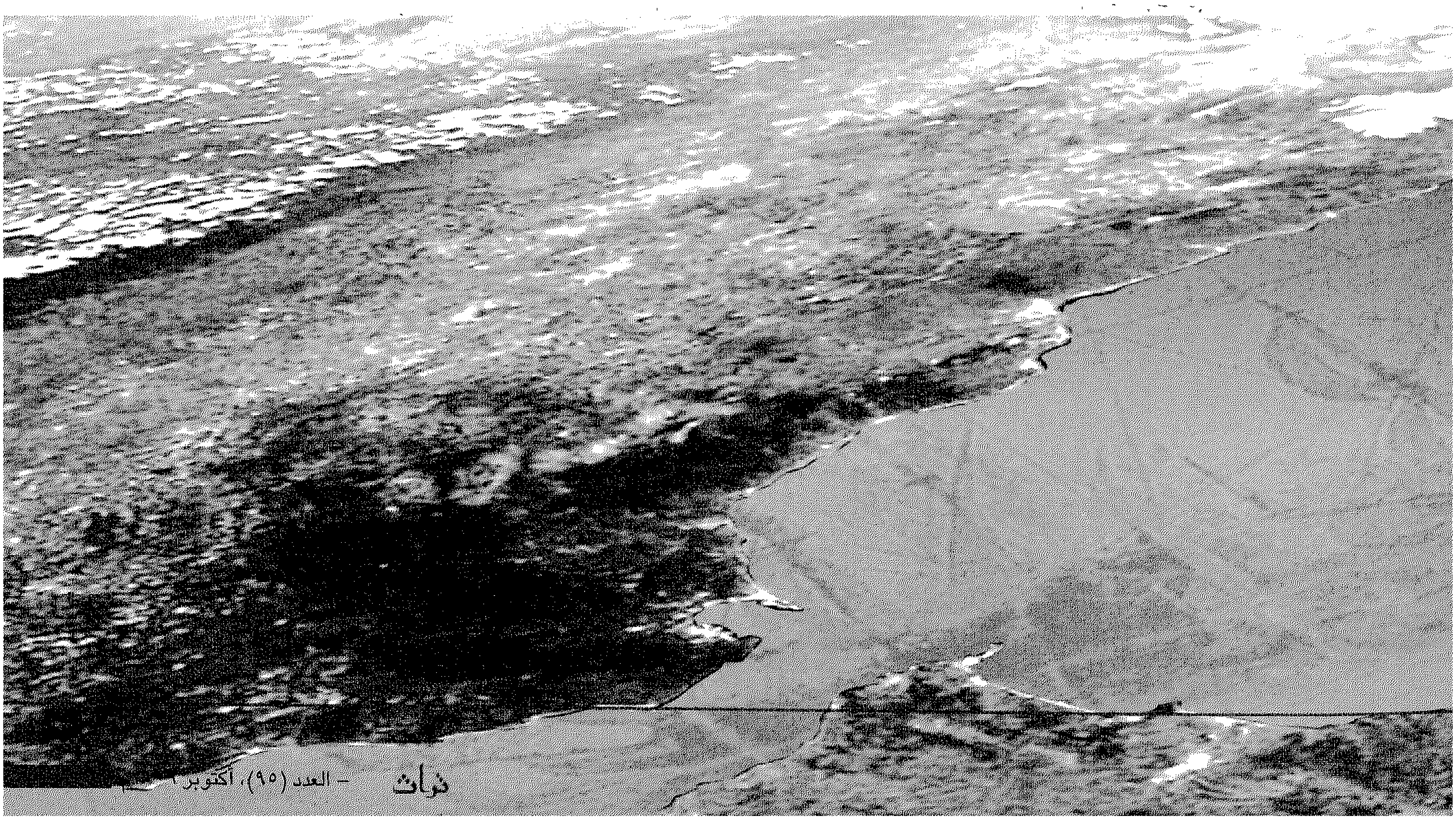
- قيام مملكة غَرناطة أواخر رمضان سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٨م)، في جنوبي شبه الجزيرة الأندلسية.

إنّ كلّ نصر يكون للإسلام هو بذاته عيد للمسلمين. وكونه في رمضان يعني التقاء العيدين: عيده وعيد انتصاراته.

رمضان زينات وأنوار

ولرمضان في الأندلس -خلال القرون الثمانية، مثلما في بقية العالم الإسلامي وأجياله- مكانة وأعراف وأنوار وأمهار. فالمجتمع كان يتزيّن بأنواع الزينات الجمالية والحياتية والاجتماعية، وتنشط النفوس بالخير والكرم والعلم، في جوامعها وجامعاتها. وجامع قرطبة -وهو جامعتها العتيدة- بأعمدته الرشيقة وسواريه الرفيعة المترفّعة ومواقعه المتحلّقة، مزدهر ومثمر ومعمر. ولقد مرّت بالأندلس أحداث خلال رمضان كثيرة منها الفُتوحات المتنوّعة المعروفة.

ولقد ترك رمضان لغيره الكثير المثيلات، أمثال معركة الزَّلاّقة، التي جرت في رجب الخير سنة ٤٧٩هـ (تشرين الأول «أكتوبر»، ١٠٨٦م)، والتي أنسأت[1] في عمر الأندلس أربعة قرون أخرى.[2]



ولقد جرت أيضا بعض الأحداث المُرّة فيه، ووقعت نكبات شديدة. كما مرّت بالأندلس وأهله فيه أيام عنيفة، لا سيما بعد سقوط غَرْناطة (٨٩٧هـ / ١٤٩٢م).

فتح الأندلس

لقد أتمّ الله تعالى هذا الفتح العظيم ابتداءً للمسلمين في رمضان، وتباشيره كانت في المعركة الأولى حول نهر البَرْباط Barbate، بقيادة طارق بن زياد. وتتتابع عملياتها مارّة بثلاث مراحل:

الأولى: الحملة الاستطلاعية

وهي حملة طَريف بن مالك (أبو زُرْعة) الاستكشافية، حيث بعد أن وافق الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) –من مراسلات موسى بن نُصَيْر، والي الشّمال الإفريقي– وعلى أن يختبرها بالسرايا خوفاً على المسلمين، جهّز الحملة التي قادها طَريف من مدينة سبتة Ceuta على مضيق جبل طارق بالمغرب إلى الأندلس. ورست سفنه بجنودها الخمسمائة –بخيولهم المئة– في الجزيرة التي عُرفت باسمه، وبكلّ اللغات وحتى اليوم (جزيرة طَريف Tarifa، البعيدة عن المضيق، مكان العبور. وبدأ يُرسل سراياها في اتجاهات عِدَّة لاختبار الحال وجمع المعلومات. ونزولهم في هذه الجزيرة يدلّ على خُطّة مدروسة. فهي أنسب لهذه المهمّة مثلما كان النزول في جبل طارق أنسب لتلك المهمة. ولا بدّ أن طَريفاً –بجنده– بقي أياماً أو أكثر. والذي يبدو أنّ هذه الجزيرة لم تكن مأهولة. واستعمال الخيول كان للضرورة فهي لازمة للمهمّة وتدلّ عليها.

ومن الممكن أن يكونوا قد تَخَفَّوْا، وكان لهم أدلّاء من أهل البلاد. وهذا يقود إلى استنتاج أنّ بعض أهل تلك البلاد دخل الإسلام قبل هذا الفتح. ولعلّ منهم من كان مع سرايا الجيش الإسلامي، أو قَدِم معهم من شَمال إفريقيا. وبعدما أنجزت الحملة مهمّتها –خلال مدّة نجهلها، لكنّها قد تقدّر بالأيام أو أكثر– عادت بالمعلومات التي على ضوئها رُسِمت الخُطط اللازمة.

الثانية: حملة الفتح

وبدأ موسى بعد ذلك بالتجهيز لحملة الفتح. وعَبرت الجيوش الإسلامية من سَبْتة بالمغرب إلى الأندلس، وكان آخر أفواجهم –بصحبة طارق– في رجب الخير سنة ٩٢هـ على دفعات لترسو على جبل طارق Gibraltar وبكافة اللغات أيضا، مكافأة دنيوية على هذا الجهاد. وما عند الله تعالى للمجاهدين والفاتحين أكبر.

وكان آخر فوج قد عبر به طارق بن زياد، الذي لانعرف عنه غير قليل. فهو بربري من قبيلة نَفْزَة، وُلد مسلماً، ولابد أنه عُرف بجهاده، في المغرب خلال الفُتوحات ونشر الاسلام فيه حتى استحق أن يختاره موسى بن نُصَيْر قائد الحامية العسكرية الإسلامية في طَنْجة Tanger ، ثم قائداً لفتح الأندلس.

وعبر طارق المضيق من سَبْتة إلى الجبل المنتصب كالأسد أمامه، مؤخرته إلى البحر المتوسط ورأسه إلى المحيط الأطلسي، كأنه قادم من المتوسط بعد أن جال ليتجه إلى الفُتوحات على الأطلسي، شِبْه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) وما بعدها. ويُذْكَر أن طارقاً رأى وهو في سفينته ـ خلال سِنَة نوم، ألمت به ـ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يبشره بالنصر.[٣]

بشارات الفتح الأندلسي

وهذا الجيش –بقيادة طارق، في فَهْم مؤكد لابن حزم الأندلسي (٤٥٦ هـ) ضَمَّنَها رسالته في فضل الأندلس التي أوردها المَقَّري (١٠٤١هـ) كاملة في كتابه نفح الطيب٢– تحقيق لثانية اثنتي نُبوْتين للرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم زفهما الحديث الشريف الذي يرويه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «ناسٌ من أمتي


الأندلس

عُرِضوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ هذا البحر، ملوكاً على الأسِرّة». وهي رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وسلم مرتين. الأولى: وقد تحققت، وهي التي أشارت إلى فتح جزيرة قُبْرُص سنة ٢٨ هـ في خلافة ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضي الله عنه وبقيادة معاوية بن أبي سفيان. وكانت فيهم أم حرام- التي بُشِّرت بذلك- وقد استُشهدت هناك. والثانية: هم فاتحو الأندلس. فالتقت النبؤة المعجزة ببشارة رؤيا الفتح.

طارق والخطط المبتكرة

وحين وصل طارق إلى الجبل وأراد النزول بجنده، وجد جيش القُوط، الذي نازل الجيش الإسلامي -قبل وصول طارق- على الجبل في عدة معارك بقيادة أكبر قائد قُوطي، بعد لُذْريق Rodrigo ملكهم، وهو عسكري معروف واسمه تُدْمير.Tudmir والقوط الغربيون أمة حربية لم تَكَد تعرف الهزيمة في كافة الأحداث العسكرية والمعارك التي خاضتها. وهم الذين سماهم (هم أو غيرهم ممن سبقهم) بعض المؤرخين الأندلسيين-مثل ابن حَيَّان القُرطبي (٤٦٩ هـ)- البِشْتولقات Visigoths، وتعني القوط الغربيين الذين احتلوا شِبْه الجزيرة الإيبيرية وسكنوها قبل الفتح لها بنحو ثلاثة قرون.(٤)

فماذا يفعل طارق أمام الجند القُوط الذين منعوه من النزول واللحاق بالجيش الذي وصل ويشتبك في معارك معهم. وهذا قد يعني ذهاب الفتح وإيقاف عملياته وقد يُباد أو يُحاط وتأخذه المخاطر.

وطارق من القادة الذين يبتكرون الخُطط البارعة في المآزق والمواقف الحرجة منها في الحال. وتلك ميزة واضحة للقادة المسلمين. فأمر الجيش بالرجوع إلى المضيق والإقامة لهزيع من الليل كأنه يعود إلى المغرب و(الحرب خدعة) وهذا هو مفهومها. ثم في آخر الليل يعود إلى الجبل، وليس من مكان النزول ولا من المكان الذي حاول فيه أولاً، بل من خلف الجبل الذي يكاد يكون قَوامُه عمودياً، ليصعد هو والجند من هناك «فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب، ونزل منه في البر وهم لايعلمون». لكنا لا نعرف ماذا صنع بالدواب أو كيف نزلت على الجبل بخطة أخرى. ويدل هذا دلالة واضحة على المعرفة الجيدة للمواقع والجبل والأرضية، مبنية على المعلومات التي عادت بها سرية طَريف.

وفوجئ القوط بذلك. والتحق طارق وجنده بالجيش الإسلامي الذي سبقه. ومن الممكن أن تكون قد جرت لطارق ومن معه بعض المواجهات حتى التحق ببقية الفاتحين.

وبإجماع المؤرخين كان عدد الجيش الإسلامي الفاتح سبعة آلاف. فسار بهم، مُجْتَمِعاً ومتجهاً من الجبل (جبل طارق) إلى السهل، داخل إسبانيا، متجهاً إلى الشَّمال.(٥)

ووصلت أخبار تجمّع القُوط وحشوده الضخمة لمعركة، اعتبروها فاصلة. ولعلَّهم أُنذروا بوصول المسلمين قبل عبور طارق أو بعد حملة طَريف. ولذلك كان جمعهم وافراً، عدداً وعُدَّة، وبقيادة الملك لُذْريق.

فكتب طارق إلى موسى بن نُصَيْر يستنجده ليمدّه بجند آخرين. وتحرّكت النجدة -التي حُسِب لها- حالاً، من مدينة سَبْتة كذلك بقيادة طَريف بن مالك (قائد الحملة الاستطلاعية) بخمسة آلاف جندي، لترسو سفنهم على جبل طارق هذه المرّة، حيث يبدو أنّه خَلَص للمسلمين، فلم يتركوا خلفه إلاّ مناطق فتحوها، لا سيما الجبل المنيف المعروف.

طارق وحرق السفن


وكان كلّ هذا العبور بسفائن صنعها المسلمون، وهم أهل خبرة وصناعة متقدّمة فيها، وقد جرّبوا الفُتوحات البحرية، فلا يعقل أن تكون مستعارة.

وهو بجانب ما يدلّ على أنّها سفنهم، يؤكد على أنّ طارقاً لم يحرق السفن إطلاقاً. وهو أمر يتنافى

مع كلّ منطق واعتبار، ومع معاني الفُتوحات الإسلامية وأهدافها ومجرى الأحداث. وهذا يُشير أنّه لا بدّ من إعادة النظر في الأحداث الكثيرة ووضعها موضعَها الصحيح، في التاريخ الإسلامي، والأندلسي على وجه الخصوص.

وليس حرق سفن طارق إلاّ أسطورة غريبة، ولم يَرْوِها أيٌّ من المؤرخين الأندلسيين. وأوّل من رواها -نقلاً عن مجهول- هو الشريف الإدريسي (٥٦٠هـ)، الجغرافي الشهير، في القسم الأندلسي من كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» دون ذكر مصدره.[٦]

ومع ما رأينا من الحاجة المستمرّة للسفن في الأحداث السابقة هي كذلك أساسية لهم في الأحداث اللاحقة. ثمّ إنّ لدى المسلمين من دوافع الفتح المرتبطة بالإيمان بالله وحبّ الموت في سبيله جهاداً، ما يفوق -بمراحل- ما قد يُحدثه حرق السفن من دَفْع. بل على العكس، فإنّ حرقها يُؤذيهم ويُثيرهم ويُسخطهم.



الثالثة: المواجهة بين الجيشين

تجمّع الجيش الإسلامي واقفاً أمام الجيش القُوطي، الذي واجهه في سهل متّسع فيه بحيرات وأنهار، حيث حدّد الجيش القُوطي مكان المعركة، ولكن لا بدّ أنّ القيادة الإسلامية العسكرية في الأندلس اختارت المكان المناسب.

كانت عِدَّة الجيش الإسلامي كلّه باتفاق المؤرخين اثني عشر ألف جندي، جُلُّهم من المسلمين البربر وقلّة من المسلمين العرب، حيث إنّ المسلمين البربر -وقد تأخّر إسلامهم- أرادوا خدمة الإسلام والجهاد فيه، ليلحقوا ببعض ما قدّم له إخوانهم المسلمون العرب من قبل.

موازنة ومقارنة

وعِدَّة الجيش القُوطي لا تقلّ عن مئة ألف، بل إنّ بعضهم أوصلها مئتي ألف جندي أو يزيد. ومع ذلك، فاختلاف الروايات في عدد الجيش القوطي،

لا يشكّل قضية، حيث يمكن تأويله بأنّ الجيش المقاتل مئة ألف، والباقي معاون واحتياط ويقوم بالواجبات الأخرى. ولدى الموازنة بين الجيشين لا يمكن أن يتصوّر أحد أنّ النصر سيكون للمسلمين، فضلاً أنه سيكون عظيماً وعجيباً وغالباً، إذ تمّ ذلك:

– بجانب التفاوت الكبير بين الجيش الإسلامي والقوطي في العدَد: اثنا عشر ألفاً مقابل مئة ألف أو يزيدون.

– والعُدّة كذلك، ومنها: إنّ الجيش القوطي كان كلّه تقريباً خَيّالة، بينما الجيش الإسلامي كان كلّه تقريباً رَجّالة.

– ولا بدّ أنّ الأسلحة الأخرى ومواد الإعاشة لدى القُوط كانت أفضل وأوفر وأكثر.

– جرى القتال في أرض مألوفة للقوط، يعرفون مداخلها ومخارجها وطبيعتها.

– زد على ذلك إن الروح المعنوية لجند القوط كانت عالية، إذ ما كانوا يشكّون بالنصر وأخذ المسلمين، وإنّ الغلبة تكون لهم، إلى درجة أنّهم جلبوا معهم العربات والدواب تحمل الحبال لكِتاف وشدّ وقيد أسرى المسلمين الكثيرين، إذ احتاروا فيما يفعلون بهم! وكانوا متأكّدين من هذه النتيجة!! فهم لم يعرفوا الهزيمة، لأنّ القُوط الغربيين خاصة أمّة حربية معروفة، وهي أكبر ما تتميّز بها في تاريخها كلّه. وهذا شبيه بالفتوحات الإسلامية الأولى مع الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، اللتين لم تكونا لتزولا أمام أيّ أحد، بما فيهم العرب، الذين استُعمروا لهؤلاء وهؤلاء، لولا الإسلام الذي به غدوا –وكلّ من آمن به وحمله– بشراً جديداً أو وليداً آخر.

وهذا يدلّ على أنّ القوط لم يكونوا ضعافاً في المعركة –لا سيما وهي فاصلة– كما يحاول بعض الكتبة ليّ أعناق الأحداث ولفّ حقائقها المنظورة، وطيّ منطقها الواضح، لتسير في دروب مظلمة ملتوية مشبوهة. وهذا يدعو إلى إعادة النظر في أحداث التاريخ الإسلامي والأندلسي على وجه الخصوص، وهذا الفتح العظيم الكاسح المعجز بالذات.

لكن الميزان –في الموازنة الجديدة– ضمّ شيئاً جديداً وعنصراً فريداً، نوعية ما عرفوها ولا ألِفوها من قبل، جعل هؤلاء القوط –وكلّ أحد غيرهم– ضعافاً أمام المسلمين، هو: الإيمان بهذا الدين، إذ قد جرّبوهم في المعارك المتعدّدة على الجبل والمواجهات لدى أوّل نزولهم عليه. وكان الجيش القوطي بقيادة أكبر قائد، عسكري، وهو تُدْمير Tudmir الذي سمّيت مقاطعة إسبانية باسمه وهو حاكمها، وقد كتب إلى لُذْريق ليعلمه بأنّ قوماً لا يُدرى أمن أهل الأرض أم من أهل السماء قد وَطِئوا إلى بلادنا وقد لقيتُهم فلتنهض إليّ بنفسك. وهذا –على ما يبدو– سبب مهمّ في هذا الحشد الضخم الذي هيّأه القُوط.(٧)

فهذه هي صورة المعسكرين: الإسلامي والقوطي. وإنّه لمجرّد الفرق في أيّ من هذه الأمور ويَقبل المسلمون المنازلة، يجعلهم أقوياءَ أوفياءَ أمناءَ، نوعيةً فريدة ليسوا بحاجة إلى حرق السفن، دافعاً للحرب والاستماتة.

إنّه الإيمان الذي يدفعهم دفعاً، يطيرون إلى الجنّة يرغبون فيها، وبنفس الروح يحافظون على السفن أشدّ المحافظة، لأسباب كثيرة غدت واضحة الآن.

خطبة طارق الشهيرة

وعلى نفس هذا الفهم تغدو الخطبة المروية لطارق في هذه المعركة، كثير منها هَذَر من القول. ولدى الاطلاع عليها من خلال هذه المعاني والاعتبارات يرفضها الدارس قبل أن يتقدّم الدليل إليه.

– فالخطبة لم تتضمّن آيةً أو حديثاً، ومليئة بالسجع المصطنع المتكلّف المغلوط، في ثمانية مقاطع، يشير إلى الوضع المتأخّر الجاهل بالأندلس وتاريخه. وترى فيها طارقاً يَعِدهم بالملذات والبنات الجميلات! فأيّ جهاد هذا يا تُرى؟ كما أنّ الخُطبة قد تشير إلى أخطاء في الخُطة والهدف.

- بجانب أنّ النصّ المتداول لم يورده مؤرّخ أندلسي، بل رواه مؤرخ مشرقي متأخّر لعله: ابن خِلِّكان (٦٨١هـ) في كتابه «وفيات الأعيان»[٨]، ونُقلت عنه. وإنّ بعض النصوص الأندلسية -في ذات الشأن- تخالف هذا النصّ.

- كما يورد المَقَّري في نفح الطيب[٩] أبياتاً خاطب وخطب بها طارق جيشه تحمل معاني إسلامية واضحة.

المواجهة: قتال ونزال

في مثل هذا الوضع بدأت المواجهة وكان اللقاء المتفاوت، في سهل فسيح متّسع، لليلتين بقيتا من رمضان (٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ / تموز سنة ٧١١م). واستمرّت المعركة ثمانية أيام[١٠] من القتال الشديد العنيد من قبل الطرفين: (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً). «النساء ١٠٤».

وكان المسلمون أثبت وأصبر، وهم بالنصر أجدر. فيقول ابن عِذاري (بعد ٧١٢هـ) في كتابه (البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمغرب)[١١]: «فخرج إليهم طارق بجميع أصحابه رَجّالة، ليس فيهم راكب إلاّ القليل، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى ظنّوا أنّه الفناء». ويقول ابن الشبّاط (٦٨١هـ): «فاقتتل المسلمون والمشركون ثمانية أيام قتالاً شديداً وصبر الفريقان جميعاً صبراً عظيماً، ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ نصره على المسلمين.[١٢]

وهذا يدلّ ويؤكّد أنّ القُوط لم يكونوا ضِعافاً، كما يحاول تمريره بعض المؤرخين، لإلغاء قوّة المسلمين الإيمانية وتميّزهم بهذا الدين ونوعيته وروعة انتصاراتهم. كما يؤكّد كذلك إنصاف المؤرخين المسلمين في الاعتراف بما عند عدوّهم. وهو بدوره يؤكّد أنّ المسلم أفضل من يكتب حتى تاريخ الأمم الأخرى، بذكر الحقائق كاملة، صورة أفضل وسجلّ أشمل للأحداث، ليقدّم فهماً أجود. وهذا ما نجده متوفراً فيما كتبه المسلمون عن الأمم الأخرى، تاريخاً وبلاداً ومجتمعاً، مما جعل تلك الأمم وأهل تلك البلدان يعتنون ويعتزّون ويترجمون ما دَوَّنه المسلمون عنهم، والشواهد على ذلك كثيرة طافحة.

واستغرقت المعركة العيد كُلَّه، حيث انتهت يوم الأحد الخامس من شوال ولمدّة ثمانية أيام.

والذي يبدو أنّ التشتّت الذي حلّ بالجيش القوطي كان في هذا اليوم الذي فيه قُتل ملكهم لُذْريق ولم يُعثر له على خبر أو أثر أو دليل. وإنّ تتمّتها كانت في اليوم الذي بعده، حيث أنزل الله تعالى نصره على المؤمنين.

فكانت هذه المعركة (معركة وادي البَرْباط) فتح الفتوح، بالنسبة لفتح شِبْه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس - إسبانيا والبرتغال اليوم). وهو نصر عظيم لم يكن سهلاً ولا هيّناً ولا منتظراً، أبداً بحال. خالف كلّ الحسابات والقوانين والأعراف العسكرية، لدخول عامل جديد وفريد ومديد في الأمر، هو الإيمان بالله تعالى ونبيّه الكريم صلّى الله عليه وسلّم وكتاب الله العظيم، الإيمان الكامل بالإسلام والأخذ بالجهاد -ذروة سنام الإسلام- سبيلاً ودليلاً ومجداً أثيلاً.

شهداء المعركة

قدّم المسلمون في هذه المعركة ثلاثة آلاف شهيد[١٣]، جاءوا ينشدون الموت في سبيل الله. فهؤلاء بغير حاجة إلى حرق السفن، ولا حرق البخور، ولا حرق أو هدم الجسور ولا خُطبة تَعِد بالمتع والملذّات واقتناص الحسناوات: (ويتّخذ منكم شهداء) «آل عمران ١٤٠».

فالشهيد من شهد بأحقية الإسلام وآمن به وحماه بنفسه، مجاهداً من أجله حتى الموت. وليس معناه ما استقرّ عند بعضهم -من المستشرقين والغربيين (والمستغربين)- في معنى محدود ومكدود ومردود، من السخف والتجنّي والتدنّي.

كان ميدان المعركة مُتَّسِعاً شَمِل مواقع متعددة من نهر وبحيرة وسهل، تقع ضمن كُورة (محافظة) شَذُونة Sidonia وفيها مدينتها

Medina Sidonia في سهل الفرنتيرة Frontera جنوب بحيرة الخندق Janda ونهر بَرْباط Barbate المتّصلة به.

واتساع ميدان المعركة، معركة وادي بَرْباط أو وادي لَكُه Gudalete دليل على عنفها مثلما يدل عليه طول مدّتها ذات الأيام الثمانية. ومن هنا ذكر المؤرخون عدّة مواقع لموضعها، وكلّها تقع في ميدانها. وهذا النهر البَرْباط الذي جرت حوله أعمال عسكرية لها، يصبّ أو يقع في المحيط الأطلسي عند الطَرَف الأغر Trafalgar شمال شرق مدينة الجزيرة الخضراء Algecira وجزيرة طَريف، إلاّ أنّ الجزيرة الخضراء وجبل طارق يقعان عند فم مضيق جبل طارق من جهة المتوسّط في الشاطئ الإسباني أو الأوروبي، مثلما تقع مدينة سَبْتَة Ceuta عليه من الجانب المغربي أو الإفريقي، بينما تقع جزيرة طريف عند فم المضيق من جهة الأطلسي في الجانب الإسباني، مثلما تقع مدينة طَنجة Tanger المغربية عليه من الجانب المغربي أو الإفريقي.

وهذا السهل الفرنتيرة هو الذي جرت فيه المعركة وتقع ضمنه جميع الأماكن المذكورة لها. ونهر البَرْباط كان مركز الميدان الفسيح. ولعلّه فيه غَرِق لُذْريق ملك القُوط وربما بعد مقتله.

بعد المعركة

جرت بعد ذلك متابعة فلول جند القُوط في الميدان وبعده، كما جرى ترتيب الأمور ونظر النتائج ومراجعة الأحوال، للانطلاق السريع الفوري في الفتح، وعدم إتاحة الفرصة ليتجمّع العدوّ ويَلُمَّ فُلُوله ويَرُدَّ وضم عُدوله. وهذا جعل الجيش الإسلامي يتوجّه إلى الشّمال من أرض المعركة بثِقَله، بعد أن ترك حاميات في المناطق المفتوحة، للضبط والربط والدعوة، وكان الجيش فاتحاً للنفوس. فهم دعاة بسلوكهم ولسانهم، ولهذا أتوا وبهذا دخل الناس في دين الله أفواجاً.

ولكنّ طارقاً لم ينس خطورة هذا الحال، ففي نفس الوقت أرسل عِدّة سرايا شرقاً وغرباً، قاصداً التوجّه نحو العاصمة طُلَيْطُلَة Toled ولم تكن تُهمّه الغنائم كثيراً -إذ لم يأتِ لأجلها، ولا تصحّ موضعاً للاتهام، ولا تستحقّ المناقشات الكثيرة لولا الرغبة في تشويه تاريخنا الإسلامي المجيد- ولذلك أهمّ ما حازوه العُدد الحربية، وأوّلها الخيول التي كانت قليلة لديهم، ولم يبقَ من الجند الإسلامي أحد إلاّ وله فرس، يركبها ويحارب عليها في المرحلة القادمة.

فتح العاصمة طليطلة

اتجه طارق من إسْتِجّة إلى مدينة جَيّان Jaen يريد طُلَيْطُلَة Toledo عاصمة القُوط. وتقع على بعد نحو ٧٠ كم جنوب غرب مدريد Madrid التي لم يكن لها وجود فهي العاصمة الأوروبية التي بناها المسلمون أواسط القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).[١٤]

فافتتح طُلَيْطُلَة وعامل أهلها بالعدل والإنصاف والسماحة. وهو سلوك معروف، معترف به، حتى من الأعداء للفاتحين المسلمين. وهي صفة مميزة من صفاتهم الكثيرة الفريدة الواضحة.

وقبل أن يستقرّ طارق في طُلَيْطُلَة ذهب لتمشيط المناطق التي حولها -لا سيما شمالاً- من الجيوب. ومن هنا جال بجيشه في منطقة وادي نهر الحجارة Guadalajara (نهر هِنارس Rio de Henare) حالياً، أحد فروع نهر تاجُه Tajo حتى وصل إلى مدينة المائدة (قلعة عبد السلام، وهي اليوم Alcala de Henares)، قرب نهر وادي الرملة Guadarrama على نحو مئة كيلو متر شَمال طُلَيْطُلَة، التي عاد إليها ليستقرّ فيها بانتظار أوامر موسى بن نُصَيْر، بعد أن كان على صلة مستمرّة به، وإخباره بكلّ تفاصيل ما يتمّ، وطالباً منه النجدة . وقد بقي طارق منتظراً انقضاء فصل الشتاء ووصول موسى إليه بجيشه الثمانية عشر ألفاً، الذي تمّ في السنة التالية ٩٣هـ / ٧١٢م. لكن موسى لم يتوجّه

فوراً إلى طارق بل قام بفتح ما لم يتمّ فتحه، خوفاً من محاصرة القوط للمسلمين، وتمّ اللقاء بينهما بعد سنة من عبور موسى، أي بعد سنتين من عبور طارق إليها (٩٤هـ)، لينطلقا معاً إلى إتمام فتح شبه الجزيرة الإيبيرية حتى نهايته، والذي تمّ فعلاً في أواخر سنة ٩٦هـ وأوائل ٩٧هـ، أي أنّ فتحها استغرق نحو أربع سنوات. ولا بدّ أنّ طارقاً -خلال إقامته في طُلَيْطُلَة التي قد تجاوزت السنة- كان يقوم بالترتيب والتنظيم والدعوة إلى الإسلام عملياً، ورسم الخطط الجديدة، والتي أتمّها وتدارسها وأكّدها مع موسى بعد لقائهما هناك.

جيش الفتح المؤمن

لقد تمّ ذلك الفتح كلّه بجيش تعداده نحو ثلاثين ألفاً، مع من استُشهِد منهم أو بقي لمهمّات الفتح المتنوّعة في المدن المفتوحة. ليفتحوا قارّة كبيرة وعرة الجبال عاتية المراقي كثيرة المصاعب، بأرضها المنحصرة وجبالها الشامخة وأنهارها المنحدرة القاسية، وفي تلك الأجواء الباردة الصعبة، مما حمل بعض المؤرخين الإسبان من المعاصرين إلى القول بوصف هذا الفتح إنّه نزهة عسكرية Mero Paseo Militar، لكنّه في الحقيقة نزهة إيمانية بكلّ شدّتها وصعوباتها ومتاعبها، ينطلق خفّة وروعة وقوّة، نحو رضا الله تعالى، مما جعلهم ينظرونها كذلك فيقولون قولتهم تلك (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً) «الأحزاب: ٢٣».

وهذه الأيام بالذات، هي التي جرت فيها معركة وادي البَرْباط، قبل ألف وثلثمائة وخمس وثلاثين سنة هجرية.

الخلاصة

وهكذا -بعد هذا الاستعراض لأمور في التاريخ الإسلامي، وابتداء فتح الأندلس- رأيت حقائق التاريخ المُغَيَّبَة التي حلّت محلّ صفحاته البيضاء، أو غطّتها بالحجاب، وفيها قلب للحقائق إلى حدّ الأسطورة أحياناً. ينبغي كتابة تاريخنا بشكل جديد أصيل علميّ، تعاد فيه الأحكام والنظر في أمور كثيرة وإعادة تقرير مُثُله وتنوير قيمه. وهذا كثير ووفير في تاريخنا مما لا مثيل له ولا نظير.

فلابدّ من إعادة كتابته، بل وأيضاً من كتابته كتابة جديدة على أسس علمية موضوعية صابرة، ونظر قويّ عميق أصيل، وأسس متوائمة، ومتلاحمة مع حقيقة هذا التاريخ الذي هو مفخرة الإنسانية كلّها دوماً، تُسعد لمثله وترعى فيه ذمّته، وتعيد به تحقيق مكرمته ومعجزته وقيمه في عالم الحياة الإنسانية، فاضلة كريمة رائعة.

والظروف مهيّأة الآن والحاجة ماسّة والضرورة لازمة، كلّها تدعو المسلمين -من أهل الطاقات والإمكانيات والتخصصات- للاستجابة لذلك، بحبّ واهتمام وقوّة، بذلاً وسعياً واستعداداً لهذا الأمر الجليل الخطير، والله الموفّق للصواب وعليه التوكّل والأمل، راجين قبول العمل.■

الهوامش

(١) التاريخ الأندلسي، ٤٠٣ - ٤٠٩.
(٢) التاريخ الأندلسي، ٤٦ -٥٧.
(٣) نفح الطيب، ٣٥/ ١٥٦-١٧٩.
(٤) المصدر السابق، ١/ ١٣٨-١٣٩
(٥) تجد تفصيلات ذلك وغيرها في كتاب «التاريخ الأندلسي» لكاتب هذه السطور.
(٦) انظر: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ٦٢.
(٧) انظر: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ٥٢.
(٨) وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٥/ ٢٢٣
(٩) نفح الطيب، ١/ ٢٦٥.
(١٠) المصدر السابق، ١/ ٢٥٩.
(١١) انظر: التاريخ ا لأندلسي ٥٤.
(١٢) انظر: التاريخ الإسلامي، ٥٤.
(١٣) نفح الطيب، المقري، ١/ ٢٥٩.
(١٤) التاريخ الأندلسي، ٣٠٥-٣٠٦.

قال [illegible] تنافس المتنافسون﴾ صدق الله العظيم

تحت رعاية

سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان

نائب رئيس مجلس الوزراء - رئيس نادي تراث الإمارات

يعلن نادي تراث الإمارات عن

المسابقات الرمضانية

ضمن برنامج القرية التراثية الرمضاني

أولاً: مسابقة أفضل مرتل للقرآن الكريم

١- شروط المسابقة:
- أن يكون المتسابق من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة.
- ألا يزيد عمره عن ٣٠ سنة.
- أن يكون متقناً لأحكام تلاوة القرآن الكريم.

٢- جوائز المسابقة:
- يمنح الفائز الأول جائزة نقدية قدرها ٢٠،٠٠٠ درهم
- يمنح الفائز الثاني جائزة نقدية قدرها ١٥،٠٠٠ درهم
- يمنح الفائز الثالث جائزة نقدية قدرها ١٠،٠٠٠ درهم

ثانياً: مسابقة معاني القرآن الكريم

١- شروط المسابقة:
- أن يكون المتسابق من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة.
- ألا يزيد عمره عن ٣٠ سنة.

٢- جوائز المسابقة:
يمنح الفائزون جوائز نقدية قيمة.

ثالثاً: المسابقة التراثية

١- شروط المسابقة:
- يتم طرح الأسئلة مباشرة على الحضور من جمهور المهرجان التراثي المقام أسبوعياً في القرية التراثية.

٢- جوائز المسابقة:
- تذكرة سفر على طيران الاتحاد.
- جوائز نقدية متعددة.

رابعاً: المسابقة الدينية العامة

١- شروط المسابقة:
- أن يتم تقديم الإجابة الصحيحة على كوبون المسابقة الأصلي المنشور في صحيفة الاتحاد.
- أن يتم تسليم كوبون المسابقة في نفس يوم نشر السؤال وذلك في مقر القرية التراثية بكاسر الأمواج.
- يتم تسليم الجوائز للفائزين حضورياً فور إعلان النتائج التي تتم في القرية التراثية مساء اليوم نفسه الذي تم فيه نشر السؤال وفي حال غياب الفائز تلغى جائزته وتعطى للفائز الحاضر التالي.

٢- جوائز المسابقة:
- يمنح الفائز الأول تذكرة سفر على طيران الاتحاد مفتوحة إلى أي محطة يصلها مباشرة طيران الاتحاد.
- يمنح الفائز الثاني جائزة نقدية قدرها (٥٠٠ درهم).
- يمنح الفائز الثالث جائزة نقدية قدرها (٥٠٠ درهم).

المهرجان الرمضاني للقرية التراثية

البرنامج:
- محاضرات دينية.
- فرق إنشاد ديني.
- فرق مالد.
- مسابقات لأفضل مرتلي القرآن الكريم.
- مسابقات حول معاني القرآن الكريم.
- مسابقات تراثية.

يعقب كل أمسية فوالة تراثية

- المكان: مسرح القرية التراثية بجوار سارية العلم على كاسر الأمواج في أبوظبي
- الزمان: ١٠ مساءً من كل يوم.
- قيمة الجوائز: تزيد عن (١٠٠،٠٠٠) درهم.

للاستفسار: يرجى الاتصال على: ٠٢-٦٨١٤٤٥٥
٠٥٠-٦١٤٨٤٨٨

نادي تراث الإمارات
EMIRATES HERITAGE CLUB

الاتحاد
ETIHAD AIRWAYS

مصرف أبوظبي الإسلامي
Abu Dhabi Islamic Bank
PJSC ش.م.ع



أزمة اللغة العربية في الفكر العربي المعاصر

■ د. أحمد محمد سالم *

مع نهاية القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين بدأ المجتمع العربي يدرك حجم التردي والتدهور والتخلف الذي يعيش فيه، وذلك بسبب احتكاكه بالغرب، وفي ظل هذا الوضع بدأ الفكر العربي الحديث يعيد قراءة الذات، وأسباب تخلفها، وكيف يمكن أن تنهض، ومن خلال الجهود العديدة التي أثارها المفكرون العرب، كانت مشكلة اللغة العربية الفصحى، ووضعيتها داخل عصر التنوير العربي وامتداداته المعاصرة، فبعضهم يرى ضرورة تعميق اللهجات العامية لأنها أكثر قوة على إحداث التواصل بين ناطقيها، وأكثر قدرة على التطور مع المستجدات الحديثة، كما يرى هؤلاء إن العربية الفصحى أصبحت عاجزة عن مسايرة التطورات المعاصرة، ومن ناحية أخرى فثمة اتجاه مغاير يدافع عن العربية الفصحى ويرى إنها أساس وحدة العرب، وإنها لغة القرآن، كما أن العربية الفصحى قادرة على التطور من خلال جهودنا نحن، ومن ثم فقد تأرجح الموقف من اللغة العربية بين دعوة تقديس هذه اللغة، وبين دعوة التشكيك في قدرتها على التعبير عن حياتنا المعاصرة ويمكن بيان وجهات النظر كالآتي:

* كلية الآداب–جامعة طنطا– مصر

– دعاوى التقديس:– تنحصر الدعوة إلى تقديس اللغة العربية وفقاً لنظرتين، النظرة العلمانية القومية، والنظرة الدينية الإسلامية، فالنظرة الأولى وهي نظرة دعاة القومية العربية الذين يرون إن «لغتنا هي أبلغ مظهر لتجلي عبقرية أمتنا، هي مستودع لتراثنا فما لنا إلا أن نعود ونحياها عن وعي، حتى نبلغ ما بلغه أجدادنا من سؤدد وعزة»(١) كما تمثل اللغة العربية عند دعاة القومية «ذاكرة الأمة، يختزن فيها تراثها، وقيمها، ومفاهيمها، وهي في الوقت نفسه أداة أساسية في حركة المجتمع ونموه، وفي انطلاقه من حاضره نحو آفاقه المستقبلية، فهي الأداة لقيام المجتمع المتماسك»(٢).

ومن ثم يؤكد ساطع الحصري على أن «اللغة العربية هي الواسطة لنقل الأفكار والمكتسبات من الآباء إلى الأبناء، ومن الأجداد إلى الأحفاد، ومن الأسلاف إلى الأخلاف، إنها روح الأمة وحياتها، وهي بمثابة محور القومية وعمودها الفقري، وهي أهم مقوماتها، ومشخصاتها»(٣) وإذا كان الحصري يؤكد على أهمية اللغة العربية فإنه يحذر من انتشار اللهجات العامية، فقد كان الحصري يؤكد دوماً على أن «اللغة العربية أقوى رباط وأمتنه بين أبناء الأمة العربية وكان حريصاً أن يظل هذا الرباط قوياً متيناً، لكنه يرى إن اللهجات المحلية أو اللغات العامية تهدد هذه الرابطة، إن لم يتحرك علماء اللغة لعمل شيء ما من شأنه وقف هذا الخطر»(٤).

ومما سبق يتضح مدى النظرة التقديسية التي ينظرها القوميون إلى اللغة العربية، ومدى إدراكهم لأهمية اللغة العربية في إحداث وحدة العرب، كما أن اللسان العربي هو الذي جعل للعرب عمقاً حضارياً في التاريخ البشري، والتراث الإنساني، إن اللسان العربي هو الذي يجعل العرب يعرفون مدى قيمة مؤلفات الجاحظ، والجرجاني، والقرطبي.. الخ من أعلام التراث العربي، كما أن وحدة اللسان والثقافة العربيتين هما اللتان تشعرانا بوحدة الهم العربي، فحين يصدر كتاب في البحرين لمحمد جابر الأنصاري نسمع أصداءه في المغرب العربي، وحين يصدر لعابد الجابري كتاب في المغرب نسمع أصداءه في المشرق العربي، كل هذا يعكس أسباب تقديس القوميين للغة العربية، ولعل هذا ما أكده د.زكي نجيب محمود حين قال: بأن العروبة ثقافة قبل أن تكون سياسة.

وإذا كان دعاة القومية العربية يركزون على أهمية اللغة العربية كرابطة أساسية لها طابع القداسة في الربط بين أرجاء العالم العربي فإن الاتجاهات الدينية تركز على أهمية اللغة العربية، لأنها لغة الوحي المقدس، لغة القرآن الكريم، ولغة أهل الجنة، ومن هذا المنطلق دافعت التوجهات الإصلاحية والسلفية عن اللغة العربية، ولعل هذا يتضح بصورة جلية في دفاع جمعية العلماء الجزائريين –وعلى رأسها عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي– عن اللغة العربية ضد محاولات الاستعمار الفرنسي إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية. وأنشأت الجمعية مدارس لتحفيظ القرآن، وتعليم اللغة العربية وقد استطاعت التوجهات السلفية والإصلاحية الحفاظ على لغة القرآن في دول المغربي العربي كلها وليس فقط الجزائر.

وعلى الرغم من دعوة التوجهات الدينية إلى الحفاظ على اللسان العربي لسان القرآن، إلا أن القرآن نفسه قد جاء به العديد من الكلمات ذات الأصل الفارسي، وقد اهتم بعضهم بالكشف عن غريب القرآن، ولعل هذا ما يعنى أن اللغة العربية كما جاءت في القرآن قابلة للتطور، والاحتواء لبعض الكلمات من اللغات الأخرى، في حين أن العرب حين دونوا اللغة العربية رجعوا في ذلك إلى العرب الأقحاح حتى يستقوا منهم أصول الكلمات العربية.

وعلى الرغم من دعوة الشيوخ إلى الحفاظ على اللغة فإن أحدهم وهو أمين الخولي اهتم بمشكلة الازدواج اللغوي التي نعاني منها وذلك في كتابه (مشكلات حياتنا اللغوية)، فيقول الشيخ أمين

الخولي «إن حياتنا الاجتماعية يسودها الازدواج اللغوي بين لغة تحيا، وتشعر وتتعامل، وتتواصل بلغة عامية مرنة متطوعة، ثم هي تتعلم وتتدين، وتحكم بلغة مكتوبة محدودة غير نامية، لا تطوع بها الألسنة، وتتعثر فيها الأقلام»(٥) ويرى الخولي إن الازدواج بين العامية والفصحى يؤدي إلى أن الوحدة الاجتماعية تزداد تصدعاً، كلما ازدادت الأهواء تفرقاً، والأمزجة تبايناً، وكلما وهن المساك المشترك من اللغة التي تصل النفوس، وتربط القلوب حين تشكو ألمها، وتعشق أملها، وتوحد مثلها، لأن الازدواج اللغوي أشد ما يكون حائلاً دون كله»(٦) ومن ثم يرى أمين الخولي إن أزمة اللسان العربي «ليست إلا أزمة اجتماعية علمية وعملية وتعليمية، وفنية حيوية... وهي ببعض ذلك خليقة بأن تكون أزمة وطنية سياسية وتهز الكيان الاجتماعي كله.. وهكذا تكون قضايا اللغة العربية الحديثة في حياة الأمم العربية مشكلات، وأكبر من مشكلات، لو ساعف التعبير في غير سرف»(٧).

والواقع أن أمين الخولي يرى إن أزمة اللغة العربية ترجع إلى اللغة العربية الفصحى والتي يأخذ عليها «عزلتها، وقصورها، وضرورة رد الحياة إليها وأهمية مسايرتها لحاجات الأمم التي ورثتها»(٨) وبالتالي فعلى اللغة العربية أن تساير التطور الحادث في المجتمع. وأن يتم احتواؤها لكافة المصطلحات والمستجدات اللغوية، التي يمكن أن تفيد العرب في حياتهم اليومية، وفي تطور حياتهم الثقافية، وذلك من خلال الجهود المكثفة لمجامع اللغة العربية في مشرق ومغرب عالمنا العربي.

وننتهي في تحليل نظرة القداسة إلى أن دعاة القومية كانوا يدركون حجم المأساة من انتشار اللغات العامية، ولكنهم لم يكونوا يحددون السبل إلى تطوير اللغة الفصحى، إلا أن دعاة القومية كانوا على حق حين كانوا يدركون أن لغتنا العربية هي أساس وحدتنا القومية، ومن ناحية أخرى فإن أصحاب التوجهات الدينية كانوا يعون

■ اللسان العربي جعل للعرب عمقاً حضارياً في التاريخ البشري

أهمية اللغة العربية الفصحى في إقامة الشعائر الدينية، وفي الحفاظ على التراث العربي الإسلامي، الذي نستمد منه العمق التاريخي والحضاري، إلا أن هذا لم يمنع من خروج أحد المشايخ وهو أمين الخولي، ليقرر لنا إن اللغة العربية الفصحى في أزمة بسبب الازدواج اللغوي الذي تعاني منه أمتنا العربية، وعلينا أن نسعى بكل طاقتنا من أجل تطوير العربية الفصحى، وتبسيط قواعد النحو في لغتنا من أجل مسايرة ركب التطور الحادث في المجتمع، وحتى تظل الفصحى حاضرة على مدار التاريخ العربي ككل.

وإذا كانت دعوة تقديس اللغة العربية تركز على أهمية هذه اللغة، فإن هناك دعوة مقابلة لها وهي دعوة التشكيك في قيمة هذه اللغة، وفي جدواها، حتى دعا البعض إلى إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية.

دعاوى التشكيك

وقد هوجمت اللغة العربية بضراوة من العديد من الشخصيات البارزة في الثقافة العربية المعاصرة، ولقد تعددت المداخل لنقد اللغة العربية، وقدرتها على الأداء والتعبير عن حياتنا، ما بين عجز اللغة العربية عن احتواء العلوم المعاصرة عند سلامة موسى أو عجزها عن

■ أعداء العربية وصفوها بالخرساء والغيبية ثم استخدموها في نقل الفلسفات الغربية

التعبير عن الأيديولوجيا الماركسية كما هو عند حسن حنفي، أو نقد تدوين اللغة العربية كما هو عند محمد عابد الجابري.

ينطلق سلامة موسى في تشكيكه في قدرة اللغة العربية من خلال قوله بأن هذه اللغة «أصبحت خرساء لا تنطق بنحو مائة علم وفن يستمتع بها جميع الأمم المتمدنة دوننا»(٩). إن لغتنا العربية – من وجهة نظره– لا تزال لغة بدوية تلتزم الخيال، وتقنع بالعيش في الوبر. وتحكم بالغيبيات في حين تعيش اللغات العصرية عيشة الترف، أو البذخ بالعلوم والفلسفات الحديثة(١٠).

وإذا كان سلامة موسى يشكك في قدرة اللغة العربية على التعبير عن العلوم فإنه ينتقد هذه اللغة، لأنها تخاطب العواطف دون العقل، وهذا ضرر عظيم فإننا حين ننصح أحد الشبان بأن يسلك السلوك الحسن في الدنيا، ويتخذ أسلوباً ناجحاً في الحياة، نشير عليه بأن يجعل العقل والمنطق دون العاطفة والانفعال هدفه ووسيلته في كل ما يعمل، وبكل البلاغة العربية في حالتها الحاضرة هي بلاغة الانفعال والعاطفة فقط(١١)، كما يأخذ سلامة موسى على اللغة العربية أنها «تعيش على العقائد والغيبيات، ولذلك يشق علينا في مجتمعنا أن نؤدي المعاني للمعارف المادية، لأن لغتنا حافلة بكلمات الغيبيات والعقائد دون كلمات العلوم الجديدة»(١٢).

وعلى الرغم من الانتقادات الحادة التي وجهها سلامة موسى للغة العربية مثل إنها خرساء، وتعيش في الخيال، فاللسان العربي هو الذي جعل للعرب عمقاً حضارياً في التاريخ البشري ولغة غيبية، إلا أن هذه اللغة قد استخدمها سلامة موسى في نقل الفلسفات الغربية مثل فلسفة نيتشه، فرويد، وماركس، واستطاع أن ينقل بها مفاهيم نظرية التطور عند دارون، فكيف تكون اللغة خرساء وقد استطاع سلامة موسى أن ينقل بها كل هذا؟ إنها لغتنا نستطيع أن نطوعها كما طوعها هو حين عبر بها عن الأفكار الفلسفية والعلمية.

ولم يتوقف سلامة موسى عند حدود الانتقادات بل انتهى في دعوته إلى ضرورة استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية، وأن نسير على ركب تركيا في هذا المقام.(١٣)، ويرى إن في هذا الاستبدال العديد من الفوائد أهمها إن هذا التغيير «سيجعلنا نمتلك العلوم التي عند المتحدثين، كما أنه سوف يساهم في زوال الفوارق بيننا وبين الغرب، إن استعمال هذه الحروف سوف يفتح لنا العديد من الأبواب المغلقة، ومن ثم فإن الخط اللاتيني هو وثبة في النور نحو المستقبل»(١٤).

ويبرز سلامة موسى عجز اللغة العربية عن التعبير عن موضوعات العلم بأن الكليات العلمية جميعها مازالت تدرس علومها باللغة الانجليزية، لأن لغتنا العربية بوضعها الحاضر، واعتمادها على الحروف العربية لا يمكنها أن تؤدي هذه الخدمة، وما دمنا على هذا الحال فلن تكون في بلادنا نهضة علمية (...) وإنما تكون النهضة حين نتخذ الحروف اللاتينية محل الحروف العربية(١٥)، إنه من السذاجة الاعتقاد بأن مجرد استبدال الحروف سوف يساهم في النهضة العلمية، وذلك لأن التقدم العلمي جاء من أوروبا، فقد فرض تدريسه باللغة التي أبدعت هذه العلوم، ويمكن للعرب ترجمة هذه العلوم إلى اللغة

العربية، وذلك لأن العرب حين كانوا أصحاب نهضة علمية كبيرة كانت تترجم كتب ابن الهيثم، وابن سينا، وابن رشد.. الخ إلى اللغات اللاتينية، بل إن الترقيم المتداول باللغة الإنجليزية ١٢٣٤ هو أساساً الترقيم العربي الذي نقلته أوروبا عن العرب، ومن ثم فإن العملية تتوقف على قدرة العرب على المساهمة في ركب التقدم العلمي، والمشاركة في إبداعه، وليس مجرد استخدام حروف لاتينية.

ومن منطلق إيديولوجي ماركسي ينتقد د.حسن حنفي اللغة العربية ويدعو إلى تأسيس مصطلحات جديدة داخل هذه اللغة، فهو يرى إن «لغتنا العربية تقليدية تدور حول الله، لغة تسودها ألفاظ تشير إلى موضوعات دينية خالصة مثل: دين، رسول، معجزة، نبوة، لغة عاجزة عن إيصال مضمونها للعصر الحاضر، وبالتالي يمكن تحويل لفظ دين إلى إيديولوجيا، والإسلام إلى تحرير، كما أن ألفاظ التاريخ، والجماهير، والإنسان، والعالم، والتقدم، والتخلف هي أكثر إيحاء للمعاني، وهي تمثل أيضاً منطلقاً علمياً، وهي أسلوب العصر ولغة الجيل[١٦]، ومن ثم نجد أن حسن حنفي يدعونا إلى تبني مقولات الفكر الماركسي محل الفكر الديني الإسلامي، ولهذا نجده يدعو التيار السلفي إلى تبني لغة العصر الحديث ويتخلى عن اللغة الدينية[١٧]، ومن ثم فإن تشكيك حسن حنفي في اللغة العربية إنما جاء من منطلق محاولة إحلال الإيديولوجيا الماركسية محل التجربة الدينية، ومن ثم فإن محاولته إنما هي هدم للسياق اللغوي الديني، ومحاولة إضفاء الطابع الماركسي العلماني على مقولات اللغة العربية.

ومن ناحية أخرى يتجه محمد عابد الجابري إلى التشكيك في قدرة اللغة العربية على التعبير لأنها لغة جامدة، غير متطورة، ويرجع الجابري السبب في هذا إلى طريقة تدوين اللغة العربية قديماً، لأنها قامت على أصول عقلية منطقية صورية، «ولكن المنطق شيء، والواقع الحي شيء آخر، ويجب أن يكون هذا المنطق في خدمة الواقع الحي لا العكس، وعندما يتعلق الأمر بواقع حي متطور، فإن من الضروري ترك الحرية لمنطق التطور، لأن فرض قوالب منطقية صورية على ذلك الواقع يؤدي إلى قتل الحياة فيه، فيكون مآله التحجر، والتوقف عن النمو»[١٨] ولهذا يرى الجابري إن طريقة الخليل بن أحمد جعلت اللغة العربية قوالب جامدة، ونهائية، لغة محصورة الكلمات، مضبوطة التحولات، لغة لا تاريخية لأنها لا تتجدد بتجدد الأحوال، ولا تتطور بتطور العصور[١٩].

وينتقد الجابري طريقة جمع اللغة العربية لأنها اعتمدت على العرب الأقحاح، ولهذا جعلت اللغة محدودة بحدود عالمهم[٢٠]، أصبحت اللغة العربية عبارة عن بنية دائمة تعيش خارج التاريخ، وأصبحت تنقل إلى أهلها عالماً يزداد بُعداً عن عالمهم، عالماً بدوياً... يتناقض مع العالم الحضاري التكنولوجي الذي يعيشونه، والذي يزداد غنى وتعقيداً[٢١]، ولعل هذا ما أدى إلى ظهور لهجات عربية عامية كانت وما تزال أغنى كثيراً من الفصحى، وهنا يكمن التمزق الرهيب الذي عانى، ويعاني منه الإنسان العربي إلى اليوم[٢٢].

ومما سبق يتضح أن دعاوى التشكيك في اللغة العربية قد تراجعت ما بين نقد هذه اللغة، لأنها لا تحتوي العديد من مصطلحات العلم، والفلسفة، لهذا دعا سلامة موسى إلى استبدال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية، لأن هذه الحروف من وجهة نظره هي وسيلة الانفتاح على الحضارة الغربية المعاصرة والاستفادة من نتاجها الحضاري. ومن ناحية أخرى فقد امتد التشكيك عند حسن حنفي إلى ضرورة إحلال مفاهيم الايديولوجيا الماركسية محل اللغة الدينية الإسلامية ومن ثم فهو لا يدعو إلى تجديد اللغة بقدر ما يدعو إلى إسقاط اللغة الماركسية في لغتنا العربية، ولقد استمرت دعاوى التشكيك في

قدرة اللغة العربية على الأداء على يد محمد عابد الجابري الذي اتهم العربية الفصحى بأنها لا تتبدل، ولا تتغير، وإنها لغة جامدة لا تساير تطور العصر، ولم يقدم الجابري أي مشروع يحل أزمة اللغة العربية التي أبداها.

تعقيب

لقد امتلكت اللغة العربية على مدار التاريخ العربي الإسلامي القدرة على تطوير نفسها، واحتواء كل ما هو جديد، ومفيد من نتاج الحضارات الأخرى، فترجم العرب التراث الفارسي، والتراث اليوناني إلى اللغة العربية، وهذا يرد على المشككين بعدم قدرة لغتنا على احتواء الثقافات الأخرى، إن ما يدعيه البعض، ويثيره بأزمة اللغة العربية هو في الحقيقة أزمة إبداع، وإفلاس حضاري، وعدم قدرة العرب على المشاركة والمساهمة في كافة مجالات العلوم والفنون والآداب، والسير في ركب الحضارة العالمية، فالغرب بسبب ثورته العلمية والتكنولوجية في القرنين التاسع عشر والعشرين، فرض لغته على العالم والمتعلم بعد أن تجاوزت ثقافته محيطها الداخلي إلى المحيط الخارجي العالمي، وهذا ما فعله العرب من قبل عندما تسيدوا العالم بثقافتهم وحضارتهم، فغزت اللغة العربية جميع لغات العالم من فارسية، وتركية وأوروبية تحمل لهؤلاء إبداعات العرب من علوم، وفنون، وآداب وغيرها.

إن دعاوى التشكيك التي يثيرها خصوم اللغة العربية الفصحى بالترويج للغات العامة تارة، واللغات الأجنبية تارة يعد هدماً وتمزيقاً على المدى البعيد لذلك الرباط المتين الذي ربط الأمة الواحدة، وحفظ لها تاريخها وتراثها، ومن ثم لا يجب تحميل اللغة العربية الفصحى تقصيرنا في عدم قدرتنا على المساهمة في سيرة الإبداع العالمي في شتى مجالات المعرفة، ولهذا يجب أن ينتقل المجتمع العربي من مجتمع الاستهلاك إلى مجتمع الإنتاج، من مجتمع الترديد إلى مجتمع الإبداع المعرفي، حينها نستطيع فرض حروف لغتنا العربية، كما فرضناها من قبل، ولن نرمي على اللغة العربية إنها السبب في تخلفنا أو جمودنا، ويجب أن نعترف بأن الأمم تتقدم في العلوم والمعارف بلسانها أي بلغتها، ولم نسمع قط عن أمة تقدمت في المجال الحضاري والمعرفي بلسان غيرها. ■

هوامش المقال

(١) جورج طرابيشي: مذبحة التراث في الثقافة العربية. دار الساقي - بيروت،١٩٩٣، ص٢٣.

(٢) الحبيب الجنحاني. دراسات في الفكر العربي. دار الغرب الإسلامي، ص١٠٥.

(٣) ساطع الحصري: آراء وأحاديث في الوطنية والقومية. مطبعة الرسالة، القاهرة، ص٢٨.

(٤) ساطع الحصري: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨، ص١٥٢.

(٥) أمين الخولي: مشكلات حياتنا اللغوية. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، ص٨.

(٦) المرجع نفسه، ص١٠.

(٧) المرجع نفسه، ص١٠.

(٨) المرجع نفسه، ص٧٣.

(٩) سلامة موسى: التثقيف الذاتي دار مطابع المستقبل، القاهرة، ١٩٤٦، ص١٥٤.

(١٠) سلامة موسى: نظرية التطور وأصل الإنسان. سلامة موسى للنشر والتوزيع، ص٣، ١٩٥٧ ص٨.

(١١) سلامة موسى: البلاغة العصرية واللغة العربية، دار مطابع المستقبل ص٣، ١٩٦٤، ص٥٢.

(١٢) المرجع نفسه، ص٧٩.

(١٣) المرجع نفسه، ص١٣٩.

(١٤) المرجع نفسه، ص١٤٠-١٤١.

(١٥) المرجع نفسه، ص١٦٠.

(١٦) حسن حنفي: التراث والتحديد. دار التنوير، بيروت ط٢، ١٩٨٢، ٩٦-١٠٠ بتصرف.

(١٧) حسن حنفي: الدين والثورة في مصر. مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٩، ج٢، ص٨١.

(١٨) محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٤، ١٩٩١، ص٨١.

(١٩) المرجع نفسه، ص٨٣.

(٢٠) المرجع نفسه، ص٨٦.

(٢١) المرجع نفسه، ص ٨٧-٨٨.

(٢٢) المرجع نفسه، ص٨٩.

أغلاط شائعة في النطق والكتابة(٥)

■ د. سمر روحي الفيصل

في القائمة الآتية أغلاط شائعة في النُّطق والكتابة، رتَّبتُها ترتيباً ألفبائيّاً بحسب الحرف الأول منها، بادئاً بالشكل الصحيح للكلمة، موضِّحاً، بعد ذلك، المعنى المراد منها إذا تعددت معانيها، وكانت هناك خشية من اللّبس في المعنى المراد.

فإذا لم يكن لها غير معنى واحد معروف أهملتُ الإشارة إليه، مكتفياً بتصويبها. أما الغلط في الكلمة فقد أخَّرتُه لأبعده عن أن يكون بداية الكلام، وأوّل ما يقع عليه بصر المتلقّي، اعتقاداً مني بأن البدء بالصّواب خير من البدء بالغلط.

– **أدرك أنه على حقّ. ولا نقول:** أدرك بأنه على حق؛ لأن الفعل (أدرك) يتعدى بنفسه، ولا يتعدى بحرف جر. نقول أيضاً: أدرك الشيء: لحقه. وتدارك القوم: تلاحقوا، أي لحق آخرهم أولهم. واستدرك النجاةَ بالفرار: حاول النجاة بفراره.

– **إلا الاستدراكية تستخدم استخداماً غير صحيح في قولنا:** رغم حديثه الواضح إلا أنه لم يذكر الوقائع الحقيقية. والمفيد هنا أن نحذف (إلا) من الجملة، فنقول: رغم حديثه الواضح فإنه لم يذكر الوقائع الحقيقية.

– **إما أن تذهب إلى الشاطئ وإما أن تذهب إلى المتنزه. ولا يقال في التخيير:** إما أن تذهب إلى الشاطئ أو تذهب إلى المتنزه. لأن (إمّا) حرف تفصيل وتخيير وإباحة وشك. فهي تفيد التفصيل في قوله تعالى: (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا). وتفيد التخيير في قوله تعالى: (إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا). وتفيد الإباحة في قولنا: (احفظ إما شعراً وإما نثراً)، وتفيد الشك في قولنا: (ذهب إما نزارٌ وإما عادلٌ).

– **يتعدى الفعل (بدأ) بحرفي الجر (في) و(الباء). ولكن هذين الحرفين لا يستخدمان مع هذا الفعل دون ضابط. فالفاء تستخدم في شيء لا يعقبه شيء آخر، كقولنا:** بدأت في شرب الماء، إذا لم تكن ستشرب شيئاً بعد الماء، فإذا كنت ترغب في أن تشرب الماء أولاً ثم تشرب سائلاً آخر، فإنك تقول: بدأت بشرب الماء، أي أنك بدأت بالماء وستثني بسائل آخر.

– **بعث، يتعدى بنفسه وبإلى وباللام، نقول:** بعثه: أرسله وحده. وبعث به: أرسله مع غيره. وبعثه له: أرسله. و: ابتعث بمعنى: بعث. وقيل إن البعثة التي تعني إرسال الوفود والطلاب، يجب أن تكون بفتح الباء أيضاً، وليس بكسرها.

– **قيل إن الفعل (تعهّد) يتعدى بنفسه، ولا يتعدى بحرف الجر (الباء). والصحيح أنه يتعدى بنفسه، فنقول:** تعهد العمل، وتعهد إطلاق الأسرى، كما يتعدى بالباء، فنقول: تعهد بالشيء: التزم به. والعهاد: مطر أول السنة، مفرده: عهدة. وعهد المكان: أصابه المطر في أول الموسم، فهو معهود. والأرض معهودة: عمها المطر.

– **الرِّياش، بكسر الراء المشددة، مذكر وليس مؤنثاً. نقول:** هذا رياش غال، أي أثاث غال، ولا نقول: هذه رياش غالية. والرياش أيضاً: اللباس الفاخر، المال، والخصب. أما الرائش فهو الساعي بين الراشي والمرتشي ليقضي أمرهما. ■



معوقات جمع التاريخ الشفوي في الإمارات

■ د. فالح حنظل

بقيت الكتابات التي تبحث في تاريخ الإمارات العربية المتحدة، وإلى فترة متأخرة تكتب في الغالب بأيادي باحثين من غير أهل الإمارات، وكانت أقلام هؤلاء الكتاب وعلى الأخص غير العرب منهم لا تستطيع أن تصوّر معالم حركة الأمة وتجهل بواعثها الذاتية وترسم صورة غير كاملة لواقعها، لأن أغلب هؤلاء الكتاب لم ينتبهوا إلى أن تاريخ الإمارات يأتي من أربعة مصادر رئيسية هي: المصادر العمانية والمصادر السعودية والمصادر الانجليزية وأخيراً المصادر المحلية أي ما تركه السلف الأول من مخطوطات وكذلك ما يتناقله الناس عنهم من مرويات شفوية، ولقد كانت المصادر العمانية مفقودة والسعودية غير متيسرة ومخطوطات الأولين من أهل الإمارات مبعثرة هنا وهناك، أما الروايات الشفوية فإن تجربتي مع السلف الأول أنهم كانوا يحجمون عن الإدلاء بما لديهم من معلومات تاريخية وتراثية لأنهم كانوا حساسين في طرق مواضيع مثل هذه خاصة مع غريب ظناً منهم أنه يضمر شراً في قلبه، أو أن ما عندهم ليس ذا أهمية وأنه لا يستحق الذكر، وهو إشكال عانيت منه كثيراً ولم أستطع أن اتجاوزه إلا بعد جهدٍ ومثابرة ومراعاة لعاداتهم وأحاسيسهم لكسب ثقتهم، لذلك ليس غريباً أن ينصرف معظم الذين كتبوا عن تاريخ الإمارات إلى الوثائق البريطانية وما كتبه (لوريمر) في جريدته المشهورة فراحوا ينقلون منها الأخبار والأنباء ثم يصفونها في سطور وصفحات لتغدو كتباً.

وهو أمر جيد لأن المصادر الانجليزية المثلة بما كتبه المقيمون السياسيون البريطانيون من رسائل تحكي عن وقائع حدثت في الإمارات كثيرة جداً، وغنية بالمعلومات وتعتبر في قمة المصادر المخطوطة المتيسرة لدينا، غير أن الرسائل القديمة منها أي المخطوطة باليد والتي اطلعنا على أغلبها تحتاج إلى خبرة كثيرة وطول أناة حين النقل منها، فعلى سبيل المثال (رسائل الملا حسين)، فإن الأصل فيها وارد من الملا حسين الوكيل الوطني الأول في الشارقة (١٨٢٦-١٨٥١)م وهي مكتوبة أصلاً باللغة العربية، وتمت ترجمتها إلى الانجليزية بركاكة إذ الأغلب أن المترجم لم يكن عربياً، بل كان يقرأ فحوى الرسالة وينقلها شفوياً نقلاً غائماً وعلى هذا الأساس كتبها المقيم السياسي أو نائبه ورفعها إلى المسؤولين في الهند، ومن المؤكد أن هذا الأسلوب أدى إلى بعض التحريف عن النص الأصلي خاصة في تدوين أسماء الأعلام، وما أكثر الأخطاء التاريخية التي ترجع إلى سوء الفهم أو التفسير التقريبي للنصوص، وكم شيدت نظريات استناداً إلى نصوص أفسدها التحريف.

وبالنسبة للرسائل البريطانية لما بعد عام ١٨٥١م فهذه أيضا استقت المعلومات من مصدر عربي وهو الوكيل الوطني في الشارقة أو ما اعتاد القوم على تسميته (خان بهادور) و(خان صاحب) و(السركال)، لكل رسالة أرسلها الوكيل البريطاني اعتمدت على رسالة من هؤلاء الأشخاص، والذي يدرس رسائل السركال بدقة ويقارنها بالرسالة البريطانية، يجد أن هناك اختلافاً في وصف الأحداث، وإلى جانب أن الرسالة البريطانية لم يكتبها مؤرخ بل كتبها ضابط عسكري أو سياسي بريطاني، فإن بعض الذين نقلوا عنها وقعوا في أخطاء في النقل لا تثير الأسى بقدر ما تثير السخرية والضحك، وتكون آفة النقل من الانجليزية هي النقل الحرفي بدون مناقشة وبدون تحليل لذلك لم يستطيعوا أن يتمثلوا النفسية التي كانت تدفع أحداث التاريخ لغربتهم عنها، وبذلك فقد صدر مؤخراً كتاب عن تاريخ أبوظبي، يعتمد في كل سطرٍ من سطوره على المصادر الانجليزية فقط، وبلغ من تهافت بعض الكتاب على تزويق كتبهم بأسماء مصادر انجليزية فقط، أنني حققت مؤخراً كتاباً لحساب إحدى الجهات العلمية عن موضوع تاريخي إماراتي، وقد وقع الكتاب في مائة صفحة تقريباً، وفي صفحة المراجع يوجد سرد لخمسين كتاباً انجليزياً تقريباً، ولم أجد خلال تصفحي الكتاب ما يمكن أن تكون كل هذه الكتب مصدراً لهذا البحث، اللهم إلا إذا أراد المؤلف زركشة كتابه بسطور اللغة الانجليزية.

الذي أريد أن أنتهي إليه من هذه المقدمة، هو الموضوع الذي أناقشه الآن وهو (مصادر التاريخ الشفوي للإمارات) فمن البديهي أن مصادر هذا التاريخ هي ما يتداوله الناس من أحاديث وروايات تحكي التاريخ أي الماضي، وهم في الأغلب من أبناء الوطن، وهذه نقطة مهمة لأنني ومن خلال تجربتي في البحث التاريخي وجدت أن أغلب المواطنين تستهويهم رواية (الشواب) أي المسنين من الآباء والأجداد أكثر مما تستهويهم رواية (لوريمر) مثلاً، إذ يعولون كثيراً في اعتماد الأحداث وتصديقها على ما يقوله المسنون في الإجابة عن الأسئلة المهمة التي تثيرها علاقتهم بالماضي، وكذلك على ما تركه السلف الصالح من مخطوطات، وهي على بساطتها في شرح المادة بشكل تاريخي علمي، لكن الجميع يتلهفون للحصول عليها. غير أن هناك عوائق ومشاكل تعترض جمع وتحقيق ونشر مصادر التاريخ الشفوي وكذلك التاريخ المخطوط. فبالنسبة للتاريخ الشفوي تلاحظ النقاط التالية:

١- إن أغلب رواة التاريخ لا يعرفون إلا وقائع حديثة نسبياً، فلا أحد منهم يستطيع أن يتحدث عن (جلفار) أو عن الإنزال البريطاني في (رأس الخيمة) عام ١٨٢٠م، أو أيام المرحوم الشيخ زايد

بن خليفة، أو تاريخ الانقسام السياسي إلى غافري وهنائي.

٢- وهذه الوقائع الحديثة نسبياً، هي ما تخشى مراكز الأبحاث التاريخية في الإمارات من نشرها، لأن أغلبها يدور حول الخلافات والمشاكل القبلية وكذلك المشاكل مع دول الجوار مثل السعودية وعمان.

٣- لذلك فإن هناك شرائح من الرواة لا تحب أن تُظهر ما لديها لأنها تعتقد أن إظهاره يثير مشاكل قديمة.

٤- إن أكثر الرواة يسعون عند وصف حدث ما إلى تهويله وتزويقه وإضافة انتصارات وانكسارات له، وهنا يكمن الخطر في أن بعض جامعي التاريخ لا يكلفون أنفسهم عناء التحقق من صدق ما سمعوه، بل يعتبرون شهادة الرواة شهادة ثابتة، وما يترتب على ذلك من مبالغة في وصف الحوادث أو إظهار العلاقات الفردية والجماعية.

٥- لقد مضى على تأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة أكثر من ثلاثين عاماً، وخلال هذه الفترة انتقل إلى رحمة الله تعالى جيلٌ من الصفوة الخيّرة من رجال السلف الصالح الذين أخذوا معهم تاريخاً شفوياً كان من اللازم حفظه وتسجيله، ولكن الخير لا يزال موجوداً فيمن بقى منهم من أولادهم ومعارفهم.

٦- يجب بذل الاهتمام لفك الإشكال الذهني الوارد في موضوع كتابة تاريخ الإمارات وهو الإشكال المتأتي من أن هناك شريحة من الناس تخاف إظهار تاريخها تصوراً منها أنه سيثير مشكلة، وثانية لا تثق بالمؤرخين من غير أهل الإمارات، وثالثة حجبت مؤلفات أهل الإمارات من النشر والتوزيع، ورابعة لا تثق بما كتبه الانجليز باعتبار أنهم كتبوا تاريخاً مصنوعاً يبرز فضل الاستعمار على البلاد، وخامسة اعتمدت كتابات الانجليز ونشرت كتبها اعتماداً على هذا المصدر فقط. والأدهى من هذاوذاك هو وجود جماعة من الناس ممن تتصور أن تاريخ الإمارات لم يكتب بعد، وهم يوجهون النقد الجارح لكتابات الآخرين ومشكلة هؤلاء الناس أنهم لم يكتبوا شيئاً مفيداً إلى الآن.

٧- وبالنسبة لتكليف عاملين وباحثين لجمع التاريخ الشفوي، أي القيام ببحث ميداني يعتمد على سماع الرواية التاريخية التي تخرج من شفاه المتحدث، فيجب اختيارهم من الذين يعشقون هذه المهنة، أي ليس مجرد موظف يؤدي واجباً معيناً ويتسلم راتباً في نهاية الشهر بل يكون موظفاً عارفاً بمشكلات وظيفته فاهماً خباياها متحسساً مشاعر الناس لكي يتمكن من الحصول على ما يريد من المتحدث، وأن يكون على درجة جيدة من الإجادة في الشرح وصياغة الجمل والتعابير الرصينة لكي يفي الموضوع حقه، وحينذاك يتم تهميش الكتب التي صدرت عن أقلام الهواة.

٨- بمناسبة الحديث عن جمع التاريخ الشفاهي، فَهَبْ أننا جمعناه من أفواه أبناء البلد، وكان أغلبه تاريخاً سياسياً، لأنه هو السائد في أذهان الناس فهل سنتمكن من نشره؟

إن مخطوطات السلف الصالح من أهل الإمارات، لا تقل أهمية عن التاريخ الشفوي اليوم، ولئن أسعدني الحظ وكنت أول من جمعها وحققها، فإن الواقع يجعلني أقول والأسى يملأ قلبي إنه لم تجرؤ أي مؤسسة تبحث في تاريخ الإمارات من تحمل تبعة نشرها، رغم أن المئات من أبناء الإمارات يتلهفون لقراءتها، وفي هذا المجال أشيركم إلى البحث الذي صدر في جريدة الخليج بتاريخ ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٢ بعنوان (مصادر في التاريخ العام والتأليف البحثي والأدبي في الإمارات يفتقدها الباحث والقارئ منذ سنوات) تحدث فيه نخبة من المثقفين وكلهم طلبوا المخطوطات التي بقيت حبيسة أدراج مكتبي.

تجاه هذا يجب أن نقف ونتساءل إلى أي مدى نستطيع أن نتجرد من الماضي، أهو إلى الحد الذي لا تعترف به المؤسسات المهتمة بتاريخ الإمارات حتى بتكريم أسماء المؤرخين الأوائل الذين انتقلوا إلى رحمة الله وكتبوا كتبهم بما استطاعوا

الحصول عليه من أوراق وأقلام وحبر يستخرجونه من بطن حيوان (النغر) وعلى ضوء (فنرٍ) في ظلمة الليل، إن الذين يعتقدون أن تاريخ الإمارات مجرد مجتمع سادته بداوة مغرقة في جاهليتها مخطئون في حكمهم هذا، فهو مجتمع كأي مجتمع إنساني آخر فيه القوي وفيه الضعيف، وفيه عقائد ومذاهب متنافرة تقسم الأفراد والجماعات وتنمي في نفوسهم ولاءات متنافرة تدفعهم إلى التخاصم والتنازع، حتى بين أفراد الأسرة أو القبيلة الحاكمة، وهي أمور لا يمكن حصرها بشعب دون آخر وتحدث نتيجة لما جُبِلَ عليه الخلق من شهوة التملك ونزعة الأثرة.

كما أن التاريخ لا يمكن لأحد أن يبدله وأن ينسج خيوطه حسب هواه وتخيله، أو كما يريده أن يكون. إن تجربتي مع أبناء الإمارات هي أنهم يحبون سماع الواقعة التاريخية حسبما سمعوها من أفواه كبارالسن، ولكنها مدعومة بوثيقة أجنبية، أو بالعكس وثيقة أجنبية مدعومة بمقولة تاريخية وهنا يكمن فن استخدام (مصادر التاريخ الشفوي) في الإمارات.

هناك مثل عامي يقول: «حب واحكي واكره واحكي» وهذا ينطبق على طريقة سرد الرواية التاريخية في الإمارات، إذ على المؤرخ أن يفهم بتجرد وتعمق أسباب وجذور الحادثة وأن يفهم ظروف العصر وألا يهاب الحقيقة التاريخية وألا يلوي عنقها لتلائم تصوراته وألا يدرس تاريخ الأمس على ضوء مفاهيم الحاضر. فلكل زمانٍ أمة.

وأخيراً إذا كنا سنبقى خائفين من نشر التاريخ الشفوي السياسي، فتعالوا نجمع التاريخ الشفوي الاقتصادي، والتاريخ الشفوي الاجتماعي والتاريخ الشفوي الثقافي. ففي التاريخ الاقتصادي لا نزال نجهل علوم (الجو) وهي حسابات اللؤلؤ وأثمانه، وعلى أساسه قامت القاعدة المالية في الإمارات، وفي التاريخ الاقتصادي الشفوي أيضا نحن نعيش اليوم في الإمارات على نظرية اقتصادية سليمة خطط لها المغفور له بإذن ربه الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان– وبرزت معالمها بأعظم شكل في إمارة دبي حسب تخطيط المرحوم الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم، وهي النظرية القائمة على إطلاق حرية الرأسمال، كما أن الباحثين الذين يكتبون عن دبي مثلاً، يكتفون بوصف مظاهر النمو العمراني فيها دون الغور إلى ما كان يعتمل في ذهن الشيخ راشد بن سعيد رحمه الله من فكر اقتصادي ناجح نفذه بدون بهرجة إعلامية ولا خطاب ناري يفلسف فيه نظريته.

أما التاريخ الشفوي الاجتماعي فهناك الكثير مما يمكن جمعه عن شكل حكومة القبيلة ودستورها العام وقانونها القبلي وأعرافها السياسية المستمدة من الدين والعادات وطبيعة الشعب في الأحكام والموازنة بين الاقتصاد والسياسة، أما التاريخ الشفوي الثقافي، فلا نزال إلى الآن لم نعد قادرين على أن نكشف الغموض الذي يلف شاعر الإمارات وحكيمها الماجدي بن ظاهر. وما زالت هناك جملة قصائد وأشعار تبحث في أحداث تاريخية وملاحم وحكم وأمثال إلى غير ذلك من أبواب الثقافة والمعرفة، لم يتم جمعها بعد.

أخيراً فإن أبناء الإمارات اليوم لا يريدون أن يعيشوا ماضيهم بشكل مخدر لسحره ولا مدفوعين نحو مشاكلة القديمة، وإنني ألتقي بعدد كبير من الشبان الذين يرغبون في جمع مأثورات الآباء والأجداد وهم بحاجة إلى من يوجههم من مجرد فورة العاطفة إلى رصانة العلم. إن الخوف على مجتمع الإمارات من تركه يعيش بدون أن يعرف ماضيه أخطر من تركه يعيش في خدر وبهرجة الحاضر بحيث لا يبقى من تاريخ الإمارات إلا ما يقام بين الفينة والأخرى من معرض للتراث تعرض فيه أساليب المعيشة القديمة، أو ما ينشر في الصحف أحياناً من صورٍ لأبراج وبيوت مهدمة ويكتب تحتها عنوان (تاريخ وتراث) دون النفاذ إلى الحياة البشرية التي انسابت فيها.■



عوامل اجتماعية وثقافية وسياسية مهدت لظهور الصحافة في المنطقة

■ د. محمد يونس

إذا كان ظهور الصحافة قد تأخر في منطقة الخليج والجزيرة العربية مقارنة بظهورها في أقطار عربية أخرى، حيث ظهرت أول صحيفة في مصر عام ١٨٢٨م وهي «الوقائع المصرية» التي أصدرها محمد علي، في حين ظهرت أول صحيفة في الحجاز عام ١٩٠٨ م وهي صحيفة «الحجاز» التي صدرت في مكة، وفي ساحل الخليج العربي عام ١٩٢٨م ظهرت صحيفة «الكويت»، فإن هذا التأخير النسبي لا يعني أن أهل المنطقة كانوا منقطعين جملة عن الصحافة، وإنما على العكس فقد شهد الخليج ظهور أشكال أخرى من التعاطي مع العمل الصحفي مثل الصحافة الوافدة، والصحافة الخطية، مما يؤكد الشعور المبكر بأهمية الصحافة ودورها، على الرغم من عدم توفر آليات إصدارها.

ولا شك إن رصد ملامح الصحافة ونشأتها في أي مجتمع لا ينفصل عن القراءة الفاحصة لأبعاد الزمان والمكان، وتأثيرهما على الإنسان الذي لا بد أن تتفاعل حركته مع مكانه ومؤثرات زمانه لتنقل الصحافة وتسجل كل ذلك بل وتتأثر به وتؤثر فيه. وقد مهدت عدة عوامل أمام ظهور الصحافة الخليجية، سوف نتناولها عبر هذه السلسلة من المقالات، بالإضافة إلى رصد نشأة وتطور الصحافة في دول مجلس التعاون الخليجي والأشكال التي ظهرت بها، وأبرز القضايا التي تناولتها.

وقد تنوعت هذه العوامل ، فبعضها ثقافي وإعلامي، وبعضها اجتماعي، وهناك عوامل سياسية، أما العوامل الاقتصادية فقد تأخر تأثيرها حيث ارتبطت بالحقبة النفطية وتجلى تأثيرها في تطوير الصحافة المطبوعة وإمدادها بالتقنيات المطلوبة.

العوامل الثقافية والإعلامية

من الصعب القول بوجود صحافة قبل وجود قارئ يقرؤها وقبل ذلك مثقف يكتبها وربما وسيلة لطباعتها، بعبارة أخرى يشكل التعليم الأساس الذي يكوِّن جمهور الصحيفة، كما تشكل الثقافة الوعي الذي يجعل لهذه الصحافة أهمية ودوراً. ويعتبر التعليم والطباعة والمسرح والسينما من أبرز العوامل الثقافية والإعلامية التي أثرت في ظهور الصحافة ومهدت لها.

فقد كان التعليم التقليدي الذي يتمحور حول الكتاتيب بشكل رئيسي هو السائد في منطقة الخليج في مطلع القرن العشرين، وكانت هذه الكتاتيب تنتشر في مدن وقرى البحرين، وحملت على عاتقها مهمة تنشئة النشء وتزويدهم بالمعارف الدينية المتمثلة في تعليم القرآن الكريم وتحفيظه إلى جانب شيء يسير من التفسير والعلوم الدينية. بهذا النهج التقليدي استمر (الكتّاب) في تحمل مهمة تعليم النشء على عاتقه، وكان له الفضل الأكبر في تخريج الكوادر



كُتّاب في السعودية

الطليعة التي استطاعت أن تلبي حاجة المجتمع. فمن هؤلاء من اتجه للعمل في المرافق الرسمية للدولة، ومنهم من اتجه إلى المدارس الدينية، وبعضهم اتجه للأزهر الشريف بمصر أو النجف الأشرف بالعراق للالتحاق بكلياتها أو حلقاتها الدينية.

وقد كان إنشاء مدارس الإرسالية دافعاً لإنشاء المدارس النظامية الخاصة في الخليج التي تهتم بتعليم النشء المبادئ العربية الإسلامية.[١] وذلك بسبب الضجة التي أثارتها مدارس الإرساليات. فعلى سبيل المثال أنشأت الإرساليات مركزاً صغيراً في البحرين عام ١٨٩٢م ضم مدرسة لتعليم اللغة الإنجليزية ومكتبة عامة، غير أن أنشطته التبشيرية جعلته محل غضب الأهالي ونفر منه الطلاب البحرينيون[٢].

وقبيل عام ١٩١٩ تبلورت لدى مجموعة من وجهاء البحرين فكرة إنشاء مدرسة نظامية، تمثلت في مدرسة الهداية الخليفية بمدينة المحرق التي تعتبر الحجر الأساس للنهضة العلمية في البحرين، وتلاها تأسيس مدرسة (المباركية العلوية) في منطقة الخميس عام ١٩٢٦م.

الكتاتيب والمطابع والمجالس لعبت دوراً في الاهتمام بالصحافة

وفي الكويت بدأ العمل في إنشاء مقر للإرسالية منذ سنة ١٩١٠م. تضمنت بعد ذلك مدرسة لتعليم اللغة الإنجليزية، ألحقوها بالمستشفى وقد التحق بهذه المدرسة بعض الطلاب الكويتيين. أما أول مدرسة نظامية كويتية فقد أنشئت عام ١٩١١م.

جدل حول قراءة الصحف

شهدت قطر منذ عشرينيات القرن العشرين حركة ثقافية تمثلت في إنشاء بعض المدارس التعليمية التي تخرج منها رعيل كبير، كان له حظ المشاركة، في إذكاء الروح الثقافية في المنطقة، ودخولها في مرحلة الصراع بين أتباع التقليد، وأنصار التجديد، وشمل هذا الصراع موضوع قراءة الصحف والمجلات التي كانت شبه محرمة على الناس من قبل، حتى اتهم المناصرون لقراءة الصحف والمجلات وعلى رأسها مجلة «المنار» بالكفر، وطالب أتباع التقليد باستحلال دمهم. ولكن أنصار التجديد ظلوا على نضالهم في إقناع الناس بأهمية قراءة الصحف والمجلات القادمة من البلاد العربية الأخرى، وبأن هذا الاطلاع الصحفي ليس فيه ما ينافي الدين.(٣)

وكان يتزعم حركة إصلاح التعليم والحركة الثقافية في قطر الشيخ محمد بن مانع الذي استقر به المقام فيها منذ عام ١٩٠٣م، حيث أنشأ «المدرسة الأثيرية» التي لعبت دوراً كبيراً في بث الروح الثقافية في المنطقة عامة، منذ إنشائها ١٩١٣م، وإلى ١٩٣٨م، وكان من نتاج الحركة التعليمية التي قادها الشيخ محمد بن مانع ظهور بعض المصنفات الأدبية والشعرية.

طلائع الصحفيين والكتاب الخليجيين

ولا شك أن كثيرين من أبناء هذه المدارس وقبلها الكتاتيب، على اختلاف أماكن ظهورها بمنطقة الخليج، كانوا طلائع الصحفيين والكتاب الخليجيين، فعلى سبيل المثال نجد عبد الله الزايد (المولود عام ١٨٩٤م) الذي يعتبر أحد رواد الصحافة البحرينية ومؤسس أول صحيفة بها، قد تلقى تعليمه في الكتَّاب، ثم التحق بمدرسة أهلية هناك.

وفي الكويت نجد أن رائد الصحافة الكويتية الشيخ عبد العزيز الرشيد مؤسس أول صحيفة بالكويت ومجلتين أخريين، والمولود أواخر القرن التاسع عشر (عام ١٣٠٥هـ) قد تعلم الفقه والعلوم الدينية هناك، بل إنه ساهم في تأسيس المدرسة المباركية عام ١٩٢٠ م.

أول مطبوع دوري في الحجاز

ويمكن القول بأن الصحافة في منطقة الخليج ترتبط في نشأتها الأولى بالمطبعة وأصحاب المطابع(٤)، ولكن يلاحظ وجود فجوة كبيرة بين ظهور المطبعة وظهور الصحف المطبوعة، غير أن المطبعة قد مهدت الطريق أمام الصحافة.

فقد دخلت الطباعة مكة سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م، وذلك بإنشاء المطبعة الأميرية فيها، وقد أسهمت هذه المطبعة في تغذية حركة النشر في البلاد، حيث نشر بها علماء الحرمين مؤلفاتهم، كما نشرت فيها بعض كتب التراث.

وكان من أول ثمار هذه المطبعة صدور الكتاب الدوري الرسمي لولاية الحجاز «حجاز ولايتي سالنامه سي» عام ١٣٠١هـ (١٨٨٣ أو ١٨٨٤م) ويشبه هذا الكتاب، الكتب الدورية التي ظهرت في التاريخ الأوروبي والتي مثلت الإرهاصات الأولى لظهور الصحافة الغربية.

وقد احتوى الكتاب الدوري لولاية الحجاز على معلومات وإحصائيات عن مختلف نواحي الحياة في الولاية. وقد حررت أعداد هذا الكتاب باللغة التركية، ولكنه كان يشمل -أحياناً- نبذة قصيرة باللغة العربية عن الخلفاء العثمانيين ومآثرهم، وعن المسجد الحرام وعمارته. كما أن العدد الثاني الذي صدر في شهر رمضان ١٣٠٣هـ (١٨٨٦م) قد حرر باللغتين التركية والعربية وظهر في مجلد واحد.

ولم يكن هذا المطبوع يصدر بطريقة منتظمة.

ويبدو أن العدد الخامس الذي صدر عام ١٣٠٩هـ (١٨٩١ أو ١٨٩٢م) هو آخر ما يوجد الآن من أعداد هذه السالنامة، ومهما يكن فليس بواضح ما إذا كان قد أوقفت السالنامة عن الصدور بعد ظهور العدد الخامس أم أن مزيداً من الأعداد قد صدر بعد ذلك؟

ويتألف العدد الأول من «سالنامة ولاية الحجاز» من ١٨٢ صفحة من الحجم المتوسط، أما النسخة العربية من العدد الثاني فتتكون من ١٩٢ صفحة، ويتألف العدد الثالث من ٢٥٢ صفحة، أما العدد الرابع فهو مكون من ٣٠٦ صفحات. وقد ظهر العدد الخامس في ٣١٠ صفحات. وتتشابه موضوعات هذه الأعداد، أما الأعداد اللاحقة فكانت تسجل دائماً ما يجد في شؤون الدولة والولاية.(٥)

وفي البحرين لعبت المطابع دوراً مهماً في نشوء الحركة الفكرية في البلاد وأسهمت في تدعيم الساحة الثقافية، بما قامت به من دور في طباعة الكتاب البحريني وتوسيع دائرة نشره. وفي عام ١٩١٣م اشترك كل من أحمد عبد الواحد فرامرزي وميرزا علي جواهري في استيراد أول مطبعة حجرية إلى البلاد. وفي ١٩٣٢م. قام الشاعر الأديب عبد الله الزايد باستيراد مطبعة طبع بها جريدة (البحرين) التي أصدرها في سنة ١٩٣٩م (٦).

المسرح والسينما

يقوم المسرح بدور مهم في بلورة الوعي وتطوير الحركة الثقافية، وتكمل السينما هذا الدور إذا التزمت بقضايا المجتمع وحاولت معالجتها برؤية فنية. وإذا كان المسرح قد ساهم في التمهيد لظهور الصحافة في بعض المجتمعات بخاصة في الغرب بما قام به من دور حيوي في تشكيل وعي الجماهير، فإنه قد قام بدور مشابه في بعض مناطق الخليج، وإن كان في وقت متأخر نسبياً. وقد لعب المسرح في البحرين دوراً بارزاً في نمو الوعي القومي وإرساء الأسس الثقافية في المجتمع البحريني، وقد بدأ مدرسياً على أيدي أولئك الرواد من المدرسين الذين قاموا بتأهيل بعض طلابهم

■■

قراءة الصحف تشعل معركة بين أتباع التقليد وأنصار التجديد

■■



صحافة خليجية

للتمثيل،فعلى سبيل المثال في عام ١٩٢٥م قدمت مدرسة الهداية الخليفية مسرحية (قاض بأمر الله).

وقد واكب إنشاء دور العرض السينمائية وتكوين الفرق المسرحية ظهور الصحافة، ففي سنة ١٩٣٨م، افتتحت (شركة مسرح البحرين) أول دار للسينما تعرض نماذج من الأفلام الهندية والمصرية والأمريكية، وفي سنة ١٩٣٩ ظهرت أول صحيفة في البحرين أصدرها الشاعر عبد الله علي الزايد باسم «البحرين»[٧].

العوامل السياسية

كانت القوى الاستعمارية تدرك تماماً الميزة التي تتمتع بها منطقة الخليج استراتيجياً واقتصادياً، وكانت تدرك تماما قيمة التفوق السياسي العالمي للقوى التي يمكنها السيطرة على الخليج. وعلى الرغم من أن منطقة الخليج والجزيرة العربية كانت في زمن ظهور الصحافة العربية، جزءاً من الدولة العثمانية، إلا أنه كانت هناك قوى أجنبية أخرى تزاحمها بشكل أو بآخر، وفي مقدمتها بريطانيا، التي لعبت دوراً مهماً في هذه المنطقة منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وأثرت على تبعية المنطقة للدولة العثمانية، ومن ناحية أخرى ساهمت في خلخلة الطبيعة العشائرية للمنطقة، مما ساهم في خلق الحاجة للصحافة للتعبير عن هذا الحراك.[٨]

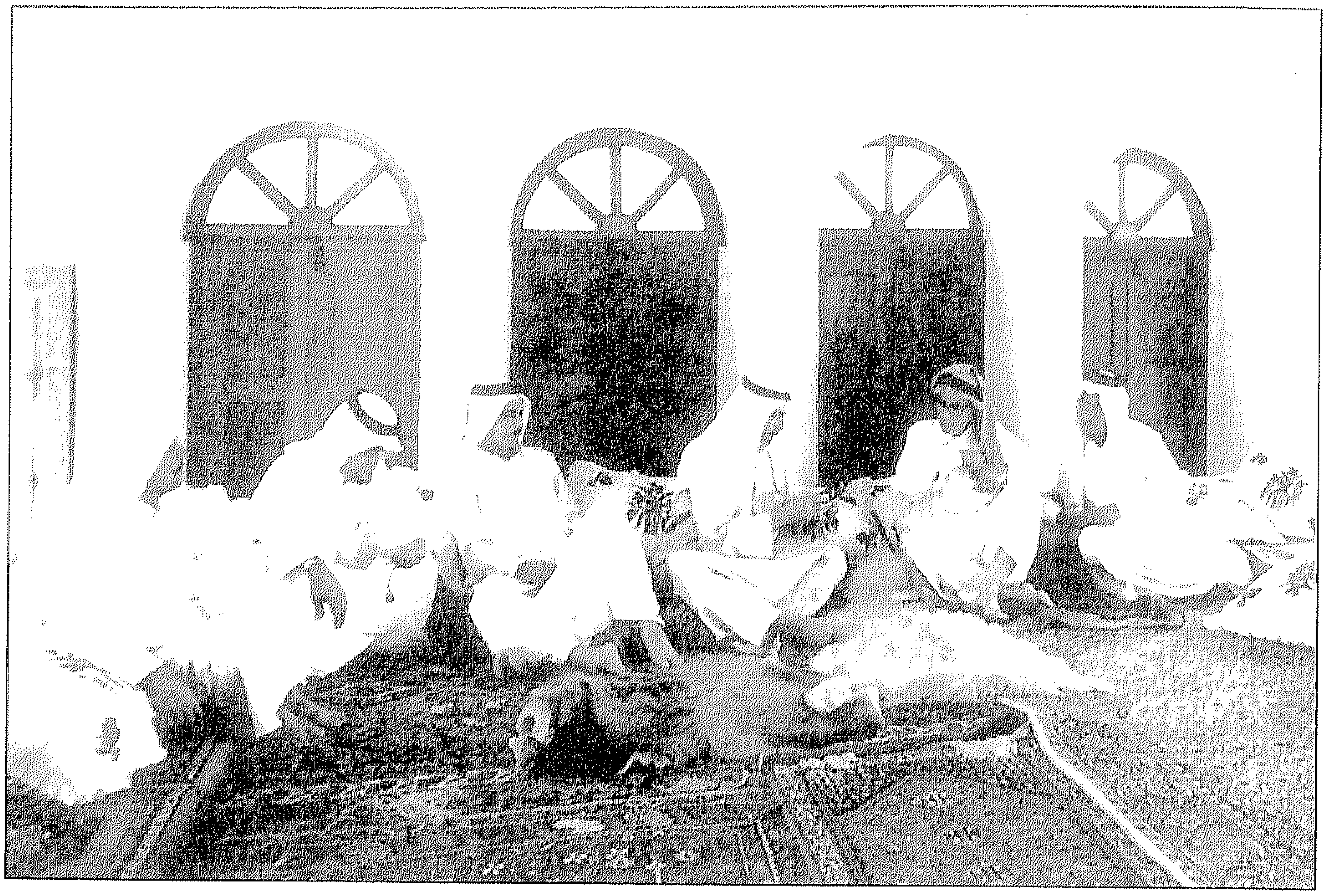
وكان لهذا المناخ أثره في الاهتمام بالصحافة وتوظيفها لتعبر عن المواقف المتباينة للقوى المحلية في منطقة الخليج: المركزية (العثمانية) والأجنبية (البريطانية)، كل حسب ظروفه وإمكانيته، فبعضهم أصدر صحفاً تعبر عن أفكاره وطموحاته، وبعضهم الآخر استمال صحفاً خارجية لتؤيده وتدافع عن مواقفه السياسية.

فقد لعبت الصحافة دوراً دعائياً واضحاً بالنسبة لبعض الحكام، ودفعهم ذلك إلى مساندة بعض الصحف بالأموال لتدافع عن مواقفهم السياسية، وتنطلق بالدعاية لهم، فمثلاً الشيخ «مبارك الصباح» كانت مواقفه السياسية تأخذ شكلاً مزدوجاً بين الدولة العثمانية والحكومة البريطانية مما أدى إلى غموض ذلك الموقف، ومهاجمة الصحف العثمانية له مما جعل الشيخ مبارك يدفع بدل اشتراك لجريدة الخلافة التي كانت تصدر في كلكته ولندن والتي حظرت الحكومة العثمانية دخولها البلاد لمخالفتها سياستها. كما كانت هناك معارضة محلية للسياسة العثمانية من جانب بعض الحكام في الخليج، وقد اتخذ هؤلاء من صاحب جريدة العمران- وكانت محظورة التوزيع من قبل السلطات العثمانية لمعارضتها لسياسة الدولة- وسيلة للدفاع عن مواقفهم.[٩]

وكانت جريدة العمران تدافع عن موقف هؤلاء الحكام وخاصة الشيخ مبارك، وكان لصاحبها صلات مع أمراء «الحج» و«عدن» و«المكلا» و«حضرموت» و«الشحر» و«مسقط» و«لنجة» و«البحرين» وكانت صور الشيخ مبارك تتصدر صفحات هذه الجريدة، وامتلأت بنظم صاحبها في مدح هؤلاء الأمراء والشيوخ.[١٠]

وكان العرب قد فرحوا بإعلان الدستور العثماني (١٩٠٨م) لأنهم ظنوا أن نظام اللامركزية سيتبع في حكم الولايات العربية، وأن اللغة العربية ستستخدم في شؤونهم التعليمية والإدارية، ولكن سرعان ما تبينوا أن جمعية الاتحاد والترقي لن تغير هذه الأهداف. وقد تتالت بعد ذلك عدة أحداث باعدت بين العرب والأتراك، وجعلت كثيرين من العرب أكثر ميلاً إلى الوعود السخية التى وعد بها الحلفاء أثناء الحرب العالمية.

ومن جهة أخرى كان للعاطفة الدينية أثرها في دفع حركة الرأي التي تناصر الجامعة الإسلامية وتقف في وجه المؤيدين للإنجليز، وحينما أعلنت الحرب العالمية الأولى ودخل الأتراك في تحالف



المجالس لعبت دوراً إعلامياً مهماً

مع ألمانيا والنمسا كانت الغالبية العربية تؤيد الأتراك في نضالهم ضد الحلفاء.

صحيفة «القبلة» لسان الثورة العربية

وقد شكلت الحرب العالمية الأولى نقطة محورية في هذا السياق، تمثلت في تطور الوعي السياسي في المنطقة العربية بشكل عام ومنطقة الخليج بشكل خاص، وتزايد دور الإعلام وبخاصة الصحافة في حياة الناس، سواء لمتابعة أحداث الحرب أو للتعبير عن الرأي العام العربي وقضاياه. وقد أعلنت مع بداية الحرب العالمية الأولى «الثورة العربية» التي اتخذت من الصحافة منبراً لها حيث أصدر الشريف حسين عام ١٩١٦ صحيفة «القبلة» لتكون لسان حال هذه الثورة [١١]. وقد كتب الأهالي في بعض مناطق الخليج مقالات في الصحف العربية والهندية يعبرون فيها عن تطلعات أوطانهم في الاستقلال عن بريطانيا.

وفي عام ١٩٣٩م بدأت الحرب العالمية الثانية، حيث تابع أبناء منطقة الخليج باهتمام بالغ جميع الأخبار الصادرة عن دول المحور أو عن دول الحلفاء. وقد كانت للبحرين في البداية أهمية كبيرة بالنسبة للقوى الاستعمارية، ولذلك نجد أنه من غير المستغرب نشوء الصحافة البحرينية أثناء الحرب العالمية الثانية وظهور صحف موالية للحلفاء.

الجمهور الأول للصحافة

تعد مجالس الضيافة والديوانيات والأندية من أبرز المؤسسات الاجتماعية التي تشهد أشكالاً مؤثرة من الاتصال الإنساني والاجتماعي في منطقة الخليج. وقد مثلت أجواء مواتية لظهور الصحافة، كما أنها شكلت في كثير من الأحيان الجمهور الأول لها.

ففي مجالس الضيافة قديماً كان يتم تناقل الأخبار وتدبير الأمور التجارية وعقد الاتفاقات، بل وأكثر من ذلك كان الحكام يلتقون مباشرة بشعب الإمارة حيث تدرس الشكاوى وتتخذ

القرارات وهو الدور الرئيسي الذي تقوم به الآن التحقيقات الصحفية المحلية وأعمدة الرأي النقدية وأبواب بريد القراء التي تضم العديد من المناقشات للشؤون المحلية وشكاوى الناس، أي أن هذه المجالس كانت تعكس للحكام اتجاهات الرأي العام، وهي المهمة التي تقوم بها الآن الصحف، كما أن المجلس كان قديماً يقوم بمهمة الجريدة الرسمية، إذ كان يتم الفصل في القضايا في مجالس العرب وتعلن الأحكام فيها، بل إن الأوامر الرسمية كانت تعلن في مجالس الشيوخ.(١٢)

ومن ثم لعبت المجالس دوراً إعلاميا وسياسياً مهماً في المجتمع الخليجي. ولا تزال هذه المجالس في دولة الإمارات العربية المتحدة، تمثل مصدراً مهماً للأخبار والمتابعات الصحفية، ويمكن ملاحظة هذه التغطيات الصحفية بشكل أوضح في الصحف الإماراتية خلال شهر رمضان.

وقبل أن تظهر الصحافة المحلية في الكويت كان الكويتيون يعتمدون على سماع الأخبار بواسطة اللقاءات اليومية في الديوانيات الخاصة بالوجهاء وكبار التجار، ويتناقلون ما يسمعونه بواسطة مراسلاتهم مع وكلائهم في الهند والبصرة، كما كانت تتم في هذه الديوانيات قراءة ما يردهم من القاهرة والبصرة من صحف ومجلات.(١٣)

وتعتبر الأندية من المؤسسات الرئيسية التي ساهمت في ظهور الصحافة وازدهار الحركة الثقافية في البحرين، ففي عام ١٩١٣م تم تأسيس نادي (إقبال أوال) من قبل مجموعة من الشباب المثقف في مدينة المنامة، وبدأ نشاطهم في التصدي لدعوات المبشرين، إثر إنشاء مكتبة خاصة بالإرسالية الأمريكية، وتلاه (النادي الأدبي) الذي تمّ تأسيسه عام ١٩٢٠م في مدينة المحرق.

وقد كانت هذه الأندية مجالاً خصباً للتأثير الصحفي في جماهيرها حيث كانت بعض الصحف العربية تصل إلى هذه الأندية وتؤثر في مرتاديها، فينقل الدكتور محمد حسن عبد الله حديثاً صحفياً للشيخ عبد الله الجابر الصباح يتحدث فيه عن النادي الأدبي بالكويت ، فيقول: «بعد سنتين من إنشائه تأثر النادي الأدبي بالسياسة وبالذات ما كان يحدث في مصر أيام مصطفى كامل، وعدلي يكن باشا، وثروت باشا، وسعد زغلول».(١٤) ■

هوامش

(١) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الموسوعة الصحفية العربية، تونس، ١٩٩٥م ص٦٠-٦١.

(٢) هلال الشايجي: الصحافة في الكويت والبحرين منذ نشأتها حتى عهد الاستقلال، المنامة، مرجع سابق، ص٤٩-٥١.

(٣) محمد جابر الأنصاري: فصول من تاريخ صحافة الخليج، مجلة الدوحة، أكتوبر ١٩٧٦م. ص٨٦-٩١.

(٤) عاصم الدسوقي وآخرون: الصحافة القطرية والقضايا العربية، الدوحة: جامعة قطر، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، ١٩٨٤م، ص١٣.

(٥) محمد عبد الرحمن الشامخ، نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية، الرياض: دار العلوم، ١٩٨١م، ص٣٣-٣٥.

(٦) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الموسوعة الصحفية العربية، تونس،١٩٩٥م، ص٦٣.

(٧) عزة على عزت: الصحافة في دول الخليج العربي،ج١، بغداد: مركز التوثيق الإعلامي لدول الخليج العربي، ١٩٨٣م، ص٧٦.

(٨) لمزيد من التفاصيل انظر: هلال الشايجي: الصحافة في الكويت والبحرين، منذ نشأتها حتى الاستقلال، مرجع سابق، ص ١٩-٤٤.

(٩) جريدة العمران عدد ٣٣٥ السنة الحادية عشرة ج٥ مجلد ١ سنة ١٩٠٧.

(١٠) هلال الشايجي: الصحافة في الكويت والبحرين منذ نشأتها حتى عهد الاستقلال، البحرين: مطبوعا بانوراما الخليج، ١٩٨٩م، ص ٧٤-٧٥.

(١١) خليل صابات: نشأة وسائل الاتصال وتطورها، ط٦، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٩١م، ص٢٨٣.

(١٢) عزة علي عزت: الصحافة في دول الخليج العربي، مرجع سابق، ص٥٨.

(١٣) الموسوعة الصحفية العربية، مرجع سابق، ص٢٧٨.

(١٤) تم نشر هذا الحديث الصحفي بمجلة الكويت بتاريخ ١٦ / ٤ / ١٩٧٢م، انظر: محمد حسن عبد الله: الحركة الأدبية والفكرية في الكويت ص٣٠ وما بعدها، وهلال الشايجي: الصحافة في الكويت والبحرين، مرجع سابق، ص٦٣-٦٥.



الرجل الذي هزم العنصرية بالقاضية

"تاتا".. التاريخ الحي

■ استطلاع وتصوير: حنفي جايل

أول نوفمبر المقبل سيتم تسليمه جائزة "سفير الضمير" التي تمثل أرفع تكريم تمنحه منظمة العفو الدولية المعنية بحقوق الإنسان لأي شخص.. وقد منحته الجائزة لأنه "أصبح رمزاً لكل ما هو باعث على الأمل ومثالي في الحياة العامة.. وتقديراً لنضاله من أجل الحرية والعدل في العالم" على حد تعبير المنظمة.

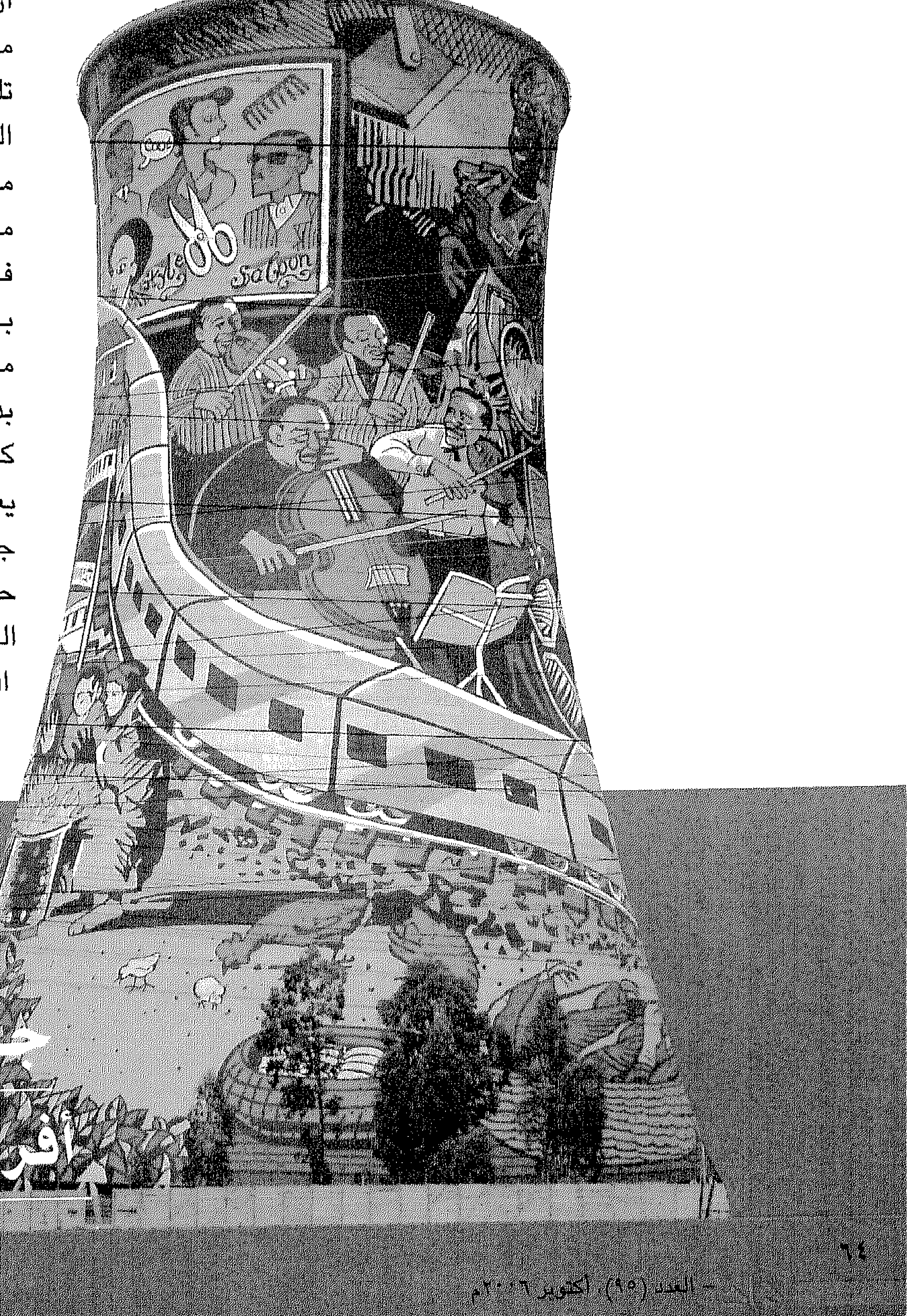
إنه «تاتا» الذي أطلقوا عليه في جنوب أفريقيا «التاريخ الحي».. وتاتا معناها «الجد».. والتاريخ الحي هو الزعيم نيلسون مانديلا.

والسؤال: كيف يصبح التاريخ الذي مضى.. حياً مجسداً؟!!.

إجابة هذا السؤال هي قصة ثلاثية الأبعاد: طولها ثمانية وعشرون عاما، وعرضها بعرض دولة جنوب أفريقيا كلها، وارتفاعها بارتفاع قامة المجد الذي شاده رجل تحول من سجين إلى أسطورة.. وصنع حضارة غنية في القارة السمراء الفقيرة.

ثمانية وعشرون عاما قضاها نيلسون مانديلا في سجن كئيب رهيب.. رهين المحبسين.. الجدران الكالحة والعنصرية الفادحة.. لكنه ويا للعجب.. عندما فرّج الله كربته وتولى مقاليد الأمور تخلق بأخلاق الإسلام رغم أنه غير مسلم.. فلم يندفع إلى هاوية الانتقام من جلاديه.. وإنما خرج مرفوع الرأس قائلاً لشعبه: عفا الله عما سلف.. ولنتسامح!!!.. وتخيلوا لو أنه ركب حصان الانتقام الجامح كما يمكن أن يفعله البعض.. فما الذي كان سيحدث في جنوب أفريقيا؟.. ماذا يمكن أن يؤدي إليه الانتقام في بلد حولته العنصرية إلى حطام؟

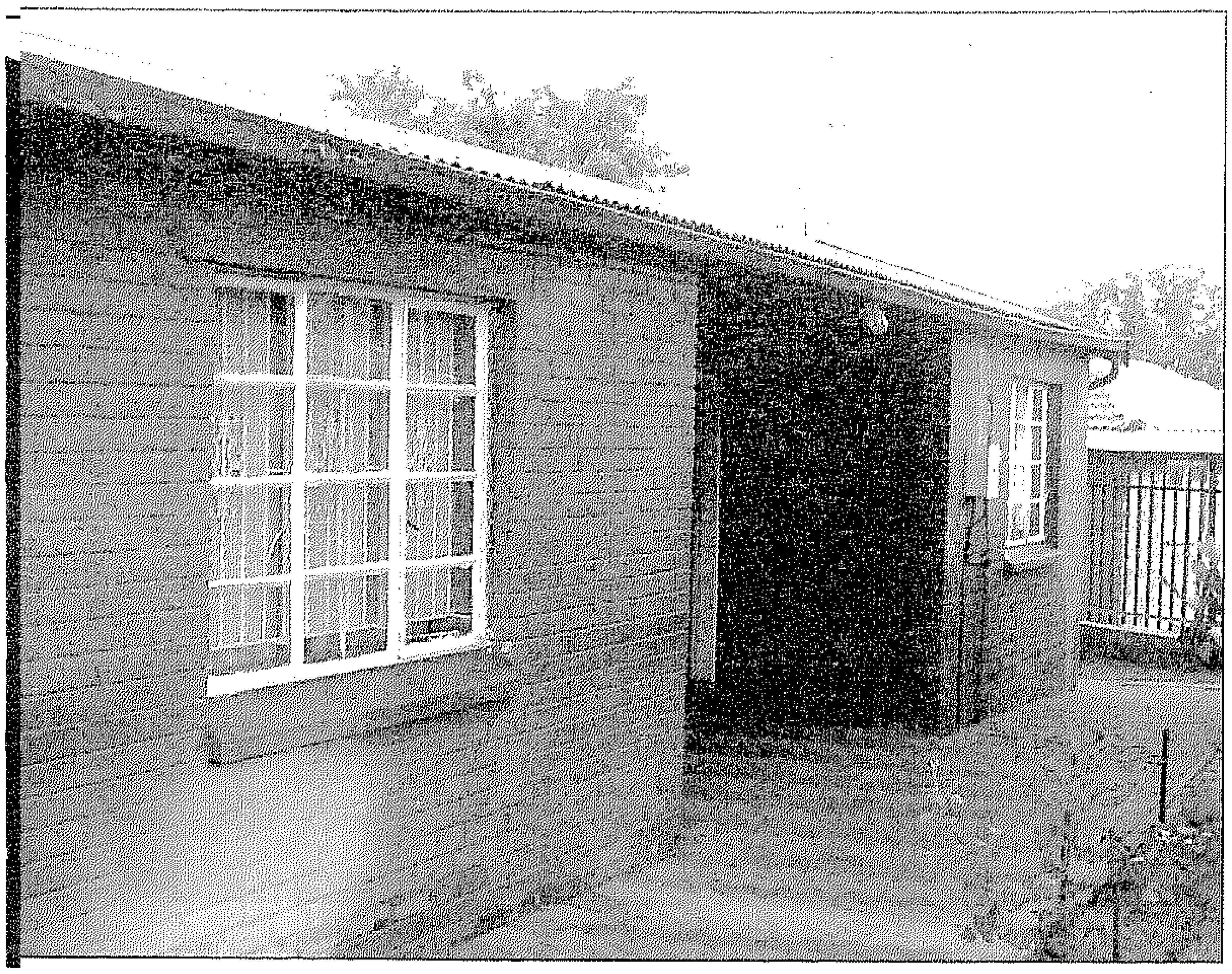
مانديلا طلب من شعبه التسامح واتخاذه قاعدة لبناء جنوب إفريقيا الحديثة.. «تراث» كانت هناك.. تجولت في أكبر مدنها جوهانسبرج قبل أن تذهب لترى ذلك المكان المظلم.. الذي كان منبع النور في حياة جنوب أفريقيا الحديثة.. في تلك المدينة المترامية الأطراف لفتت أنظارنا تلك المباني بطرازها المعماري الغربي.. الذي تشعر معه مرة أنك في لندن.. ومرة ثانية أنك في مدريد.. وثالثة أنك في روما.. اجتزنا الشوارع في طريقنا إلى مقاطعة سويتو على مسافة ليست بعيدة عن جوهانسبرج.. خلال الرحلة أخبرنا مرافقنا أن سويتو كانت في الأصل مملكة قائمة بذاتها، وحكمها لفترة طويلة ملك يدعى سوكوزا كانت له ستون زوجة بالتمام والكمال، ثم راح يعرفنا على بعض المعالم البارزة الموجودة على جانبي الطريق والتي هي من دون شك شواهد حضارية تتحدث عن الجهد المبذول في تطوير المقاطعة والارتقاء بها، ومن هذه المعالم معهد التمريض، وهو ملحق بمستشفى كبير يضم ٢٤٠٠ سرير، ويعمل فيه العدد نفسه من



جنوب أفريقيا

■ العاصمة: بريتوريا، وتتكون جنوب أفريقيا من ٩ محافظات: كيب الغربية وعاصمتها كيب تاون، كيب الشمالية وعاصمتها كيمبرلي، كيب الشرقية وعاصمتها بيشو، كوازولو ناتالو عاصمتها بيترماريزبيرغ، فري ستيتو عاصمتها بلويمفونتاين، الشمالية

الممرضات. ومن المعالم الأخرى جامعة سويتو التي يدرس فيها أكثر من ١٥ ألف طالب وطالبة معظم التخصصات ماعدا الطب، ومعهد تدريب المعلمين، وبرجان كبيران يقعان على يمين الطريق وأنت متجه نحو سويتو، ويشكلان أحد المعالم البارزة والرئيسة والمميزة للمقاطعة، وقد أقيما وسط محطة الكهرباء الرئيسة في المقاطعة، ورسم على أحدهما قصة الصراع ضد التفرقة العنصرية، كما شاهدنا على يسار الطريق مدينة الفيلة، أو المدينة البيضاء، وهي مدينة سكنية للبشر وليست للفيلة كما يوحي بذلك الاسم الذي اشتهرت به، والذي جاء من شكل المنازل المقامة فيها والتي تماثل الفيلة في ضخامتها، ويتسع الواحد منها لثلاث عائلات متوسطة على الأقل، وأسطحها تشبه أيضا ظهور الفيلة!


منزل الزعيم مانديلا

التاريخ يتوقف

ومع الانهماك في الاستماع لشرح المرافق لم نشعر إلا بالسيارة وقد توقفت أمام بيت الزعيم نيلسون مانديلا، والذي لا تزيد مساحته بحال عن ٧٠ متراً مربعاً، وبمجرد الدخول إلى البيت تشعر أن التاريخ قد توقف هناك. تشهد على ذلك غرفة الجلوس المتواضعة التي بها أريكتان، إحداهما، أهديت له من طلبة أفارقة كانوا يدرسون في ميتشيجان بالولايات المتحدة الأمريكية باعتباره رمزاً لنضال أمة، والذي يطلقون عليه كما ذكرنا «التاريخ الحي» لجنوب أفريقيا، وعلى الأريكة شعارات مختلفة وبعض التذكارات البسيطة، والأريكة الأخرى توجد على اليسار وبينهما كرسي. هذه الغرفة كانت تستعمل نهاراً لجلوس أفراد العائلة، وفي الليل لنوم أولاد الزعيم من زوجته الأولى. ومن المعروف أن مانديلا تزوج ثلاث مرات: أولاها كانت من إيفيلين وامتد هذا الزواج من ١٩٦١ حتى ١٩٦٤ ورزق منها بأربعة أطفال توفي أكبرهم وكان شاباً في حادث سير، كما توفي الثلاثة الآخرون أيضا بعد ذلك، وفي المرة الثانية تزوج من ويني مانديلا رفيقة كفاحه، وأم الأمة كما يطلقون عليها، ثم انفصلا بعد خروجه من المعتقل بفترة في العام ٢٠٠٤،

الغربية وعاصمتها مافيكينج، اوتينج وعاصمتها جوهانسبرج وهي أكبر وأغنى مدن جنوب أفريقيا وثالث المدن الأفريقية اكتظاظا بالسكان بعد القاهرة ولاجوس، مبومالانجا وعاصمتها نيلسبرويت، ليمبوبو وعاصمتها بولوكوان.

■ اللغات المستخدمة: إنجليزية، أفريكانسية، زولو، خوسة، سوازية، نديبيلي، جنوب سوتو، شمال سوتو، تسونغة، تسوانة، فيندة.

■ نظام الحكم: جمهوري ورئيس الوزراء تابو مبيكي

■ تاريخ الاستقلال: ٣١ مايو ١٩٦١م.

■ المساحة: ١،٢١٩،٠٩كم مربع

■ عدد السكان حسب تعداد ١٩٩٦م: ٤٠،٥٨ مليون نسمة، منهم ٧٦،٧٪ أفارقة، ١٠،٩٪ من البيض، ٨،٩٪ من الملونين، ٢،٦ ٪ هنود وآسيويين، وتعداد النساء ٢١ مليون نسمة.



الأريكة التذكارية التي أهديت للزعيم

ليتزوج في المرة الثالثة من زوجته الحالية جراسا ميشيل وذلك في يوم ذكرى ميلاده الثمانين. وفي الغرفة أيضاً صورة كبيرة للزعيم، رسمتها وأهدتها إليه سيدة كندية بمناسبة خروجه من المعتقل، وصورة أخرى له في شبابه ملوحاً بقبضة يده اليمنى، ويبدو فيها قريب الشبه من أسطورة الملاكمة البطل العالمي محمد علي كلاي، خاصة وإن مانديلا كان ملاكماً أيضاً.

شهادات في المطبخ

على يسار الباب صالة مستطيلة وضيقة استخدمت كغرفة طعام، حيث وضعت فيها طاولة متوسطة الحجم وحولها ٦ كراس، وصوان خشبي صغير، أما في مواجهة الباب الخارجي وإلى اليسار قليلاً فيوجد مطبخ صغير مساحته حوالي ثلاثة أو أربعة أمتار مربعة، وفيه طباخ (بوتاجاز) صغير له أربع شعلات تعمل بالكهرباء، وطاولة وخزانة طعام خشبية، استخدم نصفها الأعلى لحفظ الأطباق وأواني الطبخ، ونصفها السفلي لحفظ باقي هذه الأواني مع ما قد يتوفر من مخزون لبعض المواد التموينية الأساسية، وقد علقت في المطبخ الشهادات الدراسية وشهادات التقدير التي حصل عليها مانديلا، واستأثرت الخزانة الخشبية بالجزء الأكبر من هذه الشهادات ومنها شهادات باسمه المنتحل حيث كان يتخفى عن أعين البوليس الذي كان يطلبه كزعيم بارز للمعارضة قبل أن يظفر به ويعتقله، وهذا الاسم كان: «خولي شاشا»، ومعناه «القبضة القوية» ويوجد عدد من الدروع والكؤوس والميداليات، وباب صغير يؤدي مباشرة إلى الشارع الخلفي لبيت الرجل، وهو الباب الذي كان يستخدمه للهروب وقت أن تدهم الشرطة المنزل.

نوم الزعيم

ومن المطبخ مباشرة إلى غرفة نوم بسيطة جداً عبارة عن سرير لا يتسع لأن يتمدد عليه مانديلا، حيث أن طول جسمه ١٩٠ سنتيمتراً، فكان عليه النوم ضاما قدميه -قدر الإمكان- إلى صدره، أو أن يتركهما تمتدان إلى ما بعد نهاية السرير بدون غطاء، ولنا أن نتصور كيف كان الزعيم ينام خاصة في فصل الشتاء وبرده القارس؟. وثمة صوان «دولاب» خشبي يحيط بالسرير ملتصق بالحائط، وأمامه مزينة خشبية أيضاً «تسريحة» عليها مرآة تستخدم لزينة المرأة وتسوية شعرها، وعلى اليمين خزانة خشبية متوسطة ارتفاعها حوالي المتر ونصف المتر، وقد وضعت عليها أربعة أزواج من الأحذية كان يستخدمها، ومعلق على الدولاب من يمين ويسار السرير قطعتان من لباس للنوم كان ينام فيهما، إحداهما حصل عليها كهدية عندما زار غانا ذات مرة، والحمام الوحيد بالبيت يوجد داخل غرفة النوم، وجدرانه مغطاة بالقيشاني صغير الحجم ذي اللون الأخضر الفاتح، وأرضيته مبلطة ببلاط بلون الكريمة، وبه حوض لغسيل الوجه على اليمين، وفي مقابله قاعدة المرحاض، ثم البانيو على اليسار.

من البيت إلى المجهول

وذات يوم من أيام العام ١٩٦٢ خرج المحامي الشاب نيلسون مانديلا من بيته في سويتو، ولم يذهب إلى عمله بل إلى المجهول، حيث السجن والاعتقال، كما لم يعد بعد ذلك اليوم إلى البيت إلا بعد ثمانية وعشرين عاماً، أي في العام ١٩٩٠ حيث امتدت فترة سجنه واعتقاله طوال هذه المدة، لكنه أبداً لم تلن له عريكة ولم تضعف له شوكة ولم يفقد يوما الأمل في حصوله وأمته على مرادهما في حياة حرة ومجتمع لا فرق فيه بين أبيض وملون إلا بالعمل والإنتاج.

وقد مكث مانديلا في بادئ الأمر لمدة تسع سنوات في السجن الكبير بالعاصمة جوهانسبرج، والذي ما زال موجوداً حتى اليوم، ولكنه تحول إلى مزار سياحي ليكون شاهداً على فترة مظلمة من تاريخ جنوب أفريقيا سادها الظلم والتمييز العنصري. ونظرة سريعة على هذا السجن تعطي زائره فكرة عن الظروف السيئة التي كان السجناء والمعتقلون السياسيون يعيشونها، لكنها تبقى ظروفاً جيدة عند مقارنتها بذلك السجن الرهيب الذي قضى به الرجل أكثر من ضعف هذه المدة أي تسعة عشر عاماً بالتمام والكمال.

سجن جوهانسبرج

تغيرت المعالم حول منطقة السجن الكبير في جوهانسبرج تغيراً كبيراً، لكن السجن نفسه بقي كما كان. مبان عن اليمين وفي الواجهة زنزانات السجناء الجماعية والفردية، ومبنى من طابقين على اليسار خصص الطابق العلوي منه لإدارة السجن، بينما السفلي فيه مخازن للعتاد والسلاح والتموين وخلافه، وفي الوسط الساحة الرئيسة التي كان يتم فيها استقبال النزلاء وتوزيعهم على الزنزانات، وكذلك تجميعهم في الصباح والمساء للتفتيش عليهم. وفي هذه الساحة مكان عام ومكشوف خصص لاستحمام السجناء وقضاء حاجتهم، وهو شيء مناف للآداب العامة وفيه انتهاك لخصوصية الفرد وحرمة جسده. وعلى الرغم من ذلك فإن السجناء الذين كان يسمح لهم باستخدام هذا المكان المسمى مجازاً بالحمامات كانوا أسعد حظاً من نزلاء الزنزانات الفردية المخصصة للحبس الانفرادي، حيث لا يسمح لنزلائها بمثل هذه الرفاهية! وكان عليهم قضاء حاجتهم في الزنزانة نفسها وفي أوعية خاصة لذلك يتم تفريغها مرتين في اليوم، ما يضيف إلى جو الزنزانة الرطب المظلم رائحة كريهة، حيث لا نوافذ ولا إضاءة.

أما الزنزانات الجماعية فتوجد إلى اليمين، وهي عنابر كبيرة نسبياً، ولكنها تتسع وتضيق وفقاً لمن فيها من نزلاء.. وهذا من باب التشبيه والمجاز فقط، فالمساحة هي نفسها في كل زنزانة، لكن أعداد النزلاء هي التي تزيد وتنقص، وينام الجميع على الأرض متجاورين ومتلاصقين، وقد صنعت نماذج للسجناء وهم نائمون من البطانيات التي كانت تصرف للسجناء بواقع ثلاث بطانيات لكل سجين. كما كان السجناء أنفسهم يقضون أوقات فراغهم ويسلون أنفسهم داخل هذه الزنزانات بصنع أشكال



نماذج للمساجين من البطانيات في سجن جوهانسبرج

ونماذج مختلفة من هذه البطانيات، فمثلاً هناك نموذجان للمدفعين الرابضين على بوابة السجن، صنعا من البطانيات وكانا يمثلان الأمل للسجناء، حيث يشاهدهما النزيل مرة واحدة عند دخوله السجن، ويظل يتمنى مشاهدتهما لمرة أخرى عند إطلاق سراحه. وقد ذكر لنا مرشد الجولة السياحية أن المهاتما غاندي كان نزيلاً لفترة من الفترات في هذا السجن أيضاً.

جزيرة الرعب

والمقصود هنا جزيرة روبن آيلاند الموجودة في المحيط الهندي، وهي التي قضى مانديلا ١٨ سنة كاملة من سنوات اعتقاله حبيساً في الزنزانة رقم (٥) داخل السجن الكبير الموجود فيها، وهي جزيرة الرعب بحق، وكانت كما يقال في الحكايات القديمة: «الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود»، وما أكثر الذين فقدوا وما أقل الذين خرجوا أحياء من هذه الجزيرة، ومن بين هؤلاء الناجين والمولودين من جديد كان مانديلا. ورغم قسوة هذه الجزيرة فإنها تعد واحدة من المعالم التي لا يجب أن تفوت زيارتها من تسنح له ظروفه بالوجود في جنوب أفريقيا، كما إنها أحد المواقع التراثية السبعة المسجلة في قائمة التراث العالمي لصالح جنوب أفريقيا، وهي المحطة الثالثة لنا في هذا الاستطلاع بإذن الله تعالى.

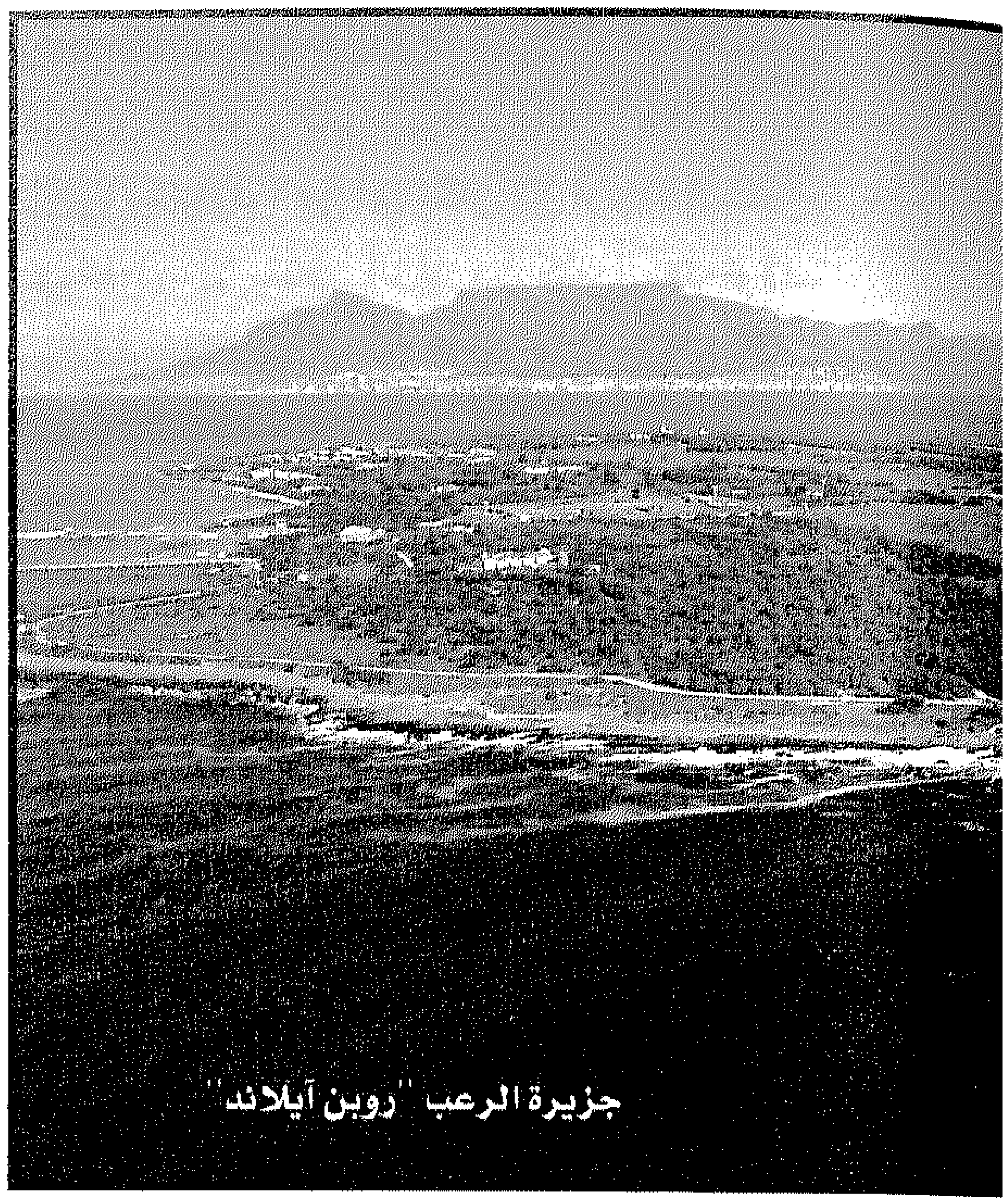
الطريق إلى روبن آيلاند

من بوابة نيلسون مانديلا البحرية بجوار ميدان الساعة الشهير الذي أنشئ عام ١٨٨٢م في مدينة كيب تاون العتيقة تبدأ الرحلة البحرية إلى جزيرة الرعب. الميدان يغص بالمارة ويمتلئ بالمطاعم والكافتيريات والمحلات والمقاهي، وتوجد في بعض جوانبه بعض الفرق الموسيقية يعزف فيها شباب من الجنسين الموسيقى التقليدية ويرقصون الرقصات الشعبية، وقد يوجد



عازفون فرادى يجود عليهم المارة والبحارة وزائرو الميدان والجزيرة ببعض النقود. ويشرف الميدان على مرسى صغير للمراكب، ويقطعه المحيط وتمر فيه بعض البواخر المتوسطة، حيث يتم رفع الجسر الموصل بين طرفيه خلال عبورها. وهذه البوابة أنشئت بعد خروج مانديلا من سجنه، ومولت كلفة بنائها بالكامل بواسطة التبرعات من أفراد وجهات داخل البلاد وخارجها، وكتبت أسماء المتبرعين على مدخل البوابة، ومن بينها عائلة عربية، وربما خليجية اسمها عائلة «الصقر».

في مواعيد محددة ينطلق باص بحري من طابقين يسع حوالي مائتي راكب، ليشق المحيط تاركاً الجبل من ورائه حاملاً أناساً من جميع الجنسيات تقريباً ليصل بعد إبحار يستمر لمدة ٤٥ دقيقة إلى الجزيرة، فينزل الركاب ويتم تقسيمهم إلى مجموعات، وتركب كل مجموعة في حافلة تأخذها في جولة داخل الجزيرة للتعرف على أهم معالمها، قبل أن تتوقف عند السجن المخيف بداخلها، وفي كل حافلة يوجد مرشد



جزيرة الرعب "روبن آيلاند"

سياحي يتولى شرح المعالم وسرد الأحداث والتواريخ بطريقة مميزة لا تخلو من الظرف والمرح.

القبة الخضراء

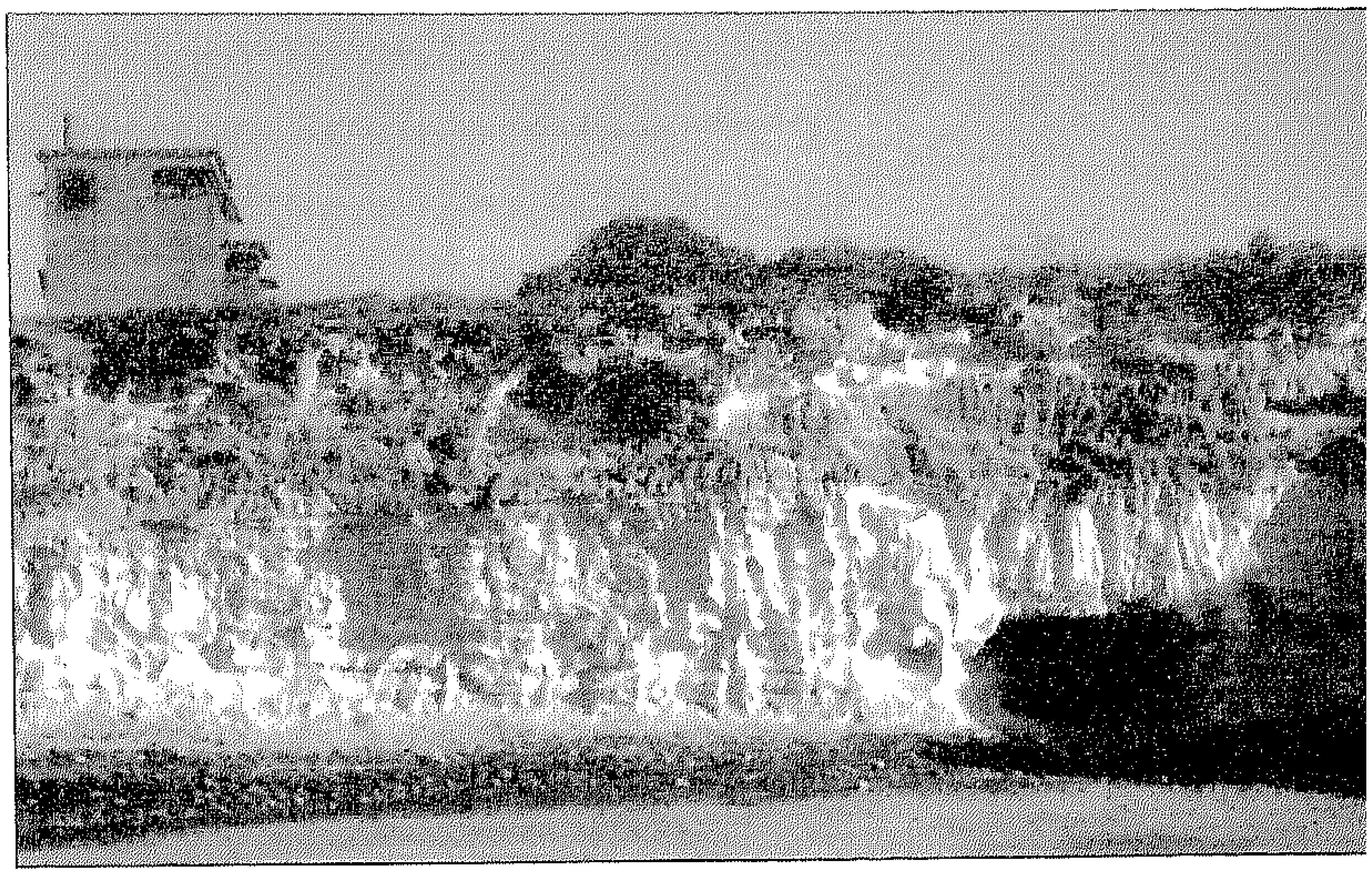
وبعد الدخول من بوابة خاصة تطالعك على اليمين زراعة وأشجار كثيفة ملتفة تنم عن عمر الجزيرة التي اكتشفها الألمان عام ١٦٥٢م، والتي تحيطها الأسلاك الشائكة من جميع الجهات، وتنتشر على جنباتها أبراج المراقبة والحراسة. وفي مدخل الجزيرة ارتفعت قبة خضراء على أربعة أعمدة، ظننا في بداية الأمر إنها قبة مسجد، لكن المرشد السياحي أخبرنا أنها مقبرة للمسلمين من نزلاء السجن ومعتقلي الجزيرة الذين قضوا على مر الأعوام، سواء من التعذيب أو من الظروف المناخية التي لم يتحملوها، أو من طول مدة الاعتقال، وهي ليست المقبرة الوحيدة في الجزيرة، فهناك أكثر من ألف وخمسمائة قبر لموتى من كل الأطياف، لكنهم جميعا لم يقضوا بسبب السجن أو فيه ولكن منهم من توفوا بعد إصابتهم بأمراض مجهولة وفشل الأطباء في معرفة تلك الأمراض، أو بأمراض معروفة مثل السل الرئوي ولكن فشل الأطباء في علاج المصابين بها فأوصوا بدفنهم في هذه البقعة النائية. كما يوجد قبر الكابتن ريتشارد وولف حاكم الجزيرة المتوفى عام ١٨٤١م.

البطريق وطيور أخرى

أما على يسار بوابة الجزيرة وعلى ساحل المحيط فيوجد تجمع كبير لطيور البطريق أو «البنجوين» بلونيها المميزين الأبيض والأسود إضافة إلى الكثير من الطيور الأخرى التي تصل إلى مائة وعشرين نوعاً، وكذلك الحيوانات مثل الغزلان والأرانب البرية، ووحيد القرن والكلاب البرية وغيرها، والتي قال مرشدنا السياحي إنها تصل إلى ثلاثمائة نوع تعيش كلها مع الطيور السابق ذكرها في أمان تام لأنه ممنوع قتلها أو صيدها أو التعرض لها، وأرجع السبب في كثرتها إلى ملايين الأشجار المزروعة في وعلى جانبي الجزيرة والتي كانت السبب في نضوب المياه العذبة منها.

أصغر سجن في العالم

على غير بعيد من مقبرة المسلمين يوجد أصغر سجن في العالم، ويتكون من زنزانة وحيدة، بنيت خصيصاً وبسرعة لسجن شخص يدعى روبرت سوبوكويا قضى فيها ثلاثين عاماً لم يسمح له خلالها بالكلام مع أي شخص غير سجانيه الذين تناوبوا عليه، وتوجد كنيسة صغيرة بنيت أمام قبر الكابتن ريتشارد وولف الذي سبق ذكره، ومدرسة صغيرة أيضاً كان يدرس فيها أبناء العاملين بالجزيرة، ومبنى القيادة الذي تحول إلى مبنى للضيافة الآن. ويؤدي الطريق المار أمام السجن إلى واد من الحجر الأبيض، كان السجناء ينحتونه ويقطعون منه الحجارة طوال اليوم، وكانوا يتعرضون خلال ذلك للحرارة



آخر مكان عمل به سجناء روبن آيلاند

والرطوبة ووهج الشمس وانعكاس أشعتها على أجسادهم الواهنة، ومؤذية لعيونهم في أشهر الصيف، وللرياح والعواصف والأعاصير الشديدة في الشتاء، وواضح أن ذلك الوادي كان آخر مكان عمل به السجناء قبل إلغاء سجن الجزيرة وتحويله إلى مزار سياحي، كما يوجد كهف أو تجويف طبيعي في منتصف أسفل الوادي كان السجناء يقضون فيه حاجتهم تحت الحراسة أيضاً على الرغم من استحالة أن يذهب أحد منهم أبعد من شاطئ الجزيرة.

إلى يمين ذلك الوادي يوجد سجن ثالث صغير، وكنيسة صغيرة أخرى مهجورة كانت قد بنيت في العام ١٧٥٢م، ثم يلف الطريق إلى وراء الوادي حيث توجد مبان لمعسكر وهمي أقيم خلال الحرب العالمية الأولى لتفادي قصف الطائرات لمنشآت الجزيرة الأخرى، وعلى الشاطئ أيضاً حطام لسفينة غرقت بالفعل بمن فيها جراء القصف، ويقوم بالقرب من الشاطئ فنار باللونين الأبيض والأحمر من تلك الأيام لكنه ما زال يعمل حتى الآن.

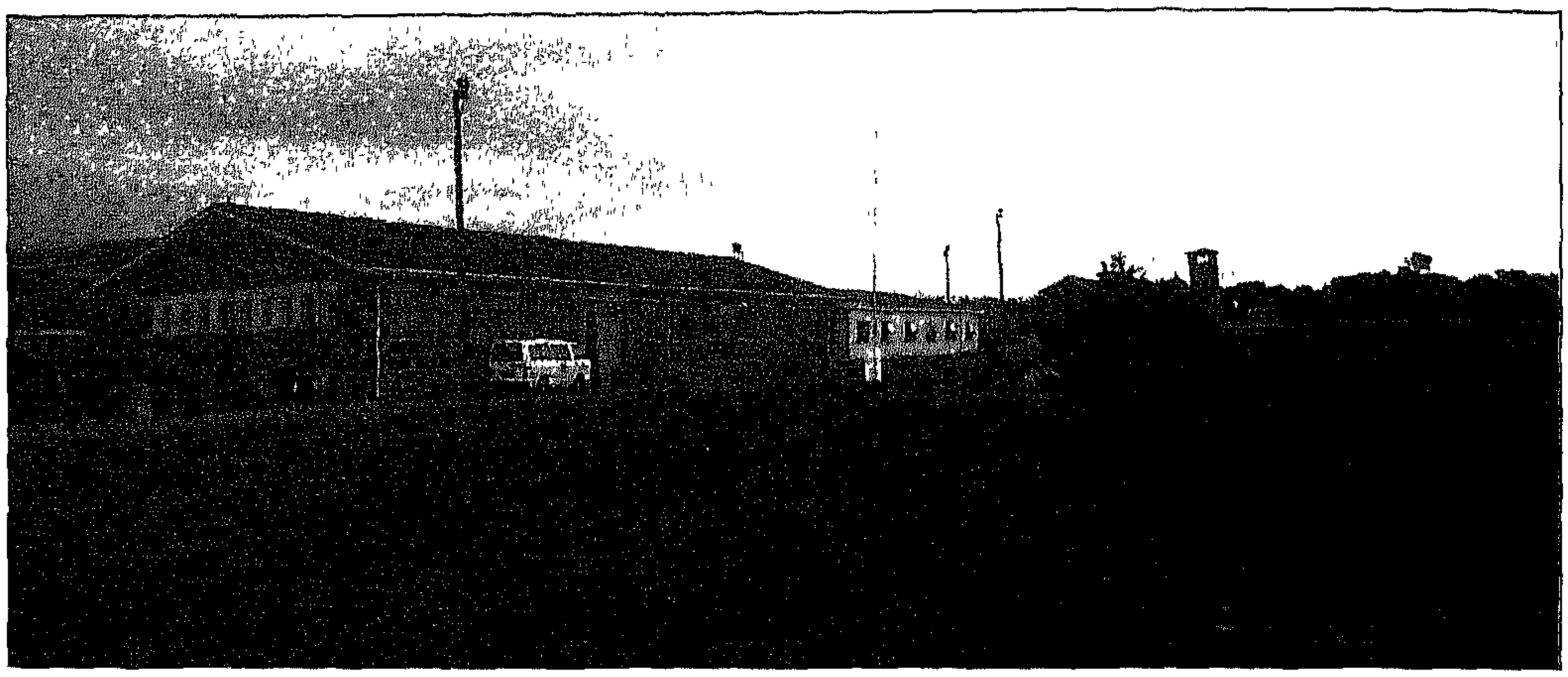
الزنزانة رقم (٥)

وتستدير الحافلة لتسير في اتجاه الخروج وبمحاذاة شاطئ الجزيرة لتتوقف عند السجن الكبير، ويقول المرشد السياحي: هنا لكم أن تنزلوا وتتجولوا في أي مكان من أرجاء السجن.

وبالفعل.. لا ينتظر الزائرون كثيراً بعد توقف الحافلة، فكلهم شوق لرؤية الزنزانة رقم (٥) وهي عبارة عن مترين طولاً ومتر واحد عرضاً، والتي قضى فيها مانديلا كل تلك السنوات، وكيف قضاها، فيتسابقون للدخول لكن المرشد يستوقفهم في البهو الداخلي للسجن ليرحب بهم ويشرح لهم كيف كان السجناء يقسمون إلى فئات ثلاث، تبعاً لدرجة خطورتهم وشدة عقوبتهم، وأخطر هؤلاء السجناء كانوا من الفئة (أ) ولم يكن يسمح لهم إلا بوجبة واحدة فقط في اليوم، وزائر واحد في كل زيارة، أما الفئتان (ب، ج) فكانتا أقل خطورة بالطبع. وفي مدخل البهو الداخلي للسجن يوجد مكتب التحسس، أو مكتب الأمن الذي يتحسس كل شيء في السجن ويبث عيون أفراده في كل الأرجاء، وتوجد كذلك «غرفة الدراسة» وكانت مخصصة لدراسة بعض السجناء السياسيين وبعض السجناء غير الخطرين من حسني السيرة والسلوك، حيث كان مسموحاً لأولئك بالدراسة. وقد استفاد مانديلا نفسه من هذه المزية، حيث كان ضمن الفئة «ج» فحصل على شهادة الماجستير في القانون، وألف كتابه الشهير «البحث عن الحرية» وهو في السجن.

المهرب الذي أصبح وزيراً

ومن الطريف أن مانديلا حين ألف كتابه ذاك، استطاع «ماك مها راتج» أحد زملائه المسجونين معه بطريقة ما تهريب مسودة الكتاب ونقلها بالكامل إلى خارج السجن والجزيرة، فيما يعد معجزة نظراً لأنظمة الحراسة والرقابة والتفتيش. ويكفي للتدليل على صعوبة تلك الإجراءات أن نعلم أن أي رسالة كانت تصل أحد المساجين فإنها تفتح وتفتش وتقرأ، وكذلك لو

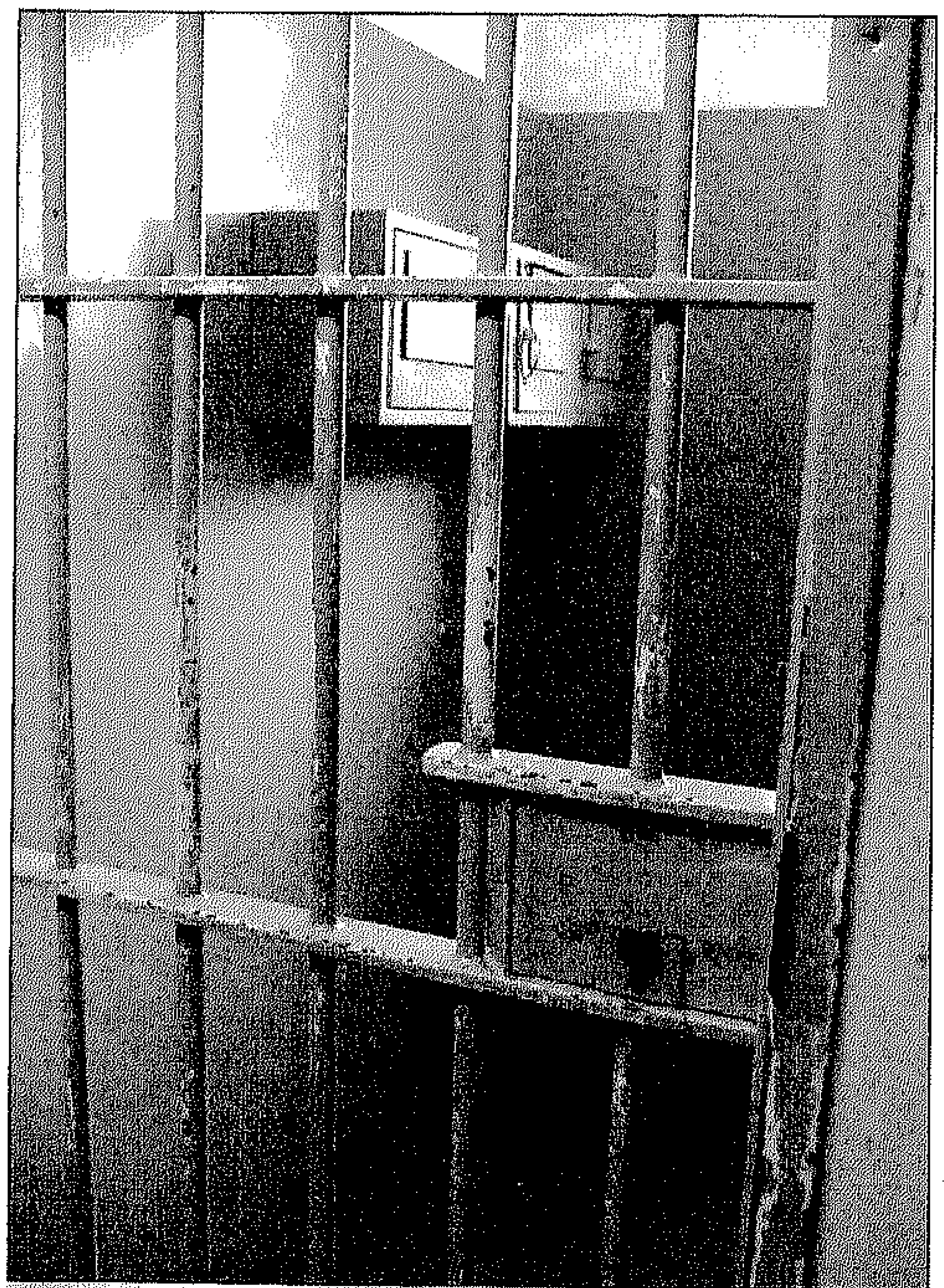


السجن الكبير من الخارج..

أراد المسجونون إرسال رسالة كانت تخضع أيضاً للإجراءات نفسها. والمفاجأة أنه عندما خرج مانديلا من السجن ودانت له رئاسة جنوب أفريقيا، وشكل أول حكومة من الملونين في عام ١٩٩٤م، تذكر صاحب السجن، وكافأه مكافأة عظيمة على تهريبه لأصول كتابه، وكانت المكافأة تعيين ذلك الصاحب وزيراً للنقل! ويبدو أن ذلك كان للمهارة التي أبداها في «نقل» مسودة الكتاب إلى خارج السجن.

ويتوقف الزائرون ملياً عند الزنزانة رقم (٥) لالتقاط الصور التذكارية، والنظر بداخلها فلا يجدون إلا مرتبة بالية وبطانيات ثلاث تفرش واحدة منها على المرتبة، وتستخدم الثانية كوسادة لوضع الرأس عليها عند النوم، فيما تستخدم الثالثة كغطاء في أيام الشتاء، وسطل (دلو) يقضي فيه السجين حاجته، ويحمله بنفسه إلى خارج الزنزانة مرتين في اليوم، قاطعاً مائتي متر ليعود به فارغاً ومعه وجبة الافطار في الصباح مرة، ووجبة الغذاء في الظهر مرة أخرى، وهذا كل ما في الأمر، حيث لا يسمح بفتح الزنزانة بعد الساعة الثالثة عصراً لأي سبب.

وفي الساحة الداخلية للسجن صورة كبيرة بالأبيض والأسود، وأخرى كبيرة أيضاً بالألوان، الصورتان لمجموعة من رفقاء مانديلا الذين كانوا معه في سنوات سجنه وكفاحه، الصورة



زنزانة الزعيم مانديلا رقم (٥)

الأولى التقطت عام ١٩٦٩م، والأخرى التقطت لأفراد المجموعة في العام ١٩٩٧م، بفارق زمني قدره ثمانية وعشرون عاماً، بعد أن عادوا إلى المكان نفسه بعد قرار تحويله إلى متحف في العام ١٩٩٦م. ومن المعروف أن مانديلا قد عاد بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية للجزيرة وللسجن والزنزانة نفسها ودشن قرار تحويل الجزيرة إلى متحف ومزار سياحي مهم ومصدر

من مصادر الدخل. كما توجد صورة للزعيم نيلسون مانديلا وهو يرتدي سترة (جاكيت) ويبدو في هندام حسن، على عكس المعتاد، والسبب من وراء ذلك، أن أجهزة الإعلام كانت في زيارة يوم التقاطها للسجن بعد أن شاع أمر مانديلا وذاع صيته في العالم كمقاوم ومناضل وطني. وفي هذه الساحة نفسها كان السجناء يتجمعون في الصباح الباكر من كل يوم وهم حفاة عراة سواء في حر الصيف أو برد الشتاء، ليتم توزيعهم على أماكن العمل بالسجن. وقد أدت ظروف الزنزانات من جهة وظروف السجن نفسه من جهة ثانية ثم الظروف المناخية في الجزيرة من جهة ثالثة إلى وفاة أعداد كبيرة من المسجونين، لكن إرادة الله ومشيئته اقتضت نجاة مانديلا من كل هذه الظروف ليصبح جزءاً من تاريخ جنوب أفريقيا، وأسطورة حية تعيش بيننا.

سنة حلوة يا «تاتا»

ويحلو لمواطني جنوب أفريقيا الآن مناداة مانديلا «تاتا» أي الجد، ولكن الغالبية تقول عنه مستر مانديلا في احترام وتقدير بالغين لشخصه ونضاله الذي دفع ثمنه ثمانية وعشرين عاماً من شبابه رهن الاعتقال بتهمة ما أشرفها وهي مقاومة التمييز العنصري والكفاح ضد العبودية طلباً للحرية والديمقراطية، حيث اعتقل وهو في الرابعة والخمسين من عمره، وخرج من المعتقل وهو في الثانية والسبعين، ليصبح أول رئيس أسود منتخب لجنوب أفريقيا، وقد اعتزل الحياة العامة في ١٩٩٩م بعد انتهاء فترة رئاسته، ليخلفه الرئيس ثابو مبيكي والذي كان زميلاً لمانديلا في كفاحه ضد التمييز العنصري. واحتفل مانديلا مؤخراً وتحديداً في ١٨ يوليو الماضي بعيد ميلاده الثامن والثمانين، قد وقفت جنوب أفريقيا لهذه المناسبة لتقول له في حب «سنة حلوة يا تاتا».

- ولد نيلسون روليلالا مانديلا في منطقة ترانسكاي في أفريقيا الجنوبية (١٨ تموز - يوليو ١٩١٨م). وكان والده رئيس قبيلة، وقد توفي عندما كان نيلسون لا يزال صغيراً، إلا أنه انتخب مكان والده، وبدأ إعداده لتولي المنصب.

- تلقى دروسه الابتدائية في مدرسة داخلية عام ١٩٣٠م، ثم بدأ الإعداد لنيل البكالوريوس من جامعة فورت هار. ولكنه فصل من الجامعة، مع رفيقه اوليفر تامبو عام ١٩٤٠م بتهمة الاشتراك في إضراب طلابي.

- عاش مانديلا فترة دراسية مضطربة وتنقل بين العديد من الجامعات، حتى أنه تابع دراسته بالمراسلة من مدينة جوهانسبرج، وحصل على الإجازة ثم تسجل لدراسة الحقوق في جامعة ويتواتر ساند.

- أحس مانديلا وهو يتابع دروسه الجامعية بمعاناة شعبه فانتمى إلى حزب «المجلس الوطني الأفريقي» المعارض للتمييز العنصري سنة ١٩٤٤م، وفي نفس السنة ساعد في إنشاء «اتحاد الشبيبة» التابع للحزب، وأشرف على إنجاز «خطة التحرك»، وهي بمثابة برنامج عمل لاتحاد الشبيبة، وقد تبناها الحزب سنة ١٩٤٩م.

- سنة ١٩٥٢م بدأ الحزب ما عرف بـ «حملة التحدي»، وكان مانديلا مشرفاً مباشراً على هذه الحملة، فجاب البلاد كلها محرضاً الناس على مقاومة قوانين التمييز العنصري، فصدر ضده حكم بالسجن مع عدم التنفيذ. ولكن الحكومة اتخذت قراراً بمنعه من مغادرة جوهانسبرج لمدة ستة أشهر. وقد أمضى تلك الفترة في إعداد «الخطة ميم»، وبموجبها تم تحويل فروع الحزب إلى خلايا للمقاومة السرية.

- عام ١٩٥٢م افتتح مانديلا مع رفيقه أوليفر تامبو أول مكتب محاماة للسود في جنوب أفريقيا، وخلال تلك السنة صار رئيس الحزب



في منطقة الترانسفال، ونائب الرئيس العام في جنوب أفريقيا كلها. وقد زادته ممارسة المحاماة عناداً وتصلباً في مواقفه، إذ سمحت له بالاطلاع مباشرة على المظالم التي كانت ترتكب ضد أبناء الشعب الضعفاء، وفي الوقت نفسه على فساد وانحياز السلطات التنفيذية والقضائية.

– قدمت نقابة المحامين اعتراضاً على السماح لمكتب مانديلا للمحاماة بالعمل، ولكن المحكمة العليا ردت الاعتراض. ولكن حياة مانديلا لم تعرف الهدوء منذ تلك الساعة. فبعد سلسلة من الضغوطات الرسمية والبوليسية اضطر مانديلا إلى الإعلان رسميا عن تخليه عن كافة مناصبه في الحزب، ولكن ذلك لم يمنع الحكومة من إدراج اسمه ضمن لائحة المتهمين بالخيانة العظمى في نهاية الخمسينيات.

– بعد مجزرة شاربفيل التي راح ضحيتها عدد كبير من السود عام ١٩٦٠م، وحظر كافة نشاطات حزب «المجلس الوطني الأفريقي»، اعتقل مانديلا حتى ١٩٦١م. وبعد الإفراج عنه قاد المقاومة السرية التي كانت تدعو إلى ضرورة التوافق على ميثاق وطني جديد يعطي السود حقوقهم السياسية.

– وفي العام نفسه أنشأ مانديلا وقاد ما عرف بالجناح العسكري للحزب الذي قام بأعمال تخريبية ضد مؤسسات حكومية واقتصادية.

– في ١٩٦٢م غادر مانديلا إلى الجزائر للتدرب العسكري ولترتيب دورات تدريبية لأفراد الجناح العسكري في الحزب.

– عند عودته إلى جنوب أفريقيا (١٩٦٢م) ألقي القبض عليه بتهمة مغادرة البلاد بطريقة غير قانونية، والتحريض على الإضرابات وأعمال العنف. وقد تولى الدفاع عن نفسه بنفسه، ولكن المحكمة أدانته بالتهم الموجهة إليه وحكمت عليه بالسجن مدة ٥ سنوات. وفيما هو يمضي عقوبته بدأت محاكمة «ريفونيا» التي ورد اسم مانديلا فيها، فحكم عليه بالسجن المؤبد بتهمة القيام بأعمال التخريب.

–

– وهكذا تحولت جزيرة «روبن» التي سجن فيها مانديلا إلى مركز للتعليم، وصار هو الرمز في سائر صفوف التربية السياسية التي انتشرت في طول البلاد وعرضها.

– لم يغير مانديلا مواقفه وهو داخل السجن، بل ثبت عليها كلها، وكان مصدرا لتقوية عزائم سواه من المسجونين وتشديد هممهم. وفي السبعينيات رفض عرضا بالإفراج عنه إذا قبل بأن يعود إلى قبيلته في رنسكاي وأن يخلد إلى الهدوء والسكينة. كما رفض عرضاً آخر بالإفراج عنه في الثمانينيات مقابل إعلانه رفض العنف.

– بعد الإفراج عنه يوم الأحد ١١ شباط فبراير ١٩٩٠م أعلن وقف الصراع المسلح وبدأ سلسلة مفاوضات أدت إلى إقرار دستور جديد في البرلمان في نهاية ١٩٩٣م، معتمدا مبدأ حكم الأكثرية وسامحا للسود بالتصويت. ولقد منح مانديلا جائزة نوبل والعديد من شهادات الشرف الجامعية (١٩٩٣م).

– جرت الانتخابات الأولى في ٢٧ نيسان (أبريل) ١٩٩٤م وأدت إلى فوز مانديلا فاقسم اليمين الدستورية في ١٠ أيار (مايو) متوليا الحكم. إلا انه أعلن عن رغبته في التقاعد عام (١٩٩٩م).■

في مسقط:

بيت فرنسا.. يعرض روائ

■ عبدالستار خليف

انتشرت الحضارة الإسلامية، مع حدود العالم الإسلامي غرباً حتى بحر الظلمات، وشرقاً حتى نهر الهندوس. وتميز العصر الإسلامي، من القرن السادس إلى العاشر الهجري بإدخال نماذج معمارية جديدة، مثل الإيوان، والقباب، هذه المباني المستوحى طرازها من شمال بلاد الرافدين بنيت بالحجر الكلسي الأملس، وكان السوريون ينحتونه بمهارة كبيرة لتشييد مبان معمارية تعد من أكثر المباني تميزاً في تاريخ العمارة الإسلامية. أما في المجال الفني خلال العصر العثماني فيتجلى ذوق السلاطين ورجال البلاط من خلال أعمال (نقش خانة) وورش الرسم وفن تجليد الكتب.

وكانت الزخرفة معيارا للتيارات الفنية في الدولة بأكملها، وينطبق ذلك على جميع أشكال الفنون. وعندما دخل المسلمون بلاد فارس وأخضعوا كامل الامبراطورية الساسانية منذ عام (٦٤٥ م) استفادوا من إرث الامبراطورية في مجالات عديدة، وعلى الأخص في المجال الفني. وعندما استقر العرب في الأندلس، وجدوا أسلوباً خاصاً يتميز به كل مافي الغرب الإسلامي، حيث غلبت على الزخرفة الأشكال الهندسية والفن الرفيع في النقش مع الرسم التجريدي للنبات مما أضفى طابعا فريداً على ذلك الإبداع.

كما توافد الفنانون من جميع أنحاء العالم الإسلامي إلى (سلطنة دلهي) منذ تأسيسها يشدهم كرم السلاطين الهنود، ومرت فترة خمد فيها دعم الأمراء للفنون بسبب أعمال السلب والنهب التي ارتكبتها جيوش تيمور لنك، ولكن هذا الدعم تعاظم من جديد في عهد كبار ملوك المغول الذين استضافوا في بلاطهم مشاهير الفنانين. وكان قدوم هؤلاء يبشر بأعمال فنية رائعة ظهرت فيها التأثيرات الخارجية من إيران الصفوية والامبراطورية العثمانية وكذلك أوروبا.

ومن مقتنيات متحف اللوفر عرض (بيت فرنسا) بمسقط مجموعة كبيرة من روائع الفنون الإسلامية، تعد من الأبرز في مجموعة المتحف نستعرضها فيمايلي:

إناء الطائر الملكي

هذا الإناء من الفخار الصوّاني، المطلي بزجاج شفاف معروف في العالم الإسلامي منذ القرن

ـــع من الفـن الإســلامي

العاشر الميلادي. وكان هذا النوع من الأواني يستخدم غالبا في الصيدليات. والانتفاخ الواضح حول فوهته يتيح ربطه بغطاء من الجلد أو غيره. والشكل الزخرفي الأساسي الذي يتكرر ثلاث مرات المتكون من عقاب برأسين، كان شائعاً في القرن الثالث عشر الميلادي، ولقد رسمت طيور العقاب بدقة داخل الخطوط. ويبرز الشكل بوضوح من خلال رشاقة الالتفافات الزخرفية التي تحيط أطرافه. ورسم هذا الطائر شائع منذ القرن الحادي عشر الميلادي في العالم الإسلامي وعند البيزنطيين، ورأسه المزدوج الذي يبدو وكأن نظراته تحيط بالعالم بأكمله يوحي بالسيادة المطلقة. ولكن في العالم الإسلامي، وخاصة البلاد التي كانت خاضعة لسلطة الأتراك، كانت للعقاب في نظرهم أيضا قوى سحرية. فهذا الطير الملكي القادر على التحليق إلى ارتفاعات كبيرة في السماء، مكلف بحراسة باب السماء الذي يخرج منه النور الإلهي، وفيه تدخل أرواح الأموات. وقد يوحي الشكل اللوزي على صدر العقاب بهذه (الخرافة). ووضوح الطائر الملكي لايطغى على جمال النقش الذي يتوج القطعة بأناقة. وتعد تقنية هذا الإناء نقطة بارزة في تاريخ الخزف، فهو يدل على صعوبة الحصول على لون أحمر حقيقي في ذلك العصر القديم، وإن صانع الخزف كان يريد إظهار جوف طيور العقاب بلمسة أكسيد حديد يولد لونا أحمر في حال تم التحكم بالحرق. والحصول على هذا اللون غير مضمون في زخرفة مطلية بزجاج شفاف.

أما في المناطق الأخرى، فاستعمال تقنية



طبق مزخرف بباقة زهر من مقتنيات متحف اللوفر بمسقط

haft rang هي الوحيدة التي تضمن الحصول على اللون الأحمر.

جرّة السعادة والعز والكرامة

تعود هذه الجرّة المنقوشة بالخط الكتابي إلى القرن الثاني عشر الميلادي، وتتكون من ثلاثة أجزاء، في منتصف الجرة نقش بديع بخط الثلث محاط من الأعلى والأسفل بحاشيتين عريضتين سوداويتي اللون، نقشت الكتابة باللون الأسود

على تزجيج سميك أعطاها مظهراً نافراً، فيما يعرف بأسلوب الصور الظليّة (أسلوب السلويت). وأول من اخترع الزخرفة على الزجاج تحت الطلاء الزجاجي هم خزافو سمرقند ونيسابور في القرن الثاني عشر الميلادي، إلا أن معامل (كاشان) في القرن نفسه، في إيران هي التي قامت بتطويرها وتحسينها. وقد كتب على الحاشية الوسطى للجرة عبارة (وفي السعادة والعز والكرامة) وتتفاعل قوة الخط مع الأحرف التي تظهر كأغصان ورق تتمايل بمرونة وأناقة. أما حرف العطف (و) الواقع بين كلمتي (السعادة) و(العز) فيأتي بلونه الأسود ليلتف على مقبض الجرة السوداء أيضا ويندمج معها، وبالطريقة نفسها تأتي ورقة منمقة لتقطع كلمة (الكرامة) في منتصفها.

كأس الأرنب البري

ينتمي هذا الكأس للنوع الذي تميزت به إنتاجات (تل مينيس) شمال سورية، في القرن الثاني عشر الميلادي. وتتباين فيه الزخرفة المرسومة بطلاء لامع زجاجي شفاف مع لون الخزف الأبيض. ويتوسط الشكل أرنب يجري وتحيط به زخارف نباتية، سيقانها معقودة تنتهي بسعفة نخل صغيرة الحجم وبأنصاف سعائف. ولقد أعيد حفر شكل الحيوان والسعائف بخطوط سريعة. وهذه القطعة تدخل ضمن مجموعة قطع مزخرفة بالشكل ذاته والتي تمثل حيواناً منفرداً تحيط به زخارف نباتية من الأغصان الملتفة، ويقال إنه عثر على الكأس في أنقاض منزل في (معرة النعمان) القريبة من حلب.

الكوب اللازوردي..

من خزف صلصالي، وزخرفة ذهبية مجففة ببطء، تحت طلاء زجاجي ملوّن شفاف. الموطن الأصلي لهذا الكوب إيران، وصنع في بداية القرن الرابع عشر الميلادي. وتوقف إنتاج الخزف في إيران بعد الغزو المغولي في بداية القرن الثالث عشر الميلادي وحتى منتصفه، وظهر نوع جديد من الزخرفة يدعى بـ (الاجفاردينا)، وتأتي التسمية من الكلمة الفارسية (لاجفارد) أي (اللازورد). إلا أن هذا الحجر الكريم والثمين لم يستعمل لاستخلاص الأصباغ واستبدل بالكوبالت الذي يستعمل في الطلاء الخزفي، ويعطي اللون الأزرق الغامق المحاكي للون الحجر اللازوردي، إذ تلصق على الخزف المجفف، بالحرق والمزجج بطبقة سميكة ذات لون أزرق شفاف، صفائح الذهب الرقيقة جداً والمقصوصة بأشكال مختلفة بواسطة الصلصال الصيني (باربوتين). ومن ثم تضاف الألوان، وتجفف القطعة مرة ثانية ببطء، على مراحل بطريقة الميناً haft rang التي كانت شائعة في إيران أيام السلاجقة منذ عام ١١٧٠ م. ويزخرف هذا النوع من القطع بأشكال هندسية، إذ ترسم القطعة بشكل شعاعي يتوسطها تقاطع مركزي. ويستخدم عدد محدود من الألوان مثل الأبيض والأسود والأحمر الترابي إضافة إلى استخدام الذهب. وفي هذه القطعة، يوجد أربعة أشكال شبه دائرية مزينة بأغصان بيضاء ذات أوراق ذهبية اللون لها شكل المعينات. أما في مركز القطعة، وعوضا عن التصليب المركزي، نجد دائرة نجمية ذات أضلاع ذهبية شبيهة بالقبة. وكانت الزخرفة بأشكال القباب شائعة في هذا النوع من الإنتاج، إلا أن تزيين القبة من الداخل نادر جداً. ويعود الثمن الباهظ لهذا النوع من الخزفيات إلى الاستخدام المكثف للذهب والكوبالت وإلى طريقة تجفيف القطعة على مراحل عدة. توجد أيضا نماذج عدة لهذا النوع من الزخرفة على شكل مربعات، وخصوصا في زخرفة القصر المغولي (تختي سليمان).

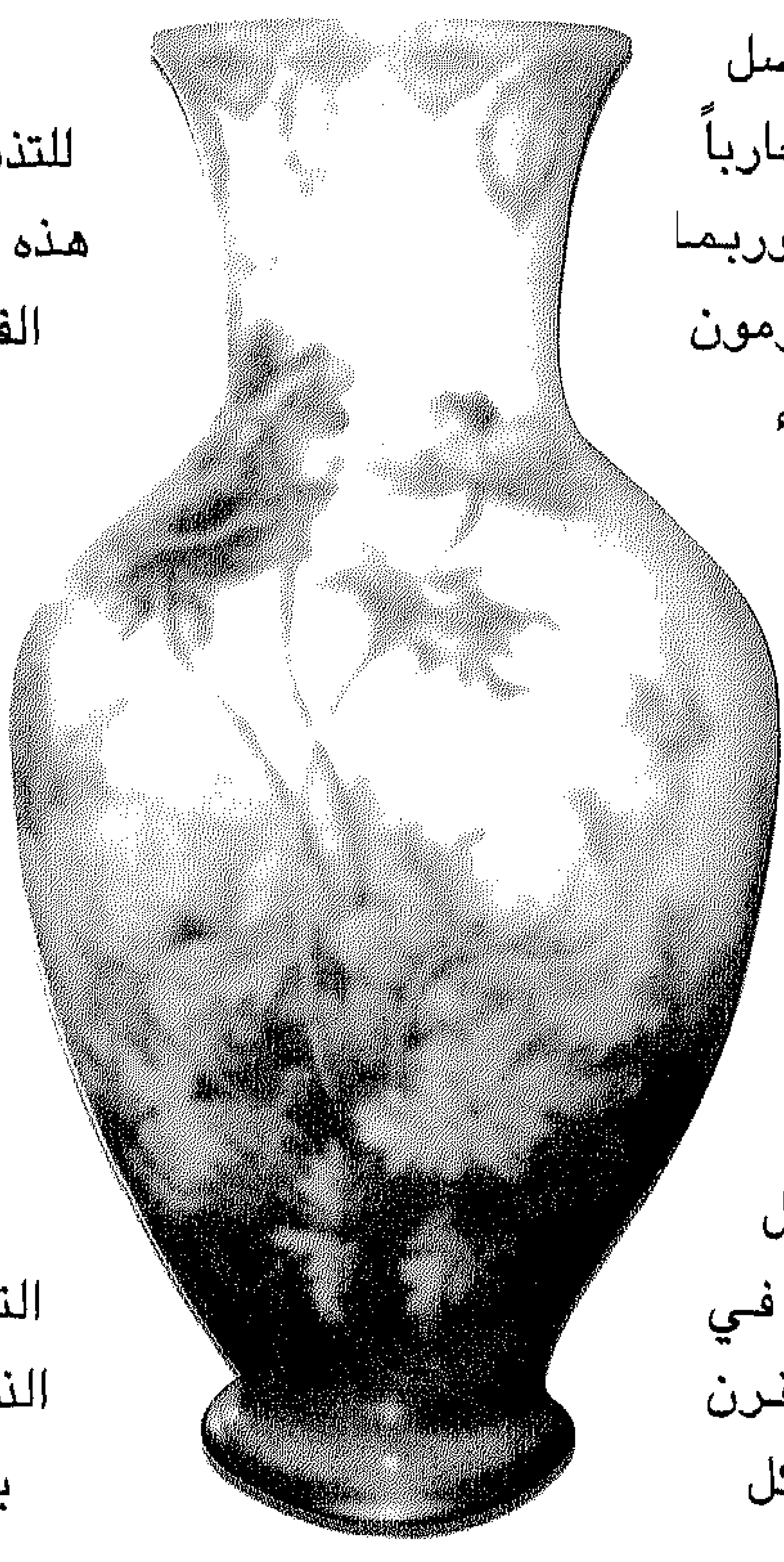
إبريق برأس حيوان

يثير إبريق غاروس الانتباه بقياسه وشكله الغليظ وبزخرفته، وهو يعطي انطباعاً عن قوة

ممزوجة بالألغاز، وهو يتحلى بجميع مواصفات الخزف الذي انتج في شمال غرب إيران في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. صنع هذا الإبريق من عجينة صلصالية ذات لون أحمر واضح وغطي بالطلاء الخزفي، وقد جرى رسم الشخص وشريط الأغصان الذي يزخرف كتف الإبريق بطريقة الحفر، حيث حفر الطلاء الخزفي جزئيا حول الشكل محدثاً بذلك انطباعاً بنحت نافر يزيد من حدة الطلاء الأخضر الذي يأتي ليملأ الحفر الذي ظهر فيه من جديد الصلصال محدثاً عتمة في لونه. ويثير زخرفة إبريق غاروس الاهتمام لأكثر من سبب، فهو ليس بتزيين يغطي كامل القطعة كما هو الحال في غالبية قطع غاروس، أما هنا فالأغصان تمتد على كتف القطعة وتزين ثوب الشخص الماثل فيها. ويتطابق هذا الشخص جيداً مع مميزات التمثيل البشري في قطع غاروس، حيث الغمازات التي تميز الخدود دائما، ويعتقد أن الشخص المنقوش على هذا الإبريق بشعره الكثيف الذي تصل خصلاته إلى الركبة قد يكون محارباً مشهراً فأسه وحاملاً درعه، وربما يكون بطلا، فالأشخاص المرسومون على قطع غاروس هم دائما أمراء أو محاربون، أو أمير على عرشه، ورجل على ظهر جمل أو على ظهر حصان، وربما كان ذلك إلهاماً مأخوذاً عن (الشاهنامه)، تلك الملحمة التي تتحدث عن إيران والتي كتبها (الفردوسي) زهاء السنة ألف ميلادية. استخدم هذا الشكل الذي له رأس حيوان سابقا في الخزفيات الإيرانية في القرن العاشر الميلادي. ويعود شكل هذا الإبريق الخزفي الذي له رأس حيوان إلى القطع المعدنية السابقة لها بقليل، والقطع المعاصرة لها المصنوعة في (خراسان) شرق إيران.

المزهرية..

إناء لحمل الزهورمن الخزف الصيني الصلب زخرف بالحرق البطيء. من مجموعة السلطان عبدالحميد الثاني، ومن بعده مجموعة أحفاده. صنع هذا الإناء عام (١٣١٢ هـ/ ١٨٩٤ م) في الأفران التي بنيت في حديقة قصر يلدز في إسطنبول، وهي تعد شاهداً على الفترة التي أكد فيها السلاطين العثمانيون انفتاحهم على الغرب، وهذا ما يدل عليه تاريخ القطعة الموجود على قاعدتها وعلامة النجمة والهلال التي تشير إلى مكان تصنيعها. ولايوجد في الباقة الكبيرة المرسومة على جوفها ما يدل على زخرفة الأزهار التقليدية لخزفيات (إزنيق) أو للخزف الصيني الذي طالما أعجب به سلاطين الباب العالي. وباستثناء الشكل المنتفخ للتذهيب حول العنق، فإن كل مافي هذه القطعة يذكّر بأفضل الخزف الفرنسي في ذلك العصر، سواء كان ذلك من خلال محاكاة الطبيعة في الرسم، أو التناسق المحكم بين مختلف أشكال شقائق النعمان، أو زهور زر الذهب، أو أزهار أذن الفار وأوراقها، أو عذوبة الألوان البارزة على خلفية رمادية بنفسجية شاحبة، أو رقة تدرج الألوان، أو الدقة في التصوير. هذا التماثل الكبير مع الذوق الأوروبي في ذلك العصر يرتبط بظروف نشوء الورشة، فقد كان فريق الخزافين يضم



المزهرية

عدداً من الفرنسيين الذين يعملون تحت إشراف (لويس دات) الذي قدم إلى إسطنبول مصطحبا معه جميع لوازمه، بمافيها النماذج، وذلك تلبية لطلب السلطان عبدالحميد الثاني (١٢٩٢هـ ١٨٧٦م / ١٣٢٦هـ - ١٩٠٩م) الذي جدد محاولات من سبقوه من السلاطين، لاستقدام إخصائيين غربيين في صناعة المنتجات الفاخرة لكي يستقروا على ضفاف البوسفور، حيث كان استيراد هذه المنتجات يستنزف ميزانية القصر. فتم بذلك إنشاء معمل الزجاج في (بيكوس) في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وبعده معمل الخزف الصيني في (إنجيرلي) في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. ومع الاستمرار بتخصيص مكان واسع لزخرفة الأزهار، غلبت على الزخرفة منذ السنة الأولى لنشاط معمل (يلدز) الأشكال التي توحي بالسلطة العثمانية. من هذه الأشكال (الطغراء) والدروع التذكارية، والشعارات، وصور السلاطين. كما انتشرت فيها الأشكال التي تشير إلى منجزات هذه السلطة مثل صور إسطنبول وضواحيها، ونظراً لميل السلطان لهذه الأشكال فقد تم إنتاج هذه القطع الخزفية. وكانت تقدم أحيانا كهدايا دبلوماسية. غير إن الغاية الأولى من صناعتها كانت لتزيين قصور الأمراء الذين اقتبسوا أكبر جزء من زخرفة قصورهم عن المباني الرسمية في أوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي. ولهذا كان من الضروري أن تتوافق أواني المائدة والساعات والزهريات والمحابر الخزفية مع زخارف الذهب والمرمر، وقطع الكريستال والرسوم الجدارية في القصور التي شيدها معماريون أوروبيون أو مؤهلون في أوروبا.

وقد أصبح (قصر يلدز) الذي اشتهر في الماضي بحدائقه الفخمة، في عصر زهور الخزامي في القرن الثامن عشر الميلادي المقر المفضل للسلطان عبدالحميد الثاني الذي أضاف إليه أجنحة جديدة للنساء ولاستقبال كبار الضيوف.

الإبريق الفيروزي

في القرن الثاني عشر الميلادي، كان بحوزة الحرفيين الإيرانيين تقنيتان متوارثتان؛ الأولى جاءت من بلاد مابين النهرين ومصر، وهي تقنية الخزف المكسي بالقصدير. والأخرى هي الإيرانية، وهي تقنية الخزف المطلي. ومع وصول الخزف الصيني (تانغ) والإقبال الذي تلقاه من الزبائن، كانت ردة فعل الحرفيين الإيرانيين سريعة وفعّالة. ومع ندرة مناجم الصلصال الأبيض الضروري لإنتاج الخزف، كان من الممكن أن تتيح لهم منافسة هذه المنتجات الأجنبية مباشرة، سارع الحرفيون الإيرانيون إلى البحث عن مواد جديدة وتقنيات تجفيف وتلوين مبتكرة، وقد أتاح لهم هذا اكتشاف العجينة الصلصالية، التي هي الأكثر صلابة ومرونة، في إنتاج أشكال أكثر أناقة وذوقاً. كما يشهد على ذلك هذا (الإبريق الفيروزي) من متحف اللوفر. وفي نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر الميلادي، كان المركز الأكثر شهرة لإنتاج العجينة الصلصالية تحت طلاء فيروزي وغير شفاف هو ذلك الموجود في مدينة (كاشان). وبسبب الطلب الكبير على هذه المادة تعددت مراكز الإنتاج، وفي بادئ الأمر تأثرت أشكال هذه المنتجات الجديدة بدرجة كبيرة بالقطع المستوردة من الصين، ولكن سرعان ماظهر العديد من الابتكارات الجديدة. وهذا ماينطبق على شكل هذا الإبريق الفيروزي ولونه. وقد انتشر هذا الشكل من الأباريق بشكل واسع في مجموعات التحف الإسلامية: بطن مضفّرة، وكتف منحن، وعنق اسطواني، وصنبور مستطيل، وقاعدة حلقية. كما يوجد أيضا شكلان لوزيان صغيران على طرفي العنق، وهي زخرفة شائعة لمثل تلك القطع، إذ سكبت الزخرفة في قالب قبل وضعها تحت طلاء. وقد تأثرت صناعة هذا الإبريق بالنماذج المعدنية للنصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي. واللون الفيروزي للإبريق كان

منتشراً أيضاً بشكل واسع في تلك الحقبة، وذلك لسببين. فمن جهة، كانت صناعة هذا اللون من أكسيد النحاس قليلة الكلفة، ومن جهة أخرى يرتبط هذا اللون بحجر الفيروز الذي يستخدم كحرز لخذي العين. وبهذا فإن هذا الإبريق من متحف اللوفر يعد نموذجا للمنتجات الفارسية في أواخر القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر الميلادي.

كأس الشعارات

سورية، دمشق، حوالي ١٢٧٠م. الموطن الأصلي لهذا الكأس الذي رسمت عليه شعارات. الكأس زجاج منفوخ: زخرفة ذهبية مطلية بالمينا. شكل هذا الكأس مشترك بين الكؤوس الزجاجية والمعدنية، ويتميز بقائمة طويلة واسعة منتفخة ومحيط غائر. وهو مطلي بالمينا الزرقاء الداكنة ومزين بشريط من الكتابة الذهبية تفصله ثلاث دوائر خلفيتها حمراء، ويحيط بها طلاء أحمر من الميناء، ورسمت في قعر الكأس بالتناوب ثلاث سمكات مذهبة وثلاثة ثعابين متشابكة، وتزيين قعر الكأس برسم دوارة أسماك. والثابت وجوده في مصر منذ العصر الفرعوني، يشير على الأرجح في العصور الوسطى إلى تأثير إيراني من القرن الرابع عشر. والعبارة المكتوبة هي: (المجد لمولانا السلطان العاهل، العالم، السلطان، العاهل، العالم). ولم يذكر اسمه، ولكن رمز إليه بشعاره المرسوم في الدوائر الثلاث والذي يمثل حيواناً أبيض اللون من فصيلة السنوريات يسير إلى اليسار وذنبه منتصب بانحناء شامخ وقائمته الأمامية اليمنى مرفوعة. ومن المعروف إن السلطان (الظاهر بيبرس) حكم مصر من (٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م إلى ٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م) ويعني اسمه التركي بالعربية (السيد الفهد).

مشكاة أزهار اللوتس

المشكاة من فنون الشرق الإسلامي، وهي عادة تستخدم لإضاءة المساجد، وتتميز هذه المشكاة عن غيرها في قدمها. والمشكاة التي كانت تحمل شعارا، كان هدفها تمجيد من أوصى عليها، لكنها تعد أولاً تسبيحاً لله تعالى، ولهذا السبب تتكرر في سورة النور، إلا أنها لم تنقش في المشكاوات المزينة بأزهار. عادة تنقسم المشكاة إلى ثلاثة أجزاء تتوزع عليها الزخرفة، الرقبة والبدن والقاعدة ولاشك أن هذا التقسيم كانت له أهمية كبرى وإلا لما تحمل الزجاجون هذا العمل الشاق. وهذه المشكاة مزينة بأزهار اللوتس.

طبق باقات الزنبق والقرنفل

الموطن الأصلي تركيا، إزنيق. وهو من الخزف الصواني، يتضمن زخرفة على طلاء خزفي مزجج. ويتضح في شكل وزخرفة هذا الطبق تأثير الخزفيات الصينية وذلك من خلال التجويفات في محيطه وزخارف الصخور والأمواج على حافته. لكنه يختلف في تزيين قعره وانحنائه بزخارف عثمانية أصيلة على شكل أزهار القرنفل والخزامي المرقطة تخرج من بين الأوراق. وزخارف النباتات متواجدة بكثرة في خزفيات إزنيق، ولكن أشكالها تطورت مع الزمن، وتحت تأثير (شاه قولي) رئيس (نقش خانة السلطاني) آنذاك، ظهر الطراز المعروف باسم (ساز) الذي يتضمن أحيانا زهورا خيالية عليها صدف أو تتكون من مزج عناصر مختلفة. ومعظم القطع العثمانية يعود تاريخها إلى العصر الذهبي في فترة نشوء الأسرة العثمانية. أما في المجال الفني فيعكس هذا الفن المراحل المختلفة لتشكيل الدولة العثمانية وعلاقاتها المتنوعة مع جيرانها المماليك والمغول، والتيموريين، والتركمان، والصفويين، والصينيين. أما صناعة الخزف فهي دون شك أحد أبرز عناصر الفن العثماني منذ الربع الأخير للقرن الخامس عشر الميلادي، حيث ظهرت في هذا الفن المهارة والتقنية، والتجديد الذي ولده تقاطع التيارات الفنية داخل الدولة مع تلك الآتية إليها من الخارج، أي من

إيران والصين.ويعكس الفن العثماني الفاخر منذ بداية تأثير (النقش خانة) وصورة الدولة العثمانية الموحدة القوية، كما تميز باستعمال مصطلحات فنية متجانسة الطابع وغنية بالمواد المستخدمة.

طبق غصن الغار

من الفخار الصلصالي، والزخرفة مرسومة على طلاء زجاجي كثيف. محيط الطبق مسطح بانحناء ونتوء خفيف، يستند إلى ثلاث قوائم أنبوبية الشكل. هذه القطعة مزينة بزخرفة لونها أزرق داكن، تتكون من غصن غار مرسوم بشكل متصل على محيط الطبق، وكتابة تقسم قعر الإناء أفقيا قسمين. وشكل القطعة يوحي بجميع خصائص الخزف العباسي، ولكن التحاليل التي أجريت عليه عام ١٩٧٩م في مختبر متاحف فرنسا، بينت خلو هذه القطعة من الطلاء الزجاجي المكون من القصدير والرصاص، لأن وجودهما ضروري للتأكد من انتماء القطعة للخزف العباسي، واستخدام غصن الغار شائع في زخرفة الخزف العباسي، حيث يوجد في الخزف المزخرف باللون الأزرق الناتج عن الكوبالت أو في القطع ذات البريق المعدني، وخلافا لذلك فإن خط الكتابة القوي الذي يقسم قعر الإناء أفقيا مبتكر تماما، أو بالأحرى ماهو شبيه بها حيث بقيت هذه الكتابة غير مقروءة. ولقد عثر في قطاع أبادانا في سوس على قطع من هذا النوع يعود تاريخها إلى فترة وجيزة تتوافق مع الربع الثالث من القرن التاسع الميلادي. ويعود موطنها الأصلي إلى مدينة سوس في إيران.

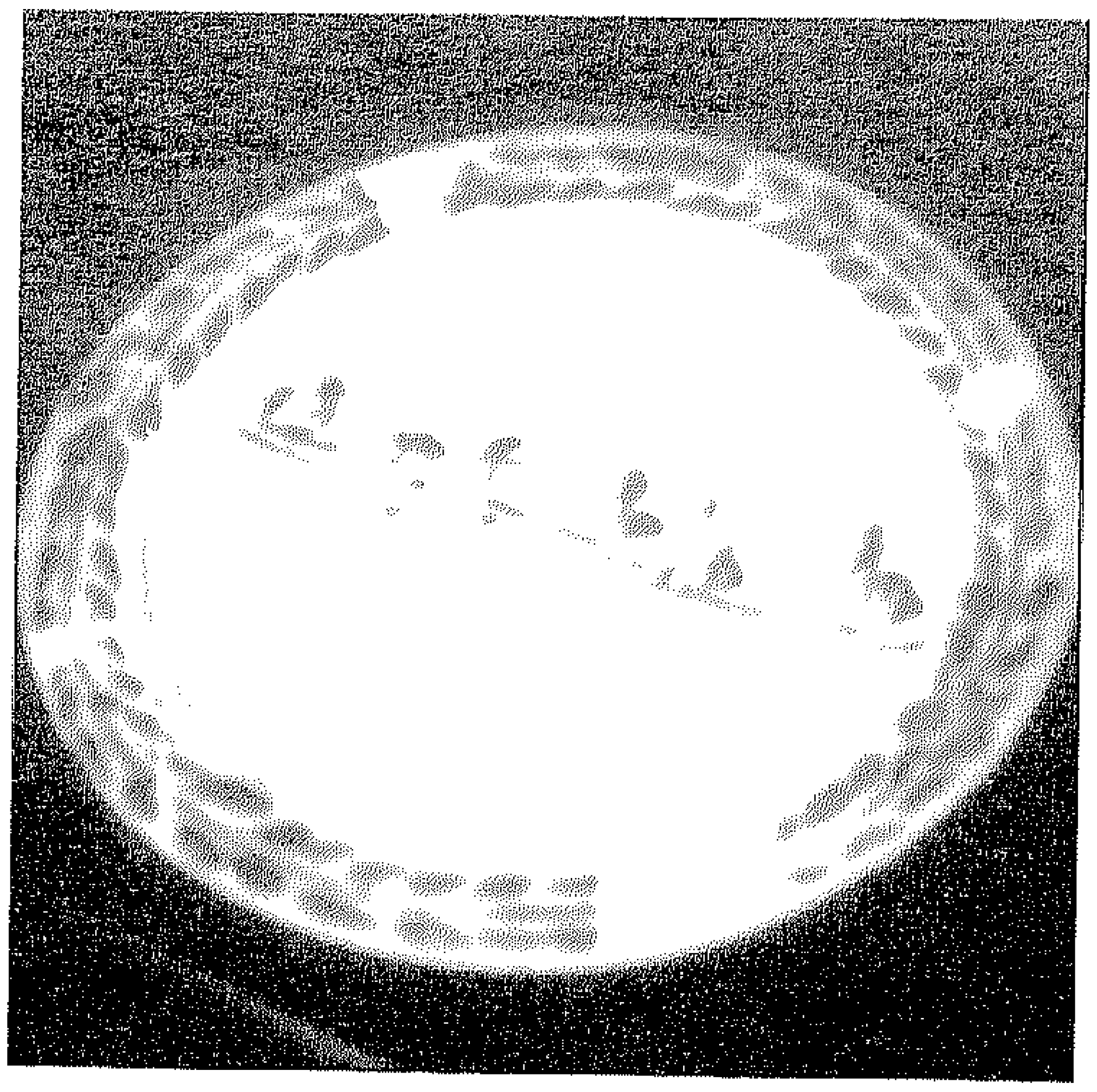
كأس شجرة العصافير..

من فنون الغرب الإسلامي، إسبانيا. والشجرة عبارة عن فرع نحيل الشكل في أعلاه ورقتان، وعلى جانبي الفرع ثلاثة عصافير مرسومة جانبياً وأجنحتها محفورة فوق الطلاء وفي جانبي القمة عصفوران يقفان على زخرفة نباتية. ومجموع العصافير على تلك الشجرة، ستة عشر عصفورا. والعناصر النباتية للزخرفة هي من النوع الموجود في الخزف البريق المنسوب صنعه إلى إسبانيا في القرن الثاني عشر الميلادي، ونظرا لصغر حجم الكأس فإن مظهره الجانبي نصف كروي وجوانبه غير منتفخة مما يترك مكانا أوسع للزخرفة في المغرب الإسلامي، حيث يوجد أسلوب خاص غلبت على الزخرفة الأشكال الهندسية والنقش والرسم التجريدي للنبات.

كوب الصقور الخمسة

موطنه الأصلي إيران في القرن الثاني عشر الميلادي. خزف صلصالي، زخرفة فوق طلاء حفر ماحولها، طلاء أخضر وبني تحت طلاء شفافي اللّون. كان هذا الكوب معروفاً قبل أن ينتمي إلى مجموعة متحف اللوفر بفترة لأنه عرض في باريس في معرض عام ١٩٣٨ م. وقد وصفت تلك القطعة في كاتالوج المعرض بطريقة موجزة قليلة الوضوح (قدح مينائي، أخضر اللون من الخارج، وبني اللون من الداخل، على أرضية سكرية اللون مع صبّات خضراء، رسم شريطي فيه صقور بين أغصان، يدور حول دائرة مركزية محاطة بكريات). وكان يفترض أن مصدر الكوب من إيران، وتاريخه يعود إلى القرن التاسع أو العاشر الميلادي. منحت هذه القطعة إلى متحف اللوفر في عام ١٩٥٥ م، فأعيد تقييمها من جديد. وقد أثبت التقييم الجديد مصدر القطعة محددا بشكل أدق بأنها من منطقة (زند جان)، وأن تاريخها على الأصح يعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي، إذ أن شكل هذا الكوب والرسوم الهندسية على حوافه الداخلية والخارجية وطريقة التقطيع والألوان المستعملة بالأعمال البيزنطية تنتمي للفترة نفسها. ومع ذلك فإن وجود الجوارح الخمسة وخصوصا طريقة زخرفة جوانحها تقترب أكثر من كوب فارسي عرض في سان فرانسيسكو في عام ١٩٣٧ م.

ومما يسمح بالجزم في تحديد المصدر هو الموضوع الذي يعالجه هذا العمل، كان الصقر، في مرحلة ما قبل الإسلام، رمزاً لرسول الشمس، فأعاد الفنان استخدام هذا الرمز عن طريق توزيع زخرفته، فالطيور تقع في موضع وسطي بين أشكال هندسية متمايلة تمتد على حواف الكوب وتذكر بالأرض، أما الدائرة المركزية مع كرياتها فتذكر بالشمس، واستطاع الفنان إعادة استعمال هذه الرموز القديمة، وسط الكوب، وبذلك تبدو هذه القطعة، وبطريقة متجانسة ومنسجمة ومفهومة من الجميع، عملا في تبجيل الخالق سبحانه.



طبق غصن الغار

كوب الرجل والمرأة..

يزين هذا الكوب من الداخل شخصان متشابهان بشكل نصفي وجها لوجه ومتقاربان. الكوب من الخزف الصلصالي، والزخرفة على الطلاء بالأصباغ تحت طلاء شفاف. يشبه هذا الكوب الخزفيات التي تسند إلى نمط (نيسابور)، تلك الخزفيات تقدم نوعا من الزخرفة تدعى عادة بالزخرفة المشكالية (كالدوسكوبّيك)، وهي مؤلفة من أشكال منمقة لمختلف الموضوعات (حيوانية، نباتية، كتابية) تتوزع بشكل دائري يلتف حول موضوع مركزي. ومن الصعب التأكيد إذا كان الشخصان يمثلان رجلا وامرأة؛ لأن الوجهين يتشابهان جدا. ولكن يتجلى الفرق الوحيد في طريقة تصفيف الشعر: الشخص الذي يقع على الطرف الأيسر رفع شعره إلى أعلى، بينما تراسلت خصلتان طويلتان وكثيفتان للشخص الذي يقع في الطرف الأيمن إلى منتصف ظهره. أما الطيور الموضوعة على الطرفين فهي تذكر ببعض الأشكال المنشورة في الموسوعة الإيرانية البدائية في الألفية الخامسة مثل خزفيات مدينة (سوسة). ويوجد أيضا زهور صغيرة منمقة مبعثرة على كامل سطح الكوب وشريط شبه نقشي يحيط بالكوب. والموطن الأصلي للكوب، إيران الشرقية. فلقد وقعت شرق إيران، في القرن العاشر الميلادي، تحت السيطرة السامانية التي حكمت خراسان وبلاد ماوراء النهر (من ٨١٩ إلى ١٠٠٥ م)، ومع أنها قدمت الولاء للخلفاء العباسيين، إلا أنها لم تتوقف عن الانفصال تدريجياً، حيث أمّنت الموارد الآتية من السيطرة على الطرق التي تعبرها القوافل إلى آسيا الوسطى ثراء تلك المملكة، فأصبحت العواصم الإقليمية، مثل سمرقند وميرف ونيسابور، إضافة إلى بخارى، التي أصبحت عاصمة البلاط، مراكز فكرية تتنافس مع عاصمة الخلافة العباسية، بغداد.

إناء سعائف النخيل

الباريللو، إناء على شكل أسطوانة مخنصرة مزخرف بسعائف النخيل. من فنون الشرق الإسلامي (مصر، سورية؛ في القرن الرابع عشر الميلادي). البدن ضيق والرقبة مستقيمة تنتهي بفوهة حافتها مقلوبة ومنتفخة. وكانت تصدر هذه القطع من الشرق الأدنى إلى روما في القرن الرابع عشر الميلادي لتستخدم كأوعية صيدلية. وكان هذا النموذج عريضاً في إيران في القرن الثاني عشر الميلادي، ولكن أصبح بدنه مختصراً عند الحرفيين في سورية.



تاج عمود مرمري

التاج المرمري

هو تاج عمود، مرمر جبسي، زخرفة منحوتة. ينتمي هذا التاج المرمري إلى آثار الرقة بسورية، النصف الثاني من القرن السابع الميلادي. وهوقصير وعريض ويشبه عمودا آخر من المرمر الجبسي أيضا في متحف الفن الإسلامي في برلين، وهناك عدة تيجان أعمدة معروفة من هذا النوع، من بينها تاج عمود مماثل له في متحف اللوفر، وآخر في دمشق، وفي نيويورك. وهذه القطع الثلاث تتناسق بعض الشيء مع النموذج الكورنثي. أما القطعة المعروضة هنا فهي تختلف عنها بصغر كأس التاج الذي لايتسع إلا لصف واحد من أنصاف السعائف العريضة. ولقد حلت أشكال نباتية هندسية مكان أوراق الأكانتس. والزوايا كبيرة وحجمها يلفت النظر : ورقة صغيرة مضلعة بستار إصبعي مروحي الشكل. وعصابة تاج العمود المرمري مزينة بتشبيك زهري، بينما زيّنت قاعدة كأس التاج بإفريز من الأوراق الصغيرة المنحنية. فالنموذج الكورنثي يختلف كثيرا عن هذه القطعة التي تعد بداية مرحلة انتقالية بينه وبين تيجان الأعمدة ذات الحد المائل والموجودة أيضا في الرقة. وربما كان تفسير وجود تيجان الأعمدة المنبثقة عن النوذج الكورنثي يعود إلى انتقال مقر الخلافة في عهد هارون الرشيد من بغداد إلى (الرقة) بين عام١٧٩هـ / ٧٨٦م وعام ١٩٢هـ / ٨٠٨م. وذلك عندما شيد الخليفة قصرا كبيرا في شمال المدينة.

لوح صورة المسجد النبوي الشريف

اللوح من الخزف الصواني، زخرفة على طبقة من طلاء خزفي، تحت طلاء زجاجي شفاف. الموطن الأصلي؛ تركيا، إزنيق. وتوجد على هذا اللوح آية قرآنية نقشت فوق مشهد المسجد النبوي الشريف، وهي الآية الكريمة: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) سورة الأحزاب، آية:٥٦، وفي الطرف الأيسر من المسجد، رسم قبر بشكل مستطيل مزين بشرائط زخارف متعرجة على نسق الرخام الملون الثمين الموجود في الأرض، وتعلو القبر قبة، وفي الوسط بناء صغير آخر مسقوف بقبة، تتعلّق فيه مشكاتان. وفي صحن المسجد المحاط بالقناطر، وعلى خلفية زرقاء، يبرز المنبر إلى اليمين، ونخلتان في الوسط، وأخيرا، هناك مسلتان تحفان بالجوانب. وتشرف على الصحن، المحاط بالرواق، أربع مآذن. والألواح الخزفية المعروفة والتي عليها صورة المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة قليلة، وأشكالها مستوحاة من رسوم المخطوطات. وليست هذه الرسوم دائما مطابقة للواقع، والخلاصة هي إن المعلومات لاتسمح بتحديد تاريخ هذه القطعة الفنية، ومع ترجيح الفترة مابين عام (٩٧٣ هـ / ١٥٦٦ م وعام ٩٨٩ هـ / ١٥٨٢ م) إذ قد يكون هذا اللوح مصنوعا في القرن السابع عشر الميلادي ومستمدا عن نموذج ضائع أو مجهول أنجز في القرن السادس عشر الميلادي. ■



الزَّعْفَران

أغلى الأفاويه ثمناً.. وأجملها لوناً

■ أ.د. محمد رضوان الداية

عرف العرب من قديم تطييب الطعام وأنواع الحلوى (تحسينها) بالزعفران، وبذلوا في ثمنه ما يليق به، فقد كان - ولا يزال- أغلى أنواع الأفاويه والمطيّبات، واتخذوا الزعفران صبغاً يلونون به ثيابهم.. ومن هنا قالوا في الطعام والحلوى والملابس وأنواع النسيج إنها مزعفرة، أي مطيبة به، أو ملونة.

وللزعفران اليوم نفس القيمة الاجتماعية والاقتصادية والجمالية التي كانت له بالأمس.. وقد نشر العرب الزعفران حيث كانوا من البلاد، وعلموا الناس الانتفاع به والاحتفاء، وأفادوهم زراعته، وجَنْيه ووجوه استعماله.

وإذا شاهدت يوماً سباقاً للهجن، ورأيت أحدهم يمسح وجه الهجين السابق فاعلم أنه يمسح الوجه (وجانباً من العنق) بالزعفران تقديراً له وتكريما.. أفلا يستحق السابق ذلك التكريم؟

(١)

كلمة الزعفران عربية قديمة أصيلة، وبسبب قدمها وعراقتها واحتفاء العرب بهذا النوع من النبات وجدت أسماء أخرى له. واستعمل العرب منها أفعالاً، وصنعوا لها جمعاً، وشبهوا بالزعفران، وميزوا لونه وهو نبات (وشعر) ولونه حين يصبغ به الطعام واللباس وغير ذلك.

يقال: زعفر الثوب أي صبغه بصبغ الزعفران، وزعفر الطعام والحلوى: أضاف الزعفران ليكسب نكهة، ولوناً، وطعماً، فهو مزعفر.

وأطلقوا المزعفر على الأسد الورد لأنه ورد اللون، وأطلقوه على نوع من الحلوى (الفالوذج).

وجمعوا الكلمة على زعافر، كما جمعوها على زعافير.

وسمى عمير بن الحباب فرسه باسم: الزعفران.

والزعافر حيّ (فرع) من سعد العشيرة.

وقالوا لكل ما صُبغ بالزعفران: مزعفر.

وكانت سادة العرب تصبغ عمائمها بالزعفران، في العصور القديمة.

(٢)

أدرج اللغوي الأندلسي ابن سيده مادة (الزعفران) تحت عنوان «النبات الذي يصطبغ به ويختضب» أي الذي يكون مادة في الطعام ويكون مادة للتلوين. وجمع إلى الزعفران عدداً من الأفاويه الأخرى مما يصطبغ به ويختضب كما رسم في عنوانه، ومن ذلك الورس، والعصفر، والقرطم، والكركم.. وغيرها.

وذكر للزعفران أسماء أخرى: فقال: «من أسمائه: الريهقان والعبير، والخلوق، والجادي، والجسد، والجساد، والقرمد.

والجادي نسبة إلى الجادية: موضع يكثر فيه الزعفران، منه قول ابن الرومي يصف حال من أصابه النزف:

ألحّ عليه النّزفُ حتى أحاله
إلى صُفرةِ الجاديّ عن حمرة الورد

وعرّف ابن سيده الزعفران بعبارة: الزعفران شعر معروف.

وصبيب الزعفران أصفر، فإن زيد في صبغه رهقته كدرة (تغير من الأصفر إلى ما هو أعلى من الصفرة) فإن أفرط فيه شاكل (شابه) السواد. ولون الزعفران أحمر.

ويقال في الفعل: ذرحت الزعفران (وغيره) في الماء إذا جعلت منه فيه شيئاً يسيراً.

ويقال: ثوب مفروك بالزعفران وغيره إذا صبغ به صبغاً شديداً.

ويقال: يده من الزعفران عطرة.

(٣)

وقد عرفت نبتة الزعفران «عند البابليين، واستعملت في الطب وفي تحضير التوابل، واستعملت في الصباغة، ولا يزال الزعفران يعد رأس الأفاويه.

واسم الزعفران قديم، ثابت في أصول اللغة العربية، وفي اللغات الأعرابية (المسماة خطأ باللغات السامية). والاسم الشائع في اللغات الأجنبية للزعفران وهو safron مأخوذ من الأصل العربي مباشرة، وينقصه في اللغات الأوروبية حرف العين الذي لا يتقنونه.

وقد جمع العرب بين الذهب والزعفران فقالوا فيهما الأصفران. كما قالوا أيضا: الأصفران: الورس والزعفران.

وراوحوا في صفة لون الزعفران بين الصفرة (التي تنتج عن معالجته بالماء في صورة سائل أصفر اللون) وبين الحمرة التي هي لون «شعر الزعفران» كما سماه اللغويون، قال أبو ذؤيب الهذلي:

وسرب تطلّى بالعبير كأنه
دماء ظباء بالنحور ذبيح!

وقال الأعشى

وتـــبـــرد بـــرد رداء الـــعـــرو
س رقّقت فـــيـــه الـــعـــبـــيـــرا

(٤)

والزعفران في التعريف العلمي «نبات من جنس كركوس crocus من فصيلة السوسنيات موطنه جبال الألب وأوروبا الجنوبية وحوض البحر الأبيض المتوسط، وآسية الغربية..

والزعفران ذو ساق قصيرة أنبوبية الشكل، وأوراق عشبية القوام، وزهرات صفراء أو بيضاء أو أرجوانية، يستخدم في تنكيه الطعام (إضافة نكهة) وتلوينه بالأصفر.

وأنواع الزعفران ٧٥ (خمسة وسبعون نوعاً) من أشهرها النوع الألبي، والزعفران الهولندي..

ولفظ crocus في الانجليزية مأخوذ عن أصل أعرابي (ما يقال فيه: أصل سامي) لعلة لفظة «الكركم» العربية.

وحين يذكر الزعفران فالمقصود عند الناس عادة ذلك الصبغ الأصفر الزاهي الألوان، والذي ينتج بتجفيف مياسم زهرة الزعفران وجزء من الأقلام من النبات المعروف بالزعفران السوسني.

وأربعة آلاف زهرة من الجَنى يمكن أن تنتج ٢٨ غراماً من الزعفران، وتحتوي مياسم الزعفران على مادة crocine، وهي المادة الصفراء الصابغة، وغرام واحد منها إذا أُذيب في لتر من الماء يعطيه اللون الأصفر الواضح.

ولا تقتصر فوائد الزعفران على تنكيه الطعام، واستخدامه صبغاً ملوناً فقد ذكر علماء النبات والأطباء المتخصصون فوائد علاجية دوائية من أنه «منشط للجسم»، ومنبه لطيف، ومضاد للبرد وآلام التهابات الأغشية المخاطية ومضاد للتشنجات، ومقوّ للمعدة، ومزيل للمغص.

وعلى ذكر الأصل العربي القديم لكلمة crocus وكونها في الراجح من كلمة الكركم (وقد سبقت في الفقرة (٢) من هذا المقال) فإن كلمة الزعفران عربية أصيلة، وانتقلت إلى لغات العالم على حالها تقريباً إلا «العين» لصعوبتها على غير العربي.

(٥)

واسم الزعفران في الأكادية: (a-zu-pi-ru) وورد اسمه في اللغة السومرية (sam A upiru) والكلمة العربية الفصيحة موصولة بأسلافها، وانظر قرابتها مع «أزوفيرو» والقلب المكاني في بعض الحروف. وشاع اسم safron وما يشبهه في اللغات الأجنبية وهي من العربية واضحة، ومن ذلك المركب المستخرج من الزعفران المعروف باسم sofrole.

(٦)

انتشرت كلمة الزعفران في مجالات واسعة، وصارت شائعة دائرة على الألسنة لكونها من الأفاويه التي تدخل في الأطعمة، وأنواع الحلوى وفي كون الزعفران مادة صبغ، ومادة يستفيد منها صانعو الأدوية وغيرهم.

و«الزعفراني» تقال في زارعه، وجانيه، وفي بائعه، ومن هنا اشتهرت النسبة إلى الزعفران هذه، وانتقلت من ألقاب الأشخاص وشهرتهم لتطلق على أماكن ومواضع كثر فيها زرع الزعفران، أو شاعت النسبة إلى واحد من الزعفرانية، على ما هو مألوف في الأساليب العربية. وأطلق «دير الزعفران» على أكثر من موضع ذكر ياقوت منها دير الزعفران

(ويسمى عمر





الزعفران) قرب جزيرة ابن عمر في أقصى حدود سورية عند التقائها بالعراق وتركيا.

وهناك (دير الزعفران) على الجانب المحاذي لمدينة نُصيبين، وكان يزرع ثمة نبات الزعفران.

وفي شعر المصعب الكاتب من قصيدة

عمرت بقاع دير الزعفران
بفتيان غطارفةٍ هِجَان

ولقبت مدينة بسطة (وهي من مدن الأندلس الجنوبية) بـ: دار الزعفران. لكثرة زراعة الزعفران هناك. ومعلوم أن العرب أول من نشر الزعفران في الأندلس (فانتقل الاهتمام به إلى أوروبا) ولقد طور الأندلسيون زراعته حتى اشتهرت بلادهم به، وزعفران الأندلس اليوم أعلى أنواع الزعفران وأغلاه ثمناً.

وورد اسم الزعفرانية: بلدة نسب إليها بعض العلماء. وفي القاهرة: قصر الزعفران.

(٧)

وقد روي في الأثر (كما في النهاية لابن الأثير الجزري) أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يتزعفر الرجل. وروى من حديث علي رضي الله عنه: لأن أطلي بجواء قدر أحب إلي من أن أطلي بالزعفران. (والمراد بجواء القدر ما يكون عليها من السواد).

وذكر الماوردي أن عبد الله بن سليمان رأى على بعض ثيابه أثر صفرة فأخذ من مداد الدواة وطلاه به ثم قال: «المداد بنا أحسن من الزعفران، وأنشد قول الشاعر:

إنما الزعفران عطر العذارى
ومداد الدوي عطر الرجال

وأخبر عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه الإمام أحمد قال: رآني الشافعي وأنا في مجلسه وعلى قميصي حبرٌ وأنا أخفيه فقال: لم تخفيه وتستره؟ إن الحبر في ثوب صاحب الحديث (المشتغل بعلوم الحديث) مثل الخلوق في ثوب العروس.

وأخذ هذا المعنى أبو عبد الله البلوي فقال:

مداد المحابر طيب الرجال
وطيب النساء من الزعفران
فهذا يليق بأثواب هذا
وهذا يليق بثوب الحصان.

والحصان المرأة العفيفة، أو المتزوجة.

(٨)

وكان الزعفران مادة للتشبيه عند الشعراء، كقول أحدهم يصف متنزهاً في موضع اسمه المطيرة:

سقياً ورعياً للمطيرة موضعاً
أنواره الخيري والمنثور
وترى البهار معانقاً لبنفسج
فكأن ذلك زائر ومزور
وكأن نرجسها عيون كحلت
بالزعفران جفونها الكافور

وقال كشاجم في صفة الرمان:

ولاح رماننا بزينته
بين صحيحٍ وبين مفتوت
من كل مصفرة مزعفرة
تفوق في الحسن كلّ منعوت
كأنها حقة فإن فتحت
فصرة من فصوص ياقوت

جمع الصفرة إلى الزعفرة، وبعضهما قريب من بعض، لكن شهرة الزعفران أعلى من شهرة غيره من الأفاويه والأصباغ الأخرى.■

فيض المشاعر



إشراف:
محمد إبراهيم الحديدي
m_alhadidi@hotmail.com

وش بك تنوح

وِش بِك تِنُوح أَنَا حِذَاكْ امْرَضْتنِي ... لاَحَلِكْ اللَّهْ يَاحَمَامْ الْقَاعِ

مِتْخَالِفْ الأَلْحَانْ جَنّ اعْوِيْلِهْ ... مِنْ رَاعِبِيْ أَوْ قَنْطِرِيْ وِقْفَاعِ

شَامْ الصِبَا عَنّي أَوْيَا مَنْ لا أَبَا ... حِثَايِثٍ مِنْهَا يَرَنْ أَدْمَاعِ

كَانَتْ مَلاَبِيسْ الشِبَابْ ضوافي ... خَذْهِنْ أَوْ عوضْني ابْبِرْد إِسْبَاعْ

صَابْ الْعِيونْ مَعْ السِنونْ أو غيرهنْ ... وايْلاَ بِغِيْتِهْ يَنْجِلِيْ مَا طَاعِ

والنَّاسْ يِخْتَالْ الهِلاَلْ إِلاَّ أَنَا ... مَا عِدْتْ أَعَرْفْ الْعَدِلْ مِلْمِدَّاعِ

ثُم الصَّلاة عَلَى النبي محمد ... عَدّ البذورْ أَوْ مَارمَى الزّرَاعِ

■ الماجدي بن ظاهر

النبطي الفصيح



■ سالم الزمر
salzomr@hotmail.com

هذه الصفحات تقف على الشعر النبطي ثم تغوص في أعماقه لالتقاط كلمات يظنها البعض عامية غير عربية لكثرة ما وجدوها في الشعر النبطي غير الفصيح أو لبعدهم وبعدنا عن الفصاحة وأساليبها وألفاظها، أو لأن بعض تلك الألفاظ مع فصاحتها ما عادت مستخدمة في الفصحى لكنها بقيت مما بقي من الفصاحة في لغتنا اليومية وأشعارنا غير الفصيحة.

ونحن هنا نقتفي آثار تلك الألفاظ في الشعر النبطي ونردها إلى أصلها الفصيح ولنا من ذلك فوائد عدة:

الأولى قراءة الكثير من الشعر النبطي ومعاودة مطالعته.

والثانية الغوص في قواميس العربية للبحث عن أصول تلك الألفاظ المتناثرة في الشعر النبطي.

والثالثة مطالعة الشعر العربي للبحث عن تلك الألفاظ في أدبنا العربي.

والرابعة إثبات أن العامية والشعر النبطي عربي لا ينفك عن أصله العربي.

والخامسة إعادة الفرع إلى أصله برد الألفاظ النبطية إلى أصلها العربي.

والسادسة تحقيق أمنية بعودتنا إلى لغتنا الفصحى وأدبنا العربي عن طريق البحث في الشعر النبطي عن الفصحى من ألفاظه.

والسابعة العمل على دراسة شعرنا النبطي دراسة لغوية مفيدة.

والثامنة ربط الأجيال القادمة بتراثنا الشعري النبطي بطريق بحث أدبي يحمل الطرافة والجهد العلمي معاً لإيصال ذلك التراث إلى الأجيال القادمة بجهد موثق موثوق به.

وأخيراً أقول لو شئنا أن نعدد الفوائد من ذلك لما انتهينا، لكنني أقف هنا للبحث وراء النبطي الفصيح في شعرنا النبطي.

سمط

قال الشيخ خليفة بن شخبوط آل نهيان رحمه الله

يا عود ريتك هايف
ومنك سمطت الأوراق
بونك مظل ونايف
وكل قلب لك مشتاق
تزهو بفرع وصنايف
ومقايل للعشاق
دايم مزار الطايف
والمنتهى الأشواق
خذ مني بالحلايف
وفوق العهد ميثاق
ما ارمس بك خلايف
لو يستوي لفراق
يلين تحط الصقايف
عشر على أطباق
يوم ركابي زلايف
وغويت في التحقاق
ما عيني في الخفايف
ولا أصاحب الصفاق

وقوله في البيت الأول يعني أيها الغصن رأيتك هايف أي ذابل ومنك قد سمطت أي سقطت الأوراق وسمط كلمة فصيحة تعني نتف ولقد خص بها نتف الصوف عن الشاة أو غيره لشيِّها وأكلها وربما استعاره أهل الامارات للمعنى القريب وهو سقوط الأوراق أو نتفها عن الغصن الذابل كما قال الشاعر.

جاء في لسان العرب: سَمَطَ الجَدْيَ والحَمَلَ يَسْمِطُه ويَسْمُطُه سَمْطاً، فهو مَسْموط وسَمِيطٌ: نتَفَ عنه الصوفَ ونظَّفه من الشعر بالماء الحارّ ليَشْوِيَه، وقيل: نتَف عنه الصوفَ بعد إدْخالِه في الماء الحارّ؛ الليث: إذا مُرِط عنه صُوفُه ثم شُوِي بإهابه فهو سَمِيطٌ.

*****

زلايف

جاء في البيت الثامن من الأبيات الآنفة للشيخ شخبوط كلمة زلايف في قوله يوم ركابي زلايف، وقوله زلايف أي قريبة، وركابه مطاياه، وزلاليف كلمة فصيحة تعني ذات المعنى في مراد الشاعر فلقد جاء في لسان العرب

الزَّلَفُ والزُّلْفةُ والزُّلْفَى: القُربةُ والدَّرَجة والمَنزلةُ. وفي التنزيل العزيز: (وما أموالُكم ولا أولادُكم بالتي تُقَرِّبكم عندنا زُلْفَى)؛ قال: هي اسم كأَنه قال بالتي تقرِّبكم عندنا ازْدِلافاً؛ وقول العجاج:

ناجٍ طَواه الأَيْنُ مِمّا وَجَفا
طَيَّ الليالي زُلَفاً فَزُلَفا

يقول: منزلةً بَعد منزلةٍ ودرجةً بعد درجةٍ.

وزَلَفَ إليه وازْدَلَفَ وتَزَلَّفَ: دنا منه؛ قال أَبو زبيد:

حتى إذا اعْصَوْصَبُوا، دون الرِّكابِ مَعاً
دنا تَزَلُّفَ ذِي هِدْمَيْنِ مَقْرُورِ

وأَزْلَفَ الشيءَ: قَرَّبَه. وفي التنزيل العزيز: وأُزْلِفَتِ الجنةُ للمتقين؛ أي قُرِّبَتْ.

*****

زفان

يقول الشاعر محمد بن حميد بن خميس بن جبران السويدي

يعل المطر يسقي سويحان
يدن يوم العالم رقود
هادي وفيه البرق زفان
ويعل الليالي كلها سعود
اتسيل به بطح ووديان
وينبت بفقع وخلط عنقود
ويسقي منازل دعج الأعيان
حلو المعنق ترف لخدود

وقوله في البيت الثاني يصف البرق بأنه زفان يعني له تحرك الزفن لسرعته وهو الرقص والزافن الراقص جاء في اللسان:

الزَّفْنُ: الرَّقْصُ، زَفَنَ يَزْفِنُ زَفْناً، وهو شبيه بالرقص وفي حديث فاطمة، عليها السلام: أنها كانت تَزْفِنُ للحَسن أي تُرَقِّصُه، وأَصل الزَّفْن اللعِب والدَّفْع، ومنه حديث عائشة، رضي الله عنها: قَدِمَ وفدُ الحبَشة فجعلوا يَزْفِنون ويلعبون أي يرقصون، ومنه حديث عبد الله بن عمرو: إن الله أَنزل الحق ليُذْهِب به الباطلَ ويُبْطِل به اللعبَ والزَّفْنَ والزَّمَّاراتِ والمَزاهِرَ والكِنَّارات؛ قال ابن

الأثير: ساق هذه الألفاظ سياقاً واحداً. والزِّفْن والزَّفْن، بلغة عُمان كلاهما: ظُلَّة يتخذونها فوق سُطوحهم تقيهم وَمَدَ البحر أي حَرَّه ونداه. وجاء كذلك. ويقال للرقَّاص زَفّان.

*****

شــوح

وقال شاعرنا محمد بن حميد بن خميس بن جبران السويدي أيضاً:

سـمـعـت طـيـر يـسـيـع الـحـام
وقــظــنـيـه والـعـالـم اطـيـوح
يـسـيـع ونـا اسـيـع والـفـجـر بـان
وخـلـي دمـوع عـيـونـي انـضـوح
الـحـب مـا تـريـح بـه أوزان
راعـيـه لـي مـن صـاح مـسـموح
افـعـل جـمـيـل وخـيـر واحـسـان
يـا لـلـه عـسـاك اتـنـال مـربـوح
هـات الـقـلـم واكـتـب يـاسـلـطـان
مـنـي سـلام الـروح بـالـروح
لاتـكـشـفـه مـا بـيـن عـدوان
أهـل الـحـسـد تـاخـذك بـالـشـوح
إمـفـرجـيـن امـبـيـن لانـسـان
تـاريـخـهـم فـي الـصـحـف والـلـوح

وقوله في البيت قبل الأخير تأخذك بالشوح أي تأخذك بالصد أو بالإعراض، فأهل الامارات يقولون فلان يشوح عن فلان أي يصد ويعرض عنه، وجاء في اللسان في هذا المعنى وأشاحَ بوجهه عن الشيء: نَحَّاه. وفي صفته، صلى الله عليه وسلم، إذا غَضِبَ أَعْرَضَ وأشاحَ؛ وقال ابن الأعرابي: أعرض بوجهه وأشاحَ أي جَدَّ في الإعراض.

*****

ذعــذع

قال الشاعر محمد بن راشد المطروشي:

يـا هـلا بـه ثـم هـلا بـه ثـم هـلايـا
مـرحـبـا ثـم مـرحـبـا ثـم حـيـه
عـد مـا الـسـحـاب ونـجـوم الـسـمـايـا
وعـد مـا نـسـنـاس شـرتـا الـمـطـلـعـيـه
أو عـدد مـا ذر ذعـذاع الـصـبـايـا
أو عـدد حـجـاج لـلـبـيـت اسـفـريـه
أو عـدد لاشـجـار وطـيـور الـقـطـايـا
أو عـدد مـا راح رايـح صـوب حـيـه
نـظـم بـن يـوسـف ولـد راعـي الـحـمـايـا
مـن قـروم أخـيـار مـن أهـل الـحـمـيـه
أسـتـمـع لـلـنـظـم ودمـوعـي جـرايـا
قـلـت واعـزاه مـن نـفـس شـجـيـه

وقوله في البيت الثالث ذعـذاع الصبايا أي ريح الصبا التي تهب وتحك الشجر وهي عربية أصيلة، جاء في اللسان وذَعذعتِ الريحُ الشجر: حركته تحريكاً شديداً.

وذَعذعت الريح التراب: فَرَّقته وذَرَّتْه وسَفَتْه؛ كل ذلك معناه واحد؛ قال النابغة:

غَشِيتُ لها مَنازلَ مُقْوِياتٍ
تُذَعْذِعُها مُذَعْذِعَةٌ حَنونُ

*****

تبهنس

قال راشد الخضر:

ظبي الوطن يمشي دلع بس
بثويب وخمار على الراس
لحظه سحر والا مسدس
والا السطيح بجفن حراس
والصبح من ثغره تنفس
واعذب رضاب مبين للعاس
في مهجتي حبه تبهنس
واشغلت به عن جملة الناس

وقوله في البيت الرابع تبهنس تعني في العامية أن الانسان نال شيئاً طيباً استمتع به ولها أصل عربي بمعنى تبختر، وربما أن المعنى قريب من المراد عند أهل الامارات، لأن الذي ينال مراده يمشي أحيانا متبختراً لفرحه بما ينال، ولقد جاء في اللسان البَهْنَسى: التبختر، وهو البَهْنَسَةُ. والأسد يُبَهْنِسُ في مشيه ويَتَبَهْنَسُ أي يتبختر؛ خص بعضهم به الأسد وعم بعضهم به. وجَمَل بَهْنَسٌ وبُهانِسٌ: ذَلُولٌ.

*****

اعفر

قال الجمري:

مرحبا بموّرد الخد اللبيب
لي عويده مثل عود الخيزران
بو يدايل ينحشن من كل طيب
دهن عود وعنبري مع زعفران
والحياي اسمر ومقرونٍ عجيب
مع جبينٍ كالبدر بالحسن زان
والوجه شمسٍ تنحّت للمغيب
قبل تسلم واصفرار الشمس بان
أدعج العينين له شكلٍ غريب
أعفر الوجنات ترفاتٍ حسان

قال الجمري في البيت الأخير يصف خد من يمدح وأوجانها بأنها عفراء، أو هي ظبي أعفر، يريد أنها محمرة الوجنات مشربة ببياض، وهي فصيحة لها ذات المعنى ولقد جاء في اللسان:

والعُفْرة: غُبْرة في حُمْرة، عَفِرَ عَفَراً، وهو أَعْفَرُ. والأَعْفَر من الظباء: الذي تَعْلو بياضَه حُمْرَةٌ، وقيل: الأَعْفَرُ منها الذي في سَراتِهِ حُمْرةٌ وأَقرابُه بِيضٌ؛ قال أَبو زيد: من الظباء العُفْر، وقيل: هي التي تسكن القفافَ وصلابة الأَرض. وهي حُمْر، والعُفْر من الظباء: التي تعلو بياضَها حمرة، قِصار الأَعناق، وهي أَضعف الظباء عَدْواً؛ قال الكميت:

وكنّا إذا جَبّارُ قومٍ أَرادَنا
بكَيْدٍ، حَمَلْناه على قَرْنِ أَعْفَرا ■

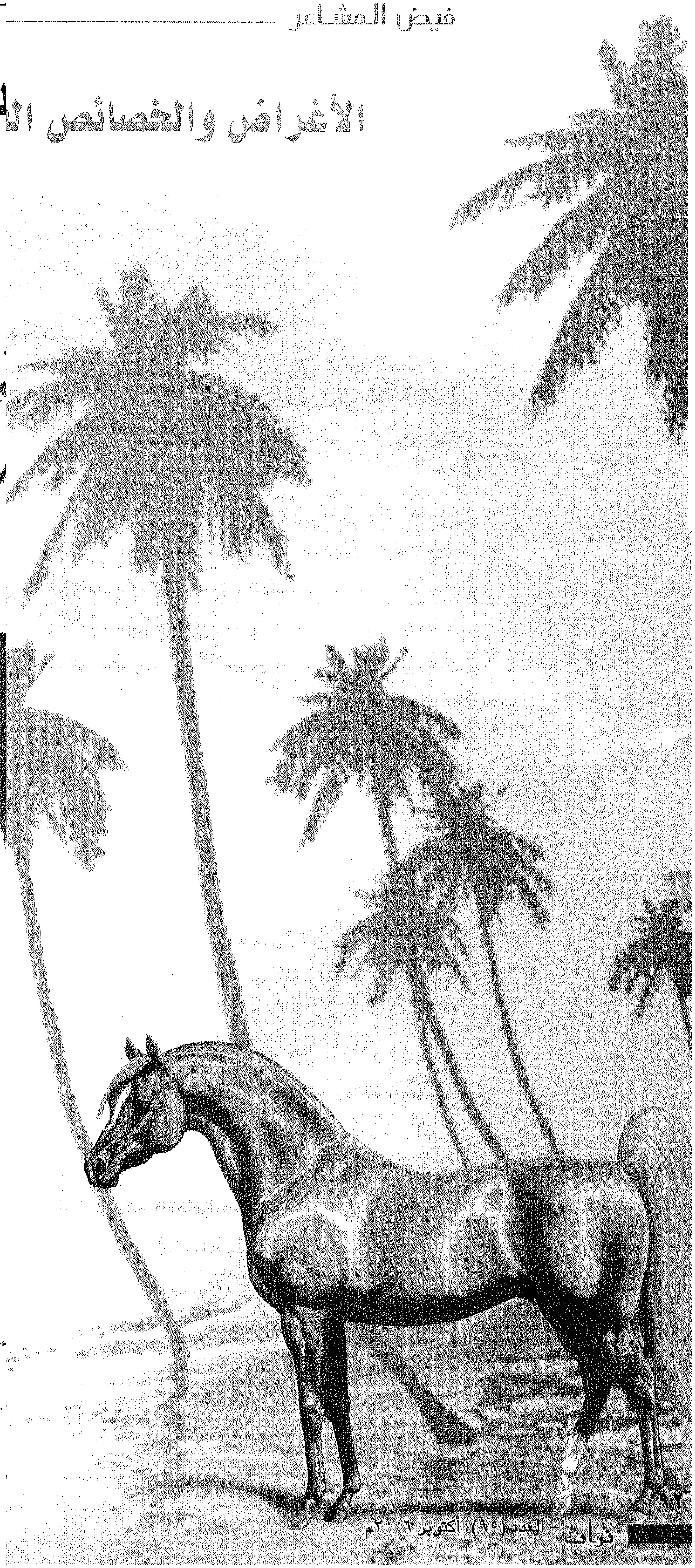
الأغراض والخصائص الفنية واللغوية في شعر:

عبد الرحمن ابن حسان الأنصاري

■ الدكتور محمد الحجوي*

كان الشعر في العصر الجاهلي ديواناً للعرب، سجلوا فيه أيامهم وأنسابهم وآمالهم، ومنتهى ما كانوا يطمحون إليه في السلم والحرب، و لم يتوقف الشعر عن هذا الدور بمجيء الإسلام وانشغال المسلمين بالدعوة ونشر تعاليم الدين، بل ظل الشعراء ينظمون ويعنون بشعرهم من ناحية الجودة الفنية مثل الجاهليين. وقد اعتبر الأصمعي، وهو أحد علماء اللغة والشعر، هذه المرحلة فترة ضعف من الناحية الفنية، لأن الشعر - في رأيه - وهو نقيض ما دعا إليه الإسلام من تسامح ومثل وفضائل. قال: «طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير، من مراثي النبي صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم، لان شعره».

* كلية الآداب - القنيطرة - المغرب



هذا الرأي فيه تعميم شامل لضعف أغراض الشعر، وإن كان الأصمعي قد حدد غرضاً معيناً هو الرثاء، وشاعراً هو حسان. لقد جعل الأصمعي الجودة الفنية في الشعر، والمقصود بها هنا التصوير البديع، والمعاني الطريفة، والصياغة المحكمة، في أبواب الشر، أي في الحروب والفتن والهجاء المقذع. أما أبواب الخير وما تتضمن من فضائل ومثل وأخلاق فهي لا تصلح للشعر من ناحية الجودة الفنية. وهذا الرأي يرد من عدة اعتبارات، لأن شعر المراثي الذي جعله الأصمعي دليلاً على ضعف شعر حسان خاصة، غرض لا علاقة له بالخير أو الشر، لأنه تعبير عن شدة الألم من فقد عزيز أو قريب، إنه إحساس وشعور يخلوان من التكلف والتصنع، وهو من الأغراض القديمة في الشعر العربي، وقد جاءت قصائد بعض الشعراء فيه مثالاً للجودة الفنية، وصدق العواطف، وشدة لوعة الفراق، مثل أشعار الخنساء. وكذلك الأغراض التي تدخل في باب الهجاء لم تتوقف، فقد وُجدت أسباب ودواع لإبقائها، عقدية وسياسية وحزبية وقبلية؛ ففي مرحلة الدعوة الإسلامية شجع الرسول صلى الله عليه وسلم شعراءه للرد على شعراء قريش الذين آذوه بسيوفهم وألسنتهم الحادة. ذكر أصحاب السير أن النبي صلى الله عليه وسلم «لما قدم المدينة، تناولته قريش بالهجاء، فقال لعبد الله بن رواحة: ردّ عني، فذهب في قديمهم وأولهم، فلم يصنع في الهجاء شيئاً، فأمر كعب بن مالك، فذكر الحرب كقوله:

نصل السيوف إذا قصرنا بخطونا
قدما، ونلحقها إذا لم تلحق

فلم يصنع في الهجاء شيئاً، فدعا حسان بن ثابت فقال: أهجهم، وائت أبا بكر يخبرك، أي بمعائب القوم».

والهجاء الذي أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم ليس هجاء الفحش بدليل قوله لحسان: «أُهجهم كأنك تنضحهم بالنبل»، والنضح بالنبل هو رشق القوم رشقاً متفرقاً، وهي دعوة إلى تجنب الفحش، وهذا من أدب الإسلام. فكان حسان بن ثابت شاعر الهجاء، وشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، يرد على أعدائه بسهام مصمية «وبحق سمّي حسان شاعر الإسلام ورسوله الكريم، فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب، رامياً لهم جميعاً بسهام مصمية».

وسيصل هذا الغرض إلى ذروته في معاني الإقذاع والفحش في عصر بني أمية عند شعراء النقائض، جرير والفرزدق.

في هذه البيئة الإسلامية، بيئة الشعر والفصاحة والبلاغة، ونفحات تعاليم الإسلام من الكتاب وسنة رسول الهدى، نشأ وترعرع عبد الرحمن بن حسان الأنصاري. أما أمه فهي سيرين التي أهداها الرسول صلى الله عليه وسلم لحسان، وهي أخت مارية القبطية زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد ولد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وتوفي بعد المائة، وكانت نشأته في يثرب، وهي بيئة الشعر في العصرين الجاهلي والإسلامي حيث تميزت على بقية القرى العربية. قال ابن سلام حين ذكر شعراء القرى العربية: «وهي خمس: المدينة، ومكة، والطائف واليمامة، والبحرين. وأشعرهن قرية المدينة».

وعرف آل حسان في هذه البيئة بالشعر. قال المبرد: «وأعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان». وقد ظهرت موهبة عبد الرحمن الشعرية في سن مبكرة. روي أنه جاء إلى أبيه يبكي، وهو صبي، فقال له أبوه: مالك؟ فقال: لسعني طائر. فقال له: صفه يا بني. فقال: كأنه ملتف في بردي حبرة. وكان لسعه زنبور، فقال حسان: قال ابني الشعر ورب الكعبة.

وذكر مؤرخو الأدب أنه اشتهر بالشعر في زمن أبيه، وهو الذي تعهده بالتثقيف والصقل والتهذيب حتى اكتملت شاعريته.

أغراض شعره

لا ريب أن البيئة التي نشأ فيها عبد الرحمن بن حسان كان لها دور في تفتق شاعريته، فهذه البيئة كانت تعبق بنفحات هدي الإسلام وتعاليمه السمحاء التي جاءت في القرآن وأحاديث رسول الهدى صلى الله عليه وسلم، وكان بجانب هذه النفحات العطرة شعر وبلاغة وفصاحة وبيان، وشعراء يتظمون في المدح والهجاء والفخر والعتاب والمنافرة والغزل والحكمة والوصف، ومتأدبون يروون الشعر في المجالس والأندية والأسواق الأدبية؛ فكانت البيئة بحق بيئة الشعر والأدب. ومن هنا وجدنا عبد الرحمن يجول في حلبة الشعر مع شعراء عصره، يفخر ويهجو ويمدح ويعاتب ويتغزل ويصف ويقول الحكم البالغة. إلا أن هذه الأغراض كانت تتفاوت كثرة وقلة في شعره، حيث كان بعضها غلاباً عليه مثل الهجاء لما عرف عنه من ميل إلى الشعر وإيذاء الناس، وما كان يتصف به من كبر ونخوة واستعلاء، فكأنه كان بهذا الغرض يشبع رغبة دفينة في أعماقه. قال الزبير بن بكار: «وكان عبد الرحمن شريراً، هجاءً للناس، مبتدياً لهم. وكان ذا كبر ونخوة».

وقد ذكر مؤرخو الأدب أن بداية تفتق شاعريته كانت في غرض الهجاء خاصة، وكان يفخر ببراعته فيه ويشير إلى دور أبيه حينما كان يرد على المشركين بمعان كانت تؤلمهم، وتقضّ مضاجعهم. قال يخاطب عبد الرحمن بن الحكم:

كان أبي لكم في الكفر نكْلاً
وفي الإسلام كنت لكم عِلاَطَا

كما عدّ نفسه من فحول شعراء الإسلام مثل أبيه:

فمن للقوافي بعد حسان وابنه
ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت

ولا جدال في أن أباه كان من فحول شعراء الجاهلية والإسلام، وقد عدّه ابن سلام أشعر شعراء المدينة. أما عبد الرحمن فلم يذكره مع الفحول، وإنما أشار إليه في موضعين، الأول حينما ذكر أنه غلب النجاشي في الهجاء. والثاني في كونه استعلى يزيد بن معاوية. كذلك لم نجد المحدثين قد عنوا بدراسة حياته وشعره مثل عنايتهم بأبيه. والسبب في ذلك واضح، وهو أن حساناً أحد فحول الجاهلية والإسلام، وأنه أبرز شاعر في مرحلة الدعوة الإسلامية.

وننظر الآن في أغراض شعره لنرى مدى مقدار تمكنه من القوافي كما ادعى.

غرض الغزل

لم يكن عبد الرحمن من شعراء الغزل، ولم يكثر منه في شعره، لأنه لم يكن بطبعه ميالاً إليه، كما أنه لم يرتبط بصاحبة تفجر عواطفه ومشاعره نحو المرأة. وقد وجدنا في مجموع شعره مقطوعتين يشبب فيهما برملة بنت معاوية، وهما من أجود ما قيل في شعر الغزل، لتوفرهما على الخصائص الفنية التي تطلب في هذا الغرض، وهي الإحساس الصادق، والشعور الفياض، والعاطفة المتأججة بين المحبين، مثل قوله:

رمل هل تذكرين يوم غزال
إذ قطعنا مسيرنا بالتمني
إذ تقولين - عمرك الله - هل شيـ
ـئاً وإن جل، سوف يسليك عني
أم هل اطمعت منكم يا بن حسا
ن كما قد أراك أطمعت مني

وقوله:

ولقد قلت إذ تطاول ليلي
وتقلبت ليلتي في فنون
ليت شعري أمن هوى طار نومي
أم براني ربي قصير الجفون؟

مثل هذه المعاني المتأججة بنيران الشوق

والغرام لا تصدر إلا من عاشق ولهان، قد تيمه الحب، وجعله يتقلب في فنون من المعاناة في ليل لم تغمض فيه عيناه بعد ما طال حتى كأنه بلا صباح. ولكن هذه الأبيات مع أبيات أخرى لم ينظمها للتعبير عن إحساس صادق، وعواطف جياشة نحو رملة، إذ لم تكن تربطهما أية علاقة تجمع بين محبين. والمؤرخون يذكرون أنه نظم المقطوعتين على سبيل التعريض بمعاوية ومهاجمته عن طريق الغزل، وهذا ما جعل يزيد بن معاوية حينما سمع هذا الشعر أن يذهب إلى أبيه مغتاظاً ويخبره لعله يؤدب عبد الرحمن، لكن معاوية المعروف بالحلم والتؤدة قال له: وماذا قال؟ قال: يقول:

وهـي زهـراء مـثـل لـؤلـؤة الـغـوّ
واص مـيـزت مـن جـوهـر مـكـنـون

فقال معاوية: صدق. قال يزيد، ويقول:

وإذا مـا نـسـبـتـهـا لـم تـجـدهـا
فـي سـنـاء مـن الـمـكـارم دون

قال معاوية: صدق. ثم قال يزيد، ويقول:

ثـم خـاصـرتـهـا إلـى الـقـبـة الخضـ
ـراء تـمـشـي فـي مـرمـر مسـنـون

قال معاوية: كذب.

ولما لم يَرَ يزيد من معاوية ما أراد أمر الأخطل بهجاء الأنصار.

ومما يدل على أن عبد الرحمن لم يكن صاحب غزل يستميل به النساء أنه كان على علاقة هو والأحوص مع امرأة في المدينة اسمها سلامة، وكانت جميلة وأديبة تقرأ القرآن وتقول الشعر وترويه، فيقال إنها علقت الأحوص وصدت عنه، وفي ذلك يقول:

أرى الإقـبـال مـنـك عـلـى خـلـيـلـي
ومـالـي فـي حـديـثـكـم نـصـيـب

وذكر لنا في شعره أيضاً أنه كان لا يلين لناعم، ولا يصل من قطعه:

ألـم تـرَ أنـي لا ألـيـن لـنـاعـم
ولا أبـتـدي رب الـقـطـيـعـة بـالـوصـل

والعاشق الولهان ينبغي أن يبدي التذلل والانكسار لحبيبته، ويصل من قطعه حفاظاً على الود والمحبة. ولو كان فيه شيء من هذا لَعَلِقَتْهُ سلامة، لا سيما أنها امرأة أديبة وشاعرة، ولكانت بينهما مطارحات شعرية مثلما نجد في أشعار حميد بن ثور وليلى الأخيلية.

وإن من يقول مثل هذه المعاني الفاحشة في الغزل:

سـائـلا مـيـة هـل نـبـهـتـهـا
آخـر الـلـيـل بـعـرد ذي عـجـر
فـتـبـازت فـتـبـازخت لـهـا
جـلـسـة الـجـازر يسـتـنـجـي الـوتـر

لا يمكن أن تقوم بينه وبين امرأة علاقة تفجر عاطفة الغزل الصادق

وعبد الرحمن إذا أوصى امرأته بما ينبغي أن تفعله بعد موته فإنه لا يوصيها إلا بهذا الشعر:

لا تـنـكـحـي إن فـرق الـدهـر بـيـنـنـا
أغـم الـقـفـا والـوجـه لـيـس بـأنـزعـا
وكـونـي حـبـيـسـاً أو لأروع مـاجـد
إذا ضـن أغـسـاس الـرجـال تـبـرعـا

بينما العواطف الصادقة، والحب الخالص الذي يجمع بين الزوجين يقتضي أن يوصيها بالحفاظ على العهد والحب والمودة في حياته وبعد مماته. ولولا وجود المقطوعتين اللتين قالهما في رملة بنت معاوية في مجموع شعره لذهبنا إلى القول بأن الرجل كان جلفاً، غليظ القلب، لا تعرف المشاعر الرقيقة، والعواطف الجياشة سبيلاً إلى قلبه.

غرض الفخر

الفخر من أعراض الشعر الجاهلي، كان الشاعر يفخر بالأنساب والأيام وبفرسان القبيلة

وأجوادها. وقلما نجد شاعراً جاهلياً قد خلا ديوانه من هذا الغرض. وحينما جاء الإسلام جعل معاني الفخر في تقوى الله والبر والتمسك بالعقيدة التي جعلت الناس سواسية كأسنان المشط، لكن هذه المبادئ لم تحدث أثرها في كثير من الشعراء مما جعل المعاني الجاهلية تظل بارزة في أشعارهم، لأن فخر الفرد بنفسه وآبائه وعشيرته ظاهرة نفسية وتاريخية واجتماعية يصعب التخلص منها دفعة واحدة، ومع ذلك نجد النهي عنه كان قوياً في الكتاب والسنة، فهذا رجل يفتخر بآبائه أمام الرسول عليه السلام بقوله:

إني امرؤ حميري حين تنسبني
لا من ربيعة آبائي ولا مضر

فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم: «ذلك والله ألأم لجدك، وأقل لخدك، وأفل لحدك، وأقل لعدك، وأبعد لك من الله ورسوله». وقد وجدنا عبد الرحمن بن حسان في الغرض يجمع بين المعاني الجاهلية والمعاني التي دعا إليها الإسلام، وكأنه بذلك كان يرضي حاجة عميقة التأثير في نفسه، ويستجيب في نفس الآن لما دعت إليه العقيدة. ومما فخر به بنفسه وآبائه على طريقة الجاهليين قوله:

ولكنني فرع سقته أرومة
كذاك الأروم تنبت الفرع في الأصل

وقوله:

أنا ابن مزيقيا عمرو نماني
على أشراف أطواد الجبال
ومن ماء السماء ورثت جداً
فدوني كل فخر واختيال

وبجانب هذا الفخر العارم بالأنساب على طريقة الجاهليين نجد المعاني الإسلامية التي يذكر فيها دور قومه في نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وشدة بلائهم في الغزوات، وفي حرب الردة على عهد الخليفة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، كقوله:

لأن محمداً فينا فلسنا،
وإن جلّت مصيبتنا، نبالي
فسائل عن بلائهم ببدر
وقد يشفي العمى عند السؤال
غداة رموا بجمعهم لؤيا
وكبشهم يزيف إلى الصيال
فكانوا كالهشيم يشب فيه
حريق شبه لفح الشمال
وسائل عنهم الأحزاب لما
هجمنا هم فخرّت كالتلال

وفي معركة (حنين) ذكر بلاء قومه واستجابتهم لنداء الرسول صلى الله عليه وسلم لنصرته وحمايته فقال:

فسائل عن حنين حين ولّت
جموع المسلمين على توال
ونادانا بنصرتنا مناد
فنبنا نوب آلفة الفحال
وما فينا غريب من سوانا
نؤم إلى النبوة كالجمال
فوافينا الرسول فقال شدوا
بعون الله واسمه ذي الجلال
فما صبروا لشدتنا، ولكن
تولوا مجهضين عن القتال

وقومه الأنصار عرفوا بشدتهم وإقدامهم في الحروب، ونصرتهم للرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أعطوا بذلك العهود والمواثيق. قال سعد بن معاذ للرسول صلى الله عليه وسلم قبل بداية معركة بدر: «فو الذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله».

وفي حرب الردة حيث واجه قومه بشدة وضراوة جموع المرتدين، وعلى رأسهم مسيلمة

الكذاب، يقول:

وقـدنـا لـليـمـامـة كـل طـرف
أقب مـقـلـص نـهـد طـوال
يـريـد لـقـاء كـذاب لـئـيـم
مسـيـلـمـة الـمصـر عـلى الضـلال
فـفـاجـأنـاه تـحت الـنـقـع شـعـثـاً
كـأسـد غـامـرات فـي الـظـلال
وحـاسـيـنـاهـم جـرعـاً تـؤدي
عـلـى كـره الـحـيـاة إلـى الـزوال

هذا الفخر برغم ما توجد فيه من سمات قبلية فإن موقف قومه من الدفاع عن الإسلام فيه دعوة للفخر بنصرتهم للعدل والفضيلة والأخلاق المتمثلة في مبادئ الإسلام، وفي نصرة من دعا إلى هذه المبادئ وهو رسول الهدى عليه السلام.

غرض الهجاء

هذا الغرض هو الذي برع فيه عبد الرحمن، إذ كان شاعراً هجاءً في عصره، وقد غلب النجاشي في الهجاء خاصة، وكان أشعر العرب، ولهذا خاض عبد الرحمن في هذا الغرض، وهجا الشعراء وغير الشعراء، وكان مبتدياً لهم، كما قال الزبير بن بكار، يقذع ويفحش في هجائه بمعاني نهى عنها الإسلام وتوعد قائلها بالعقاب، وكان الخلفاء والولاة يقيمون الحد على الشعراء الهجائين، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حبس الحطيئة لمجرد قوله في الزبرقان بن بدر:

دع الـمـكـارم لا تـرحـل لـبـغـيـتـهـا
واقـعـد فـإنك أنت الـطـاعـم الـكـاسـي

وكان عمر قد استشار حسان بن ثابت في معنى البيت ـ وهو يعلم من ذلك ما يعلم حسان ـ ولكنه أراد الحجة على الحطيئة، فقال حسان: ذرق عليه.

وعبد الرحمن كان من الشعراء الذين يميلون إلى الشر وإذاية الناس، والإمعان في الشتم الفاحش، وهذا ما جعل الخليفة معاوية يأمر واليه على المدينة بجلده مع عبد الرحمن بن الحكم حينما هاج الشر بينهما وأفحشا في الهجاء.

وكان عبد الرحمن في هجائه يركز على العيوب والمثالب القبيحة التي تظهر المهجو خسيساً ولئيماً جبلة وطبعاً، فهو لا يستطيع التخلص من مثالبه. قال في هجاء عبد الرحمن بن الحكم:

قـوم إذا راهـنـوا عـن مـجـدهـم جـعـلـوا
تـحت الـعـجـاجـة لـلـمسـبـوق جـلـبـابـا
شـبـانـكـم شـر شـبـان عـلـمـتـهـم
قصـراً وطـولاً وأعـراضـاً وأحـسـابـا
وشـمـطـكـم شر شـمـط الشيب مخبره
وشـرهـم فـي نـشـا أمـر إذا غـابـا
يـوصـي أوائـلـهـم بـالـقـول آخـرهـم
وشـر مـن ذاق طـعـم الـنـوك مـن شـابـا

والذل والاحتقار والمهانة هي السمة التي تميز المهجو، ولولا وجود قومه في الحكم لكان مغموراً كعظم حوت في مظلم الغمرات، أو كوتدٍ يضرب رأسه بالحجر، وهي صورة تظهر المهجو في حالة من التحقير المبالغ فيه:

ولـولاهـم لـكـنـت كـعـظـم حـوت
هـوى فـي مـظـلـم الـغـمـرات داج
وكـنـت أذل مـن وتـدٍ بـقـاع
يشـعـث رأسـه بـالـفـهـر واج

وإمعانه في الهجاء الفاحش لا يقتصر على الأحياء منهم بل يشمل الأموات أيضاً الذين هم مسبة وعار على قومهم مثل الأحياء:

وبـنـو أبـيـك سـخـيـفـة أحـلامـهـم
فـحش الـنـفـوس لـدى الـجـلـيس الـزائر
جـبـن الـقـلـوب، لـدى الـحـروب أذلـة
مـا يـقـبـلـون عـلـى صـفـيـر الصـافـر
وسـيـوفـهـم فـي الـحـرب كـل مـفـلـل
نـاب مـضـاربـه ودان دائـر
أحـيـاؤهـم عـار عـلـى أمـواتـهـم
والـمـيـتـون مسـبـة لـلـغـابـر

فهل كان عبد الرحمن بهذا الهجاء الفاحش يتم رسالة أبيه التي سفّه فيها أحلام قريش وهم

كفار؟ أم هو الطبع الذي يحمله على إذاية الناس؟ ومهما كان الدافع فإنه يبرر هجاءه لهؤلاء القوم بأنهم أشرار جبلة وطبعاً، ولم يؤثر الإسلام فيهم:

كان أبي لكم في الكفر نكْلاً
وفي الإسلام كنت لكم عِلاَطَا

غرض الوصف

الوصف غرض شائع في الشعر العربي القديم، إذ كانت البيئة الصحراوية برمالها وحيواناتها، وسكون ليلها، وحرّ نهارها، ومجاهل طرقها، وما عرفت هذه البيئة من صراع دائم جعلت الإنسان يتفنن في صنع وجلب الدروع والرماح والسيوف، والعناية بالخيول الأصيلة. كل ذلك كان مادة خصبة لغرض الوصف الذي أبدع فيه الشاعر الجاهلي، فجاء شعره عبارة عن مشاهد متحركة ونابضة بالحياة، تعبّر عن حس دقيق بجمال الطبيعة وسر عظمتها. وقد نهج الشعراء الإسلاميون هذا النهج، وكان منهم من عشق الصحراء فظل يتغنى بجمالها مثل الشاعر ذي الرمة الذي خلد في شعره مشاهد بديعة.

أما عبد الرحمن فلم يكن من الشعراء الوصافين الذين تستهويهم الطبيعة الصامتة والمتحركة، وهذا ما جعل هذا الغرض يقل في شعره، بل يكاد يكون منعدماً باستثناء مقطوعة بديعة يصف فيها الخيل، وهي قوله:

بأجرد مثل قضيب الأشا
ء، مستأنس نتق هيكل
أغر الثنايا، أحم اللثا
ت، تمنحه سوك إسحل
عريض المقص، طويل الضلوع،
خفوق الحشا، جرشع المركل
إلى فخذ رابىء لحمها
مجملجة الفتل كالقنقل
وساقات كعباهما أصمعا
ن، سدا له خلل المفصل
طويل الذراع، له مرفق
ألص إلى الزور لم يفتل
كأوظفة الفالج الموصلي،
فلا هو ريض ولم يرحل
كأن حماتيهما أرنبان
تقبضتا خيفة الأجدل
على ربلتين كظهر النقا
من العقد الهائر الأهيل

هذه المقطوعة من أبدع ما قيل في وصف الخيل، فالشاعر لم يترك عضواً واحداً يستحب وجوده في الخيل الأصيلة الكريمة إلا ذكره، وكأنه أراد أن يعطينا نموذجاً للفرس العربي الأصيل. وهذا الوصف الدقيق يدل على أن عبد الرحمن كان يمكن أن يكون من الشعراء الوصافين، لكنه لم يعن به في شعره. وقد وجدنا في مجموع شعره أبياتاً قليلة نظمها في وصف معاناته وهمومه، إلا أنه لم يترك العنان لسجيته حينما كان يواتيه الطبع في هذا الغرض، ولو فعل لأمتعنا بوصف بديع مثل قوله:

تطاول ليلي من هموم، فبعضها
قديم، ومنها حادث مترشح
تحن إلى عرق الحجون، وأهلها
منازلهم منا سليل وأبطح

فما الذي منعه من الاسترسال في التغني بهمومه غناء شجياً، ووصف معاناته القديمة والحادثة، وتصوير خلجاته النفسية؟ لقد اكتفى بهذين البيتين ونحن نحس أن في أعماقه بركاناً ملتهباً بالمشاعر الفياضة، والأحاسيس المتدفقة. وكذلك نحسُّ هذا الإحساس حينما نقرأ قوله:

أرقت لبرق مستطير، كأنه
مصابيح ساعة ثم تلمح
يضيء سناه لي شَرَوْرَى، ودونه
بقاع النقيع أو سنا البرق أنزح

فما الذي كان وراء هذا الأرق؟ وأي ذكرى كانت ستفجر مشاعره نحو جبل شرورى وبقاع النقيع؟

أشياء كثيرة وراء تلك الإشارات واللمع كان من الممكن أن تحرك دواخله، لكنه وقف عند هذين البيتين، ولم ندرِ أكانت قريحته الشعرية لا تسعفه في هذا الغرض، أم أن أغراضاً أخرى كانت تشغله؟ وبرغم أن هذه النماذج قليلة فإنها تبين أن شاعريته كانت تتوفر على طبيعة خلاقة في غرض الوصف، لكنه لم يفك عقالها.

غرض الحكمة

إن الحكم التي وردت في أشعار عبد الرحمن عكست ألواناً من تجاربه في الحياة، وفي سلوك الناس وأخلاقهم ومعاملاتهم؛ كما تجلت فيها دعوة الإسلام التي تحث على الفضيلة والخير والإحسان. وهذه الحكم برغم بساطة مضامينها فإنها تعبّر بصدق عن الرؤية المثالية التي كان يطمح إليها أفراد المجتمع لتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين سائر الطبقات في ظل ما حث عليه الإسلام من مبادئ اجتماعية وإنسانية مثالية وفاضلة، كقوله:

وإن امرءاً نال الغنى ثم لم ينل
صديقاً ولا ذا حاجة لزهيد

وقوله:

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى
ولكن أحاظ قسمت وجدود
وإن امرءاً يمسي ويصبح سالماً
من الناس إلا ما جنى لسعيد

ومن حكمه التي تدل على عمق تجاربه في الحياة وسلوك الناس، وطبعهم المتقلب، وما ينبغي للفرد أن يلتزمه في حياته من سلوك وأفعال وأقوال وممارسات، قوله:

فإن قلت فاعلم ما تقول، فإنه
إلى سامع ممن تعادي وناصر
وإنك لا تستطيع رد مقالة
سارت وزلت في مسامع آخر

كما ليس رام بعد إطلاق سهمه
على رده بعد الوقوع بقادر

وقوله:

ورب امرئ تعتده لك ناصحاً
يوليك عمداً سهمه حين يفوق
ومطرح لا تأمل الدهر نفعه
تصادف منه مصدقاً حين تزهق
وقد تأمن الشر الذي هو حاضر
ويهدي لك الشر البعيد فيطرق.

وقوله:

إن الخليل الذي تنضو مودته
نضو الخضاب لمحقوق بتصريم

أما تأثير تعاليم الإسلام في حكمه فتبدو فيما دعا إليه الإسلام من إحسان ومكارم أخلاق، والبعد عن الشر وإذاية الناس - وإن لم يطبق هذا المبدأ في حياته - وذلك قوله:

من يفعل الحسنات الله يشكرها
والشر بالشر عند الله مثلان

الخصائص الفنية واللغوية

قلنا إن الشعراء في العصر الإسلامي ظلوا ينظمون في الأغراض التي كانت في العصر الجاهلي، لكن هذا النهج لم يمنع ظهور تأثير تعاليم الإسلام في معانيهم ولغتهم. وهذا التأثير بلغ أوجه عند بعض الشعراء، بل منهم من توقف عن نظم الشعر وانصرف لتدبر معاني كتاب الله، ومنهم الشاعر لبيد بن ربيعة العامري الذي كان خير شاعر لقومه في الجاهلية، يمدحهم ويرثيهم، ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم. ذكر ابن سلام أن عمر كتب إلى عامله «أن سل لبيداً والأغلب ما أحدثا من الشعر في الإسلام، فقال الأغلب:

أرجزاً سألت أم قصيداً؟
فقد سألت هيناً موجوداً

وقال لبيد: قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران».

هذا الموقف من لبيد يبين الأثر العميق الذي أحدثته معاني القرآن وبيانه السامي في الشعراء والبلغاء والفصحاء. ولبيد من فحول الجاهليين ومن أصحاب المعلقات وتوقفه عن النظم ليس شيئاً هيناً، لا سيما أنه يذكر السبب، وهو وجود البديل الذي هو أجود وأفضل من الشعر. أما عبد الرحمن الذي نشأ في بيئة إسلامية تحث على الفضائل ومكارم الأخلاق، ورأى موقف أبيه في الدفاع عن هذه الدعوة، فإنه لم يتأثر كثيراً بهذه التعاليم، إذ نجد أشعاره تغلب عليها المضامين الجاهلية التي نهى عنها الإسلام، فهو يفتخر بالأنساب والآباء بدل الافتخار بتقوى الله. وهجاؤه فيه إقذاع ربما فاق فيه أشعار بعض الجاهليين كقوله:

إن اللعين أبوك فارم عظامه
إن ترم ترم مخلجاً مجنوناً

وكذلك تضمن غزله معاني الفحش الصريح:

سائلا مية هل نبهتها
آخر الليل بعرد ذي عجر
فتبازت فتبازخت لها
جلسة الجازر يستنجي الوتر

بينما المعاني التي تظهر أثر تعاليم الإسلام في شعره ولا نجد منها إلا قوله:

من يفعل الحسنات الله يشكرها
والشر بالشر عند الله مثلان

وكذا المعاني التي افتخر فيها بنصرة قومه للرسول صلى الله عليه وسلم؛ وربما تكون هذه المعاني قد أخذت المنحى الجاهلي في عمقها. لأن التركيز على قومه بدل تعميم القول على جميع المسلمين الذين قاموا بهذا الدور يوحي بهذا الظن، لا سيما أنه يستثني الآخرين في شعره، كقوله:

وما فينا غريب من سوانا
نؤم إلى النبوة كالجمال

وقد صاغ هذه المضامين في قالب فني كان شائعاً شيوعاً كبيراً في الشعر الجاهلي والإسلامي، وهو فن التشبيه. لقد أبرز معانيه في هذا اللون من البيان بطريقة فنية بارعة، وقد رأينا أبياتاً كثيرة أظهر فيها هذه البراعة كالمقطوعة التي وصف فيها الخيل، والأبيات التي تغزّل فيها برملة. كما عبّر بواسطة التشبيه عن معان طريفة تضمنت حكماً بالغة كقوله:

ترى المرء مخلوقاً وللعين حظها
وليس بأحناء الأمور بخابر
فذاك كماء البحر لست مسيغه
ويعجب منه ساجياً كل ناظر
وتلقى الأصيل الفاضل الرأي جسمه
إذا ما مشى في القوم ليس بقاهر
فذاك كجسم رث من طول ضيعة
على حد مفتوق الغرارين باتر

واستطاع أن يصور به اضطراباته النفسية المتأججة بهذه الصورة البارعة:

كأن فؤادي في مخالب طائر
إذا ذكرتك النفس شد بها قبضاً
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم
عليّ فما تزداد طولاً ولا عرضاً

أو يبدع مثل هذه الصورة التي يصف فيها السحاب المتدلي:

كأن السحاب دوين السماء
نعام تعلق بالأرجل

أما جزالة اللغة وسلامتها من الحوشي والغريب والشاذ فهي ظاهرة متميزة في أشعاره. وأبوه حينما تعهد شعره بالصقل والتهذيب قد راعى هذا الجانب اللغوي، لأن اللغة وعاء للمعاني، ولهذا السبب جاء شعره سليماً ومحكماً وجزلاً في لغته، وأصبح حجة يستشهد به العلماء لتأكيد ظاهرة لغوية أو سياق شائع في التراكيب السليمة. ذكر

ابن جني قوله:

فـتـبـازت فـتـبـازخت لـهـا
جـلسـة الـجـازر يسـتـنـجـي الـوتـر

لبيان معنى الغلبة والعلو في فعل: بزا يبزو. وفي باب «زيادة الحروف وحذفها» استشهد بقوله:

مـن يـفـعـل الـحـسـنـات الـلـه يشـكـرهـا
والـشـر بـالـشـر عـنـد الـلـه مـثـلان

وقال: أي فالله يشكرها.

وفي الإبدال على غير قياس أو رد قوله:

وكـنـت أذل مـن وتـد بـقـاع
يشـجـج رأسـه بـالـفـهـرواجـي

أي واجيء.

وهذا الإبدال فتح باباً للبحث في إبدال الهمزة ياء، هل هو إبدال على حد التسهيل، أم هو إبدال محض؟ وقد نص ابن جني أن إبدالها هنا محض، لأن إبدال التسهيل تكون الهمزة فيه كأنها موجودة.

إن شعر عبد الرحمن يمثل مرحلة من مراحل التحول التي طرأت على الشعر العربي في المعاني والأغراض والصياغة، بحكم التحول الناتج عن التغيير في العقيدة والعادات والمفاهيم التي كانت سائدة في المجتمع قبل مجيء الإسلام. كما يبرز مدى تأثر الشعراء بتعاليم الإسلام وصياغتها في أشعارهم، حيث كان هذا التأثر متفاوتاً بين شاعر وآخر. وعبد الرحمن كان يمثل الفئة التي لم تبرز تعاليم الإسلام في أشعارها بشكل قوي وبارز. كذلك يبرز شعره في جوانب منه مرحلة الصراع على الخلافة واستيلاء بني أمية على مقاليد الأمور، وما هجاؤه لأحد أفراد الأسرة الحاكمة وهو عبد الرحمن بن الحكم إلا صورة لهذا الصراع، وكذلك مهاجمته معاوية عن طريق الغزل بابنته رملة، وقوله فيه:

ألا أبـلـغ مـعـاويـة بـن حـرب
فـقـد أبـلـغـتـم الـحـنـق الـصـدورا

بل كان يتوعد هؤلاء الحكام بتتبع مخازيهم ومثالبهم ليكشف صغرهم للناس:

صـار الـعـزيـز ذلـيـلاً، والـذلـيـل لـه
عـزّ وصـار فـروع الـنـاس أذنـابـاً
إنـي لـمـلـتـمـس حـتـى تـبـيـن لـي
فـيـكـم مـتـى كـنـتـم لـلـنـاس أربـابـاً

كل هذا يبين قوة الصراع بين الأنصار وبين الحكام من بني أمية ومن والاهم. وإذا كان هؤلاء الحكام لهم قرابة مع الصحابي الجليل الخليفة الراشدي عثمان بن عفان، فإنه عرف كيف يسله منهم كما تسل الشعرة من العجين بقوله:

عـثـمـان عـمـكـم ولسـتـم مـثـلـه
وبـنـو أمـيـة مـنـكـم كـالآمـر

وهذا العداء ناشئ من عدة أمور، منها تسلط بني أمية على الحكم بالقهر والقوة والدسائس، وبرغم هذا التسلط فإنهم لم يحاولوا نشر العدل والمساواة بين الناس، فالخليفة معاوية حينما أمر واليه على المدينة أن يجلد ابن حسان وعبد الرحمن بن الحكم حينما أفحشا في الهجاء، فإن الوالي الذي طبق الحد هو مروان بن الحكم أخو عبد الرحمن بن الحكم، فقد جلد ابن حسان مائة جلدة ولم يجلد أخاه، وهذا ما جعل ابن حسان يغتاظ معاتباً النعمان بن بشير الأنصاري لأنه لم يقف بجانبه، وفي ذلك يقول:

يـوم أيـقـنـت أن سـاقـي رضـت
وأتـاكـم بـذاكـم الـركـبـان

هذه المواقف وغيرها من شأنها أن تؤجج الصراع بين الحكام والمحكومين، وأن يكون الشعر هو الوثيقة الأدبية والتاريخية والاجتماعية التي تصوره كما رأينا في شعر عبد الرحمن. ■

■ *تراث:* نعتذر عن عدم نشر الهوامش والمصادر والمراجع التي أرسلها الكاتب لضيق المساحة.

جميل بن معمر..

جميل بثينة

يعد جميل بن معمر أشهر شعراء الغزل العذري على كثرتهم، وتعد أخباره في أوثق أخبارهم، وأشعاره في المروي الموثوق من أشعار الغزليين في العصر الأموي.

وهو ينتمي إلى قبيلة عذره، من عرب الشمال، وأمه من جذام من اليمن، وكانت لجميل مكانته في شعراء زمانه، وكان كثير عزة راوية لأشعاره، وهو واحد في سلسلة شعراء كانوا يعنون بأشعارهم ويحسنونها ويخدمونها، فقد تلقن الشعر عن هدبة بن الخشرم تلميذ الحطيئة، وكان الحطيئة تلميذاً وراوية لزهير، وصديقاً لابنه كعب بن زهير، وكان زهير من أتباع المذهب الأوسي (مدرسة أوس بن حجر) المعروفين بعبيد الشعر أو أصحاب الحوليات.

وكانت لجميل صداقة مع عمر بن أبي ربيعة شاعر الغزل الكبير في زمانه، وصداقات مع بني أمية من الحكام والولاة وسائر الأفراد منهم، ويبدو أن مكانة جميل الاجتماعية كانت مكانة عالية كما تدل أخباره وأخبار بعض معاصريه.

ولم تختلف كُتب تاريخ الأدب قديماً وحديثاً في تقويم شخصية جميل بثينة، وفي سرد أخباره، وفي مجريات حياته، وفي الثناء على شعره .

ودخل جميل في جملة الشعراء العذريين، وكان في مقدمتهم بعد اشتهار قصته مع ابنة قبيلته «بثينة»، ونقرأ في تاريخ الأدب العربي (ج٢) عن عناية الرواة والناس بأشعاره، وعناية المغنين في مكة والمدينة أيضا، وهي أشعار معظمها في التغني ببثينة، التي أحبها من الصغر، فأحبته وألهمته الشعر، وكانت بثينة تلتقي به، وتسمع شعره، حتى خشى أهلها مغبة هذا اللقاء على الرغم من معرفتهم أن الحب بينهما حب نقي برئ، فحُجبت عنه، ولم يلبث أهلها أن زوجوها من نُبيه بن الأسود العذري، فارتفعت في أشعار جميل نغمة الشكوى واللوعة، وازداد تعلقه بذكرها، ولهج بها في شعره حتى استعدى أهلها عليه عامل منطقة وادي القرى (الحاكم فيها) فأنذره وضيّق عليه، فخرج ناجياً إلى مصر، واستقر هناك في ضيافة والي مصر عبد العزيز بن مروان.

ولم تطل حياته في مصر، فتوفي سنة ٨٢ هـ غريباً، صادحاً بأشعاره التي تنضح بمعاني الحب العفيف، والغزل العذري، واجتمع منها ديوان يكاد يكون مقصوراً عن فن الغزل.

ولخص د. فروخ الكلام في جميل وشعره (٤٧٩:٢) فقال: إنه شاعر فصيح، مقدّم عند النقاد على جميع معاصريه من شعراء الغزل، وشعره رقيق سهل التركيب، واضح المعاني، متأجج العاطفة، وشعر جميل كله في النسيب سوى قطعتين أو ثلاث إحداها في المديح، وذكر الأصفهاني في الأغاني (الجزء الثامن) أن لجميل هجاء في زوج بثينة وقومها.

النص المختار هو أبيات منتقاة انتقاء يسمح بتشكيل قطعة متماسكة متسلسلة تعبر عن القصيدة كاملة.

دمعةُ حُبّ!

لقد فَرِحَ الواشونَ أنْ صَرَمَتْ حَبْلي … بثينةُ أو أبْدَتْ لنا جانبَ البُخْلِ[1]

يقولونَ مَهْلاً يا جميلُ، وإنّني … لأُقْسِمُ: "مالي عَنْ بُثَيْنَةَ من مَهْلِ!"

أ"حلماً"؟ فقبلَ اليَوْمِ كانَ أوانُهُ … أمْ أخْشى؟ فَقَبْلَ اليَوْمِ أُوعِدْتُ بالقَتْلِ![2]

إذا ما تَراجَعْنا الّذي كان بَيْنَنا … جَرَى الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْ بُثَيْنَةَ بالكُحْلِ[3]

كِلانا بكَى أو كادَ يبكي صَبابَةً … إلى إلفِهِ واسْتَعْجَلَتْ عَبْرَةٌ قَبْلي[4]

فلو تَرَكَتْ عَقْلي مَعي ما طَلَبْتُها … ولكنْ طِلابيها لِمَا فاتَ من عَقْلي!

فإنْ وُجِدَتْ نَعْلٌ بأرضٍ مَضِلّةٍ … مِنَ الدّهرِ يَوْماً فاعْلَمي أنَّها نَعْلي[5]

فيا وَيْحَ نَفْسي حَسْبُ نَفْسي الذي بها … ويا وَيْحَ أهْلي ما أُصيبَ بهِ أهْلي!

أجِدّيَ لا ألْقى بُثَيْنَةَ مَرّةً … مِنَ الدّهْرِ إلاّ خائفاً أوْ: على رَحْلي؟[6]

خليليَّ فِي ما عِشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا … قتيلاً بكَى من حُبِّ قاتِلِهِ قبلي؟![7]

أفي "أمّ عمرو" تَعْذُلاني هُدِيتُمَا … وقد تَيَّمَتْ قَلْبي وهامَ بها عَقْلي[8]

أبيتُ مع الهُلاّكِ ضَيْفاً لأهْلِها … وأهْلي قريبٌ مُوسِعُونَ ذَوو فَضْلِ![9]

أفِقْ أيُّها القَلْبُ اللّجُوجُ عن الجهلِ … ودَعْ عنك جُمْلاً، لا سَبيلَ إلى جُمْلِ![10]

*****

١- في معاني الحبل المجازية: العهد، والذمة؛ والوصال. والصّرم: القطع. يقول: إن الوشاة فرحوا بقطع بثينة علاقتها به (أو احتجابها بعد غضبة أهلها عنه).

٢- فعل وعد يقال (على الأصل) في الخير، و: أوعد في التهديد والشر وقد قال الشاعر:

وإني إذا أوعدته أو وعدته: لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

٣- تراجعنا: تذاكرنا، واستعدنا الأخبار الماضية.

٤- بكى صبابة: من الشوق والوجد.

- والعبرة: الدمعة.

٥- أرض مضلة: متيهة، يضل فيها الطريق. ضرب بنعله المثل، فلو وجدت نعلٌ في تلك المضلة فإنها نعله؛ تدل عليه، وتشهد على سياحته في الأرض من هيامه بها.

٦- يقال: أجِدّك لا تفعل كذا: تحلّفه بجدّه وحقيقته. وإذا فتحت الجيم: أجَدّك فأنت تحلّفه بحظه وبخته.

- خائفاً: حال من فاعل (ألقى) الشاعر. و«على رحلي» متعلقان بحال أخرى محذوفة مقدرة. يقول إنه لا يستطيع النزول في ديار بثينة لأنه ملاحق.

٧- من حب قاتله: بسببه.

٨- أم عمرو كناية عن بثينة. وللشعراء عادة في تغيير اسم المحبوبة أو الكناية عنها. ومعنى تيّمته: شغفته حباً.

٩- الهلاّك: تقال في الصعاليك، والذين ضلوا الطريق، وطالبوا المعروف. يقول إنه يدس نفسه في هؤلاء متخفياً لكي يختلس قرباً من بثينة! علماً أنه لا حاجة له في عطاء أو طعام أو ضيافة.

١٠- اللجوج من لجّ في الأمر: تمادى فيه. وجمل: كناية عن بثينة. والعرب تبعد أحياناً عن اسم المحبوبة، أو تتلطف بذكر أسماء أخرى والمراد واحدة. ■

درهم يزيد بن معاوية



عبد الله بن جاسم المطيري
مدير بيت الشيخ سعيد آل مكتوم- دبي
عضو الجمعية الملكية البريطانية للمسكوكات

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب الأموي ثاني خلفاء الدولة الأموية. ولد بالماطرون سنة ٢٥ هـ، وقد عينه أبوه ولياً للعهد وأمر الناس بمبايعته، وهذه أول بدعة ابتدعت منذ عهد الخلفاء الراشدين، حيث إن التوريث لولاية العهد لم يكن معروفاً. ومن الذين رفضوا البيعة له عبدالله بن الزبير والحسين بن علي، حيث انصرف الزبير إلى المدينة والحسين بن علي إلى الكوفة، وفي عهده كان استشهاد الحسين بن علي رضي الله عنه وكان ذلك سنة ٦١ هـ، وفي سنة ٦٣ هـ. وفي زمنه فتح المغرب الأقصى على يد عقبة بن نافع وفتح سلم بن زياد بخارى وخوارزم وهو أول من خدم الكعبة وكساها بالديباج الخسرواني. دامت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر وكانت وفاته في ١٥ ربيع الأول سنة ٦٤ هـ، ودفن في لجوارين من أرض حمص.

ضرب يزيد دراهم على الطراز الساساني المعرب . إلا أننا نجد أن الدراهم التي ضربها يزيد لا تحمل اسمه، وأن تاريخ السك هو الدال على أن هذه الدراهم له، بالإضافة إلى العبارات التي كتبت في هامش الدراهم وهي عبارة (الله ولي عون – بسم الله ربي). وقد ذكر العالم ولكر في ذكره لدراهم يزيد بن معاوية أن الدرهم حمل عبارة «الله ربي عون»، ونقل عنه الدكتور ناصر النقشبندي والصحيح أنه كتب العبارة التي ذكرتها مؤكداً صحة قراءتي مع احترامي الشديد للعالمين الجليلين في قراءتيهما، ويعتبر هذا الدرهم من نفائس الدراهم الساسانية المعربة، كما أن الدرهم من الأمثلة القليلة المعروفة في المجموعات المتحفية والخاصة، وأن دراهم يزيد بن معاوية قليلة جداً مقارنة مع دراهم والده، أو الدراهم التي ضربها الولاة أو دراهم مدعي الخلافة عبد الله بن الزبير.■

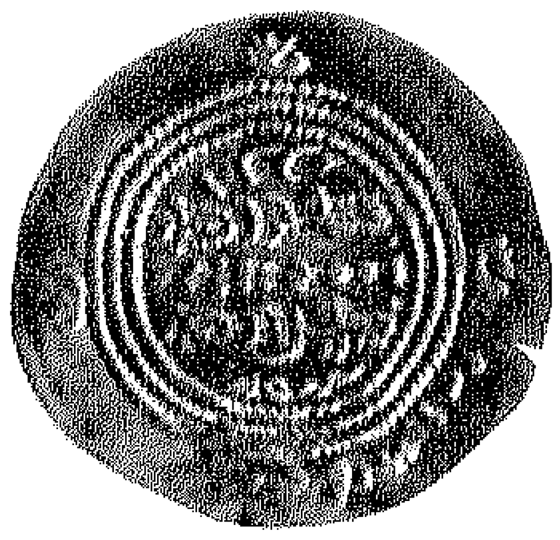
درهم يزيد بن معاوية ٦١ هـ

الوجه الأول



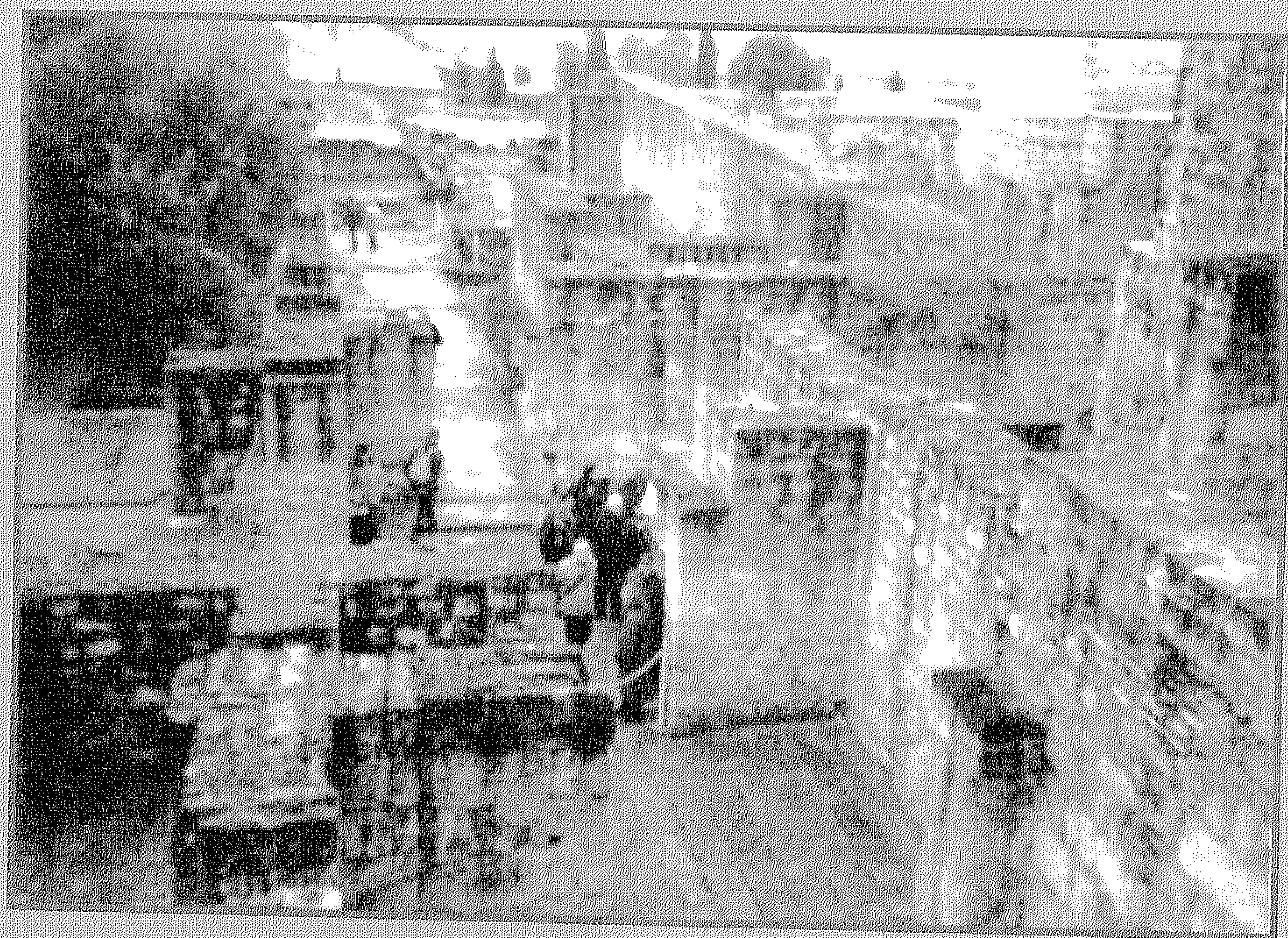
الهامش: بسم الله ولي عون– ربي الله
المركز: صورة جانبية للحاكم الفارسي خسرو الثاني. أمام الصورة اسم الحاكم بالخط الفهلوي وخلف الصورة الدعاء بازدهار الملك «أفزدت غده».

الوجه الثاني



الهامش: ضرب بالمحرم «بالخط العربي»
الرمز: النار المقدسة عند الفرس وحارساها المدججان بالسلاح ومدينة الضرب بالخط الفهلوي سجستان وتاريخ السك ٦١ هـ بالخط الفهلوي.

الأندلس
رسوم وصور



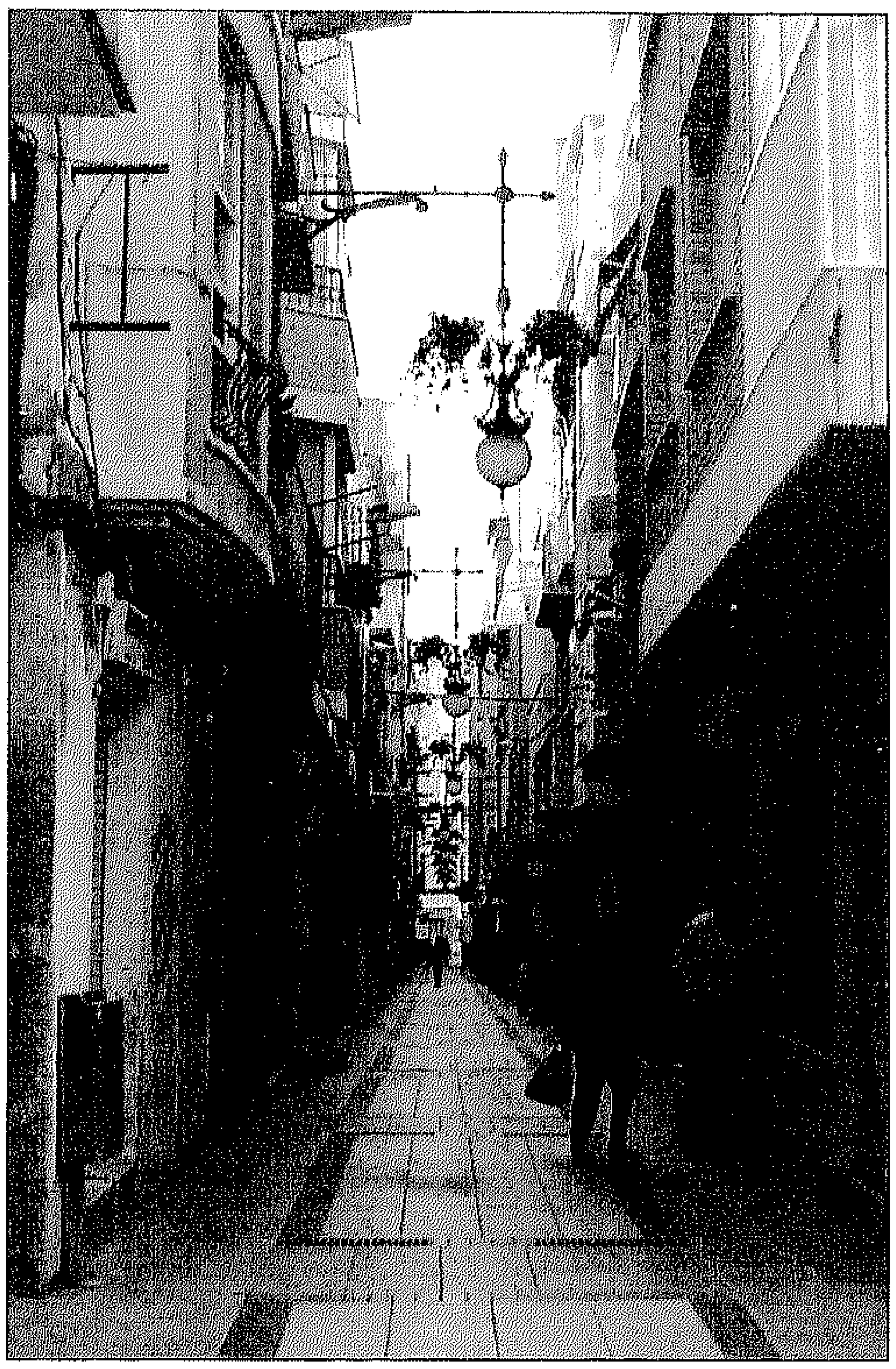
تقع مدينة الزهراء التي تعرف بـ«قرطبة القديمة» Cordoba la Vieja عند سفح سلسلة مرتفعات جبال قرطبة Sierra de Cordoba، مستلقية على أقدام جبل العروس، أحد أعلى تلك المرتفعات أو أعلاها، حيث هناك قصر الخليفة ثم الأقسام الأخرى من الزهراء. وهي المدينة الإدارية للدولة ابتدأ بناءها الخليفة عبدالرحمن (الثالث) الناصر لدين الله أوائل سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م.

ومما يجلب الانتباه من مباني الزهراء بهو عبد الرحمن الثالث: بهو السفراء المُسمَّى المجلس المؤنس، الكائن في أعلا المدينة -المستوى الثالث منها- في الجناح الشرقي من الزهراء.

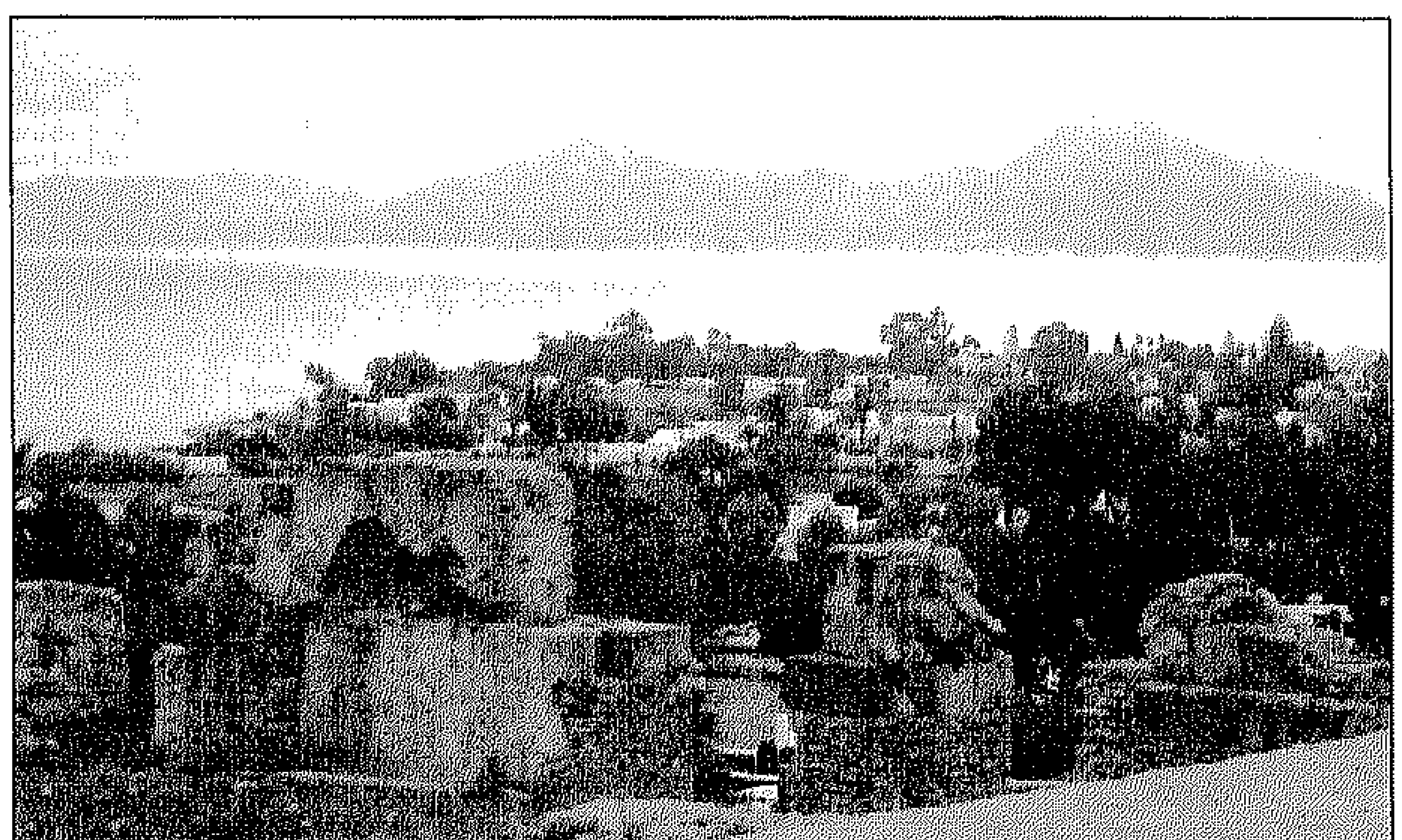
وتعد الزهراء بمدارجها الجميلة الجذابة ونقوشها المبدعة وروعة فنها الهندسي من أروع المعمار القرطبي أو الأندلسي بعد المسجد الجامع فيها.

قرطاجنة

تشكل اسم «قرطاجنة» بأشكال مختلفة، والأصل واحد. وهو اسم أطلق على أكثر من مدينة، والباني واحد في المدن القديمة، فقيل في قرطاجنة وقيل فيه: قرطاجة، وقالوا أيضاً «قرطاج» كما هو شائع في اسم المدينة في أفريقية «تونس» اليوم.



أحد الشوارع الأثرية بمدينة قرطاجنة الإسبانية



من آثار مدينة قرطاج التونسية

والاسم أعرابي قديم، أطلقه الفينيقيون على عدد من المدن أسسوها خارج بلاد الشام موطنهم الأصلي، ومعنى قرطاجنة المدينة الجديدة أو العاصمة الجديدة. ومعروف أسياح الفينيقيين في أفريقية وفي أوروبة وقد انطلقوا في تجارتهم وصناعتهم، ودعموا هذا النشاط الاقتصادي في بعض الأحيان بنشاط عسكري مؤثر، وسجل التاريخ أخبار تلك المواقع والوقائع.

وقد سجلت كتب الجغرافيا والرحلات ومعاجم البلدان العربية أخباراً عن المدن المعروفة لهم المسماة باسم «قرطاجنة» وعن أحوالها السياسية والاقتصادية والعمرانية والآثارية.

(١)

ذكر الحميري في معجمه ثلاثة مواضع سميت باسم «قرطاجنة» وهي:

١- موضع بالأندلس عند جبل طارق وهو مدينة قديمة غير مسكونة وبها آثار كثيرة، كانت تعرف بـ «قرطاجنة الجزيرة».

٢- قرطاجنة الحلفاء (وترسم أحياناً: «قرطاجنة الخلفاء» وهي بالأندلس أيضاً، وكانت الميناء الرئيسي لمدينة مرسية (في القسم الجنوبي الشرقي من الأندلس). وفي وصفها الأندلسي أنها مدينة أولية (قديمة جدا) بها ميناء ترسو فيه المراكب الكبار والصغار، وهي كثيرة الخصب والرخاء المتتابع.. ومنطقتها شديدة الخصب ويحكى أن السنبل يحصد فيه عن مطرة واحدة وإليه المنتهى في الجودة.

وقرطاجنة الحلفاء كانت من المواقع التي استتم فتحها عبد العزيز بن موسى بن نصير (بعد والده موسى).

- وقد استمرت هذه المدينة تحت النظر العربي

الأندلسي إلى سنة ٦٤٠هـ-١٢٤٢م.

– وقرطاجنة الحلفاء بنيت على أيادي أصحاب قرطاجنة الأولى التي أقيمت في أفريقية (بجانب مدينة تونس اليوم) من وراء خطة للتوسع في العالم القديم (وسأبينه في الفقرة التالية).

وإلى قرطاجنة الأندلس ينتمي عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء فيهم حازم القرطاجني من أعلام القرن السابع الهجري (٦٠٨-٦٨٤) بقي من آثاره المشهورة: منهاج البلغاء وسراج الأدباء (في النقد الأدبي) وديوان شعر، وهما مطبوعان. وهو صاحب المقصورة التي ضاهى بها مقصورة ابن دريد. وقد طبعت مع شرح نفيس للشريف الغرناطي اسمه: رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة. وأولها:

لـلّـهِ مـا قـد هِـجْـتَ يـا يَـوْمَ الـنَّـوى
عـلـى فُـؤادي مـن تَـبـاريـحِ الـجَـوى

٣- وقرطاجنة الثالثة المذكورة في الجغرافيا الإسلامية: تلك التي في أفريقية وهي أول مدينة ينشئها الفينيقيون بعيداً عن بلدهم الأصلي على ساحل الشام، ومركزه مدينة صور (في لبنان الآن).

(٢)

أسس الفينيقيون على ساحل أفريقية ميناءً مهماً ليكون مركزاً تجارياً وملاحياً، وقد بنيت قرطاجنة في شبه جزيرة هيأ لوجود ميناءين اثنين داخلي وخارجي.

وقد امتد نفوذ قرطاجنة الافريقية امتداداً كبيراً، فخضع له معظم الشطر الشمالي الغربي للقارة الافريقية، وجنوبي إسبانيا، وسردينيا وكورسيكا (من جزر البحر المتوسط) والشطر الغربي من صقلية.

وقد أسست قرطاجنة هذه نحو سنة ٨١٤ قبل الميلاد، وكانت تابعة للمركز الرئيسي في صور. ثم استقلت (بضعف المركز) وصارت هي التي تقود المناطق الفينيقية الجديدة.



احد شوارع مدينة قرطاجنة الكولومبية

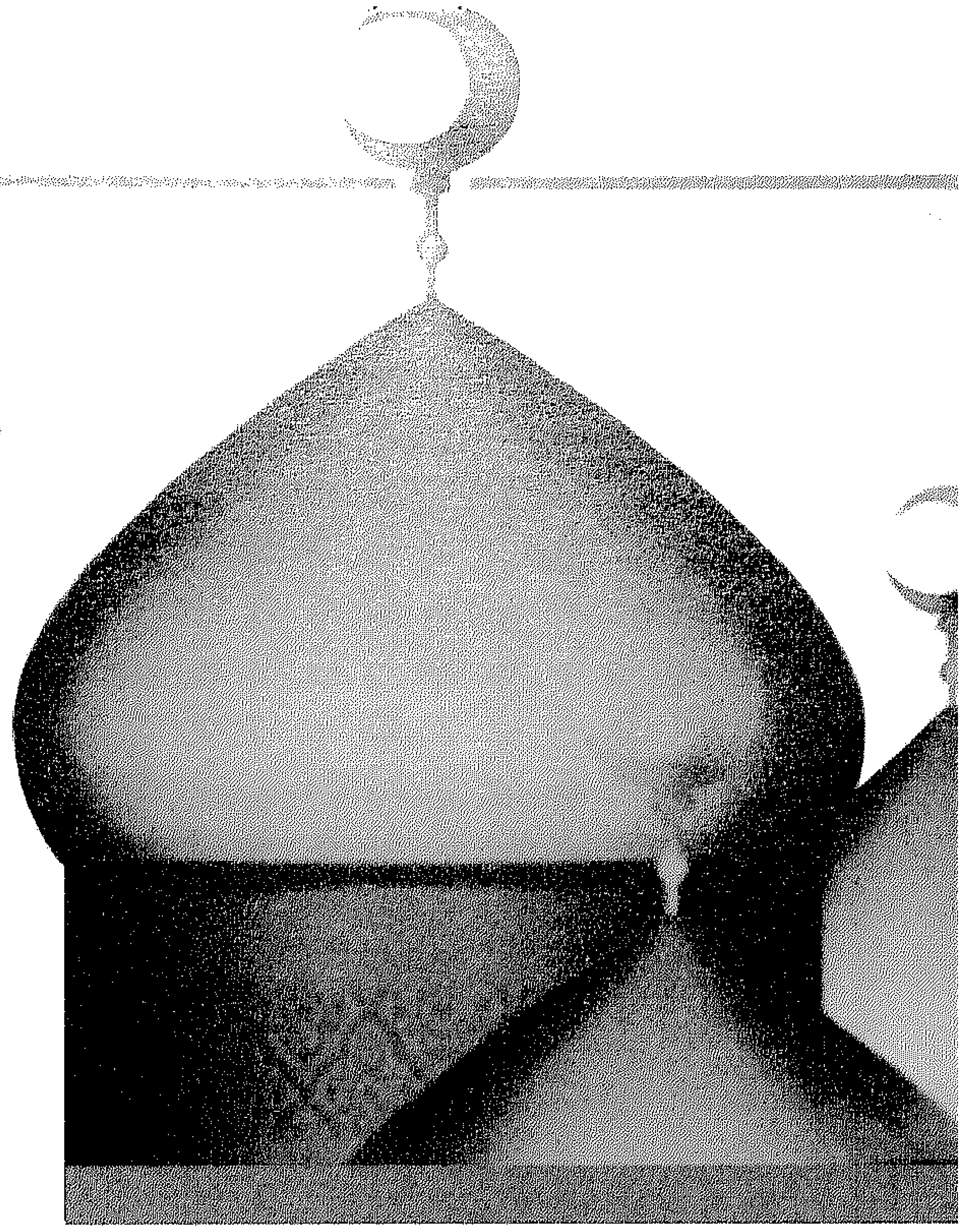
وقد أقامت تحالفات من جهة وخاضت حروباً من جهة أخرى وخسرت الحروب المسماة بالحروب البونية (في القرنين الثالث والثاني ق.م).

وإلى قرطاجنة ينتمي القائد العسكري الشهير حنّيبعل (هانيبال أو هنّيبعل) ولد ٢٤٧ وتوفي ١٨٢ ق.م، وكان قائد القوات القرطاجية في الحرب البونية ويعد أحد أعظم القادة العسكريين في التاريخ. غادر إسبانيا عابراً جبال الألب سنة ٢١٨ للاستيلاء على رومة (روما) وكسب معارك متوالية، ولكن جيشه دمر في إحدى المعارك فاعتزل وانزوى.

واستمرت مدينة قرطاجنة (في الأندلس = إسبانية) ومدينة قرطاجنة أفريقية (قرطاج اليوم) مدينتين مهمتين وخضعتا للحكم الروماني إلى أن جاء الفتح الإسلامي، فازدهرت المدينتان من جديد، وحققتا نجاحاً حضارياً مستأنفاً، في أطر جديدة.

(٣)

وقد سميت مدينة في الجزء الشمالي الغربي من جمهورية كولومبيا باسم قرطاجنة: Cartagena وقد أنشئت سنة ١٥٣٣ على البحر الكاريبي، وواضح أن هذا الاسم نقل (وتفاؤلاً) عن اسم «قرطاجنة» الأندلسية الشهيرة. ■



..وهَنْدَسَ الفقيه مساجدَها

حكاية اليوم عن جزئية في مسجد قرطبة الجامع، في وسط المدينة، التي تنقلك وأنت تزورها أو تَذْرَعُ دُرُوَبها، تتفقد مبانيها إلى أيامها الأولى.

مسجدُها الجامع[1] -الذي لم يكن في بلاد الإسلام مثلُه- إذا وقفت أمامه تطالع جماله، فلا تكاد تصدق وجودَ هذا الفن المتفرد النادر أو العديم المثال.

وهو الباقي حتى هذه اللحظة وقد احتمل مواجع التشويه والتحريف والتصريف، فكيف وقد مضى على بنائه ما يعانق ثلاثة عشر قرناً (منذ ١٧٠هـ). تزوره مذهولاً مرةً ومأخوذاً أخرى ومحزوناً بعدها. لعل الله تعالى يرزقك زيارته ومحاورته ومداورته ولقد تفنن فيه الواصفون مؤرخون وجغرافيون وزائرون وشعراء وأدباء وعلماء قالوا فيه أقوالاً وأنغاماً وأشجاناً. وقد استحق وصف أحدهم «يَحارُ فيه الطَّرْفُ ويَعْجِزُ عن حسنه الوصفُ» فليس في مساجد المسلمين مثلُه تنميقاً وطولا وعرضاً[2].

فأي نوع من المهندسين المعماريين أقاموا بناءه، تتداوله أيديهم على مدى قرون وكأنها عملٌ واحد بيد نفسِ المهندس.

مضت عادةُ الفاتحين المسلمين أن يُنْشِئوا، أولَ ما ينشئون -بعد فتح أية مدينة- مسجدَها. يقيمونه ابتداءً بناءً في أرض بِكْر -ما أمكن ذلك- لا يتحيفون على أحد فيه، وهنالك في الأندلس يضعون رسْمه وتصميمه ويسددون قبلته.

وكان عدد من التابعين دخلوا الأندلس لدى أول الفتح، كان منهم مهندس المساجد الأندليسة الفقيه المجاهد الإداري: حَنَش بن عبد الله الصَّنعاني (من صنعاء الشام) دخلها سنة ٩٣هـ (٧١٢م) مجاهداً مع موسى بن نصير. وهو الذي تولى الإشراف على تأسيس عدة مساجد في مدنها: جامع مدينة البيرة ELVIRA أشرف عليه وجدّد قبلته، وأسس المسجد الجامع بسرقسطة ZARAGOZA ووضع محرابه، ومسجد قرطبة الجامع الأول، كان على رأس مجموعة أشرفت على بنائه وتأسيسه، لاسيما تحديد وتعديل وتقويم قبلته وتركيزها بيده وتوجيه محرابه، ثم كان البناء الحالي على وضعه ووجهته ومحرابه،

الذي ابتدأه الأمير عبد الرحمن الداخل قبل سنة ١٧٠هـ. وتوالت الزيادات خلال أكثر من قرنين، لكنها كانت كلها كأنها بيد مهندس واحد.

ويذكر أن كنيسة نوتردام الباريسية التي أُنشئت بعد ذلك بقرون استُعين في بنائها بمهندسين معماريين أندلسيين، ورغم ذلك لا مقارنة بينهما. ولما أريد لهذه الكنيسة أن يكون عُلو سقفها مثل مسجد قرطبة البالغ نحو تسعة أمتار على عمود قطرة ٢٥ سم كان قطر العمود في تلك الكنيسة أضعافاً مضاعفة [٣].

وحكاية اليوم تتعلق بهذا الفقيه المهندس المجاهد، إنه بينما الجيش الفاتح وصل شمالي إسبانيا بقيادة موسى وطارق بعد فتح مدينة سرقسطة (شمال شرق مدريد ٣٢٠ كم) وأراد القائد الانطلاق لما بعدها أخذ الفقيهُ حنش بعنان فرسه وأوقفه قائلاً له: أيها الأمير رفقاً بالناس لقد تَعِبوا ومَلُّوا وكلّوا لسنين ويريدون الاستراحة من عَناء الجهاد الطويل فتمهلْ. فضحك موسى وقال له: أرشدك الله وكَثَّر في المسلمين مِثْلَك، وبيَّن أن لابد من الاستمرار، بل زاد موسى كذلك: «أما والله لو انقادوا لقدتهم حتى أُوقفهم على رومية (روما) ويفتحها الله على يديّ إن شاء الله». فساروا جميعاً وسار هذا الفقيه المهندس المجاهد.

أليس في موقف كل منهما وأمثالهما من الآخرين جنداً وفقهاء وعلماء، ما يدل على هذا البناء الإنساني الذي يهنأ بكل بناء ويرفع اللواء ويحيل صحراء الحياة إلى حدائق غناء، رحمهم الله جميعاً وأثابهم خير الجزاء.■

الهوامش

(١) عن مسجد قرطبة الجامع، انظر: أندلسيات، ٢٢/ ١٥٧ وبعدها. التاريخ الأندلسي، ٢٤٤، ٣٠٣. مع الأندلس ٤٩ وبعدها.

(٢) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الشريف الأدريسي، القسم الخاص بقرطبة ومسجدها الجامع. الروض المعطار في خبر الأقطار، ابن عبد المنعم الحميري، ٤٥٦ وبعدها. نفح الطيب، ١٥٣، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٦٥، ٥١٩، ٥٤٠، ٥٤٥–٥٦٣، ٦١٦.

(٣) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ٥٧٤.

معركة عين جالوت

حدثت هذه المعركة بين المماليك والمغول سنة (٦٥٨هـ-١٢٦٠م) حيث أرسل هولاكو إنذاراً لسيف الدين قطز سلطان المماليك بمصر يهدده فيه تهديداً شديداً إذا وقف أمام توغل المغول داخل مصر، ومذكراً إياه بما فعله في بغداد وحلب ودمشق فرفض قطز الإنذار، وسارع بتكوين جيش مصري مملوكي قوي أمدّه بكل أدوات القتال وسار به إلى أن التقى بجيش المغول عند عين جالوت إلى الجنوب من حيفا، فهزم المماليك المغول هزيمة قاسية في رمضان من عام (٦٥٨هـ) وانسحبت بقايا المغول إلى بيسان، فطاردهم قطز ومعه نائبه الظاهر بيبرس حيث هزم المغول مرة أخرى، وسرعان ما دخل قطز الشام فعادت الطمأنينة إلى ربوعه.

ضريح الذبابة

الشاعر الروماني الشهير فيرجيل (٧٠-١٩) ق.م قام بإعداد جنازة من أجل ذبابة توفيت في بيته وادعى أنها ترتبط بصداقة معه لأنها أليفة. وجرت مراسم التشييع في بيت فيرجيل الفخم الكائن فوق هضبة إسكولبين في روما.

فكانت في البيت فرقة موسيقية كاملة تعزف الألحان الجنائزية من أجل تهدئة المواسين والمعزين، وقد حضرت مراسم التشييع شخصيات رومانية كبيرة الشأن مثل مسيناس، أستاذ الشاعر فيرجيل، الذي ألقى مرثية مثيرة للجنون وطويلة من أجل الذبابة.

ومن أجل تغطية المراسم الجنائزية قام فيرجيل بإعداد عدة قصائد شعرية وألقاها أمام الحضور، ثم دفنت بعد ذلك الذبابة في «ضريح خاص» كلفت مراسم الدفن وتشييع هذه الذبابة أكثر من (٨٠٠٠٠٠) سيسترسيس، أي ما يعادل ألف دولار أمريكي.

هكذا يكتب

هل تصدق أن فولتير الفيلسوف والأديب لم يكن يستطيع الكتابة إلا إذا وضع أمامه مجموعة من أقلام الرصاص، وبعد أن ينتهي من الكتابة يحطمها ويلفها في الورقة التي كتب فيها ثم يضعها تحت وسادته وينام؟!

أغرب إثبات

عندما طلب إلى سعيد قاتل الحاكم بأمر الله (٩٨٥هـ-١٠٢١م)



سادس الخلفاء الفاطميين بمصر أن يدلل على كيفية ارتكابه جريمة القتل، صاح: هكذا!! وغرز خنجره في صدره.

شعوب العالم

ترجع شعوب العالم جميعها إلى أصل واحد يسمى بلغة العلم هوموسابين، غير أن ضمن هذا الجنس توجد فروق أو اختلافات طبيعية، ويشكل الناس الذين تجمعهم صفة جسمية واحدة، طويئفة من طوائف الأنواع البشرية وتسمى بالعرق.

وتتضمن الصفات المميزة للسلالات البشرية لون الجلد ونوع الشعر وشكل الرأس، وهناك ثلاث سلالات رئيسية في كل العالم هي القوقاز وتدعى أيضا بالعِرق الأبيض، والمنغولية وتدعى بالعِرق الأصفر، والزنجية وتسمى العِرق الأسود، وهناك أيضا عرقان صغيران هما السلالة الاسترالية والسلالة الكابودية.

وأفراد السلالة الواحدة لا يشابه بعضهم بعضاً دائماً، وذلك لأن كل سلالة خليط من السلالات الأخرى، فالقوقازيون وهم أكثر السلالات عدداً يشملون شعوباً مختلفة بين شعب أوروبا الشمالية والشعوب العربية السُمر، وفي عداد الشعوب المنغولية نجد اليابانيين وغيرهم من الشعوب الآسيوية كذلك، الهنود الأمريكيون والأسكيمو.

ويعتقد أن كل السلالات قد انحدرت من جدّ واحد وفي هجرته إلى المناطق الأخرى اكتسب بعض الصفات التي غالباً ما ساعدته على التكيف مع البيئات الجديدة، فالشعوب الزنجية السوداء مثلاً، توجد تحت جلدها مادة الميلانين وهي صبغة سوداء تحميها من أشعة الشمس الحارة في أفريقيا موطنها، أما في البلاد الباردة، مثل شمال أوروبا فلا حاجة إلى مادة الميلانين السوداء لتحميهم، لذلك نجد لونهم أبيض.

الشعار الفرنسي

قليلون جداً من السياسيين الذين يعرفون أصل ومصدر الشعار الفرنسي المثلث «حرية، مساواة، إخاء»، فقد كان النائب مومورو أول من عمل ببلاغة وإيمان واقتناع على إقرار هذا الشعار بمرسوم جمهوري سنة ١٧٣٩م. وبعد ذلك استبدلت كلمة «إخاء» بعبارة «أو الموت» فبات الشعار «حرية، مساواة، أو الموت». ولم يعد هذا الشعار إلى أصله إلا سنة ١٨٤٨م. أما مومورو نفسه فقد كوفئ مكافأة غريبة، فقد قُطع رأسه على المقصلة في مارس «آذار» سنة ١٧٩٤م.■

المراجع :

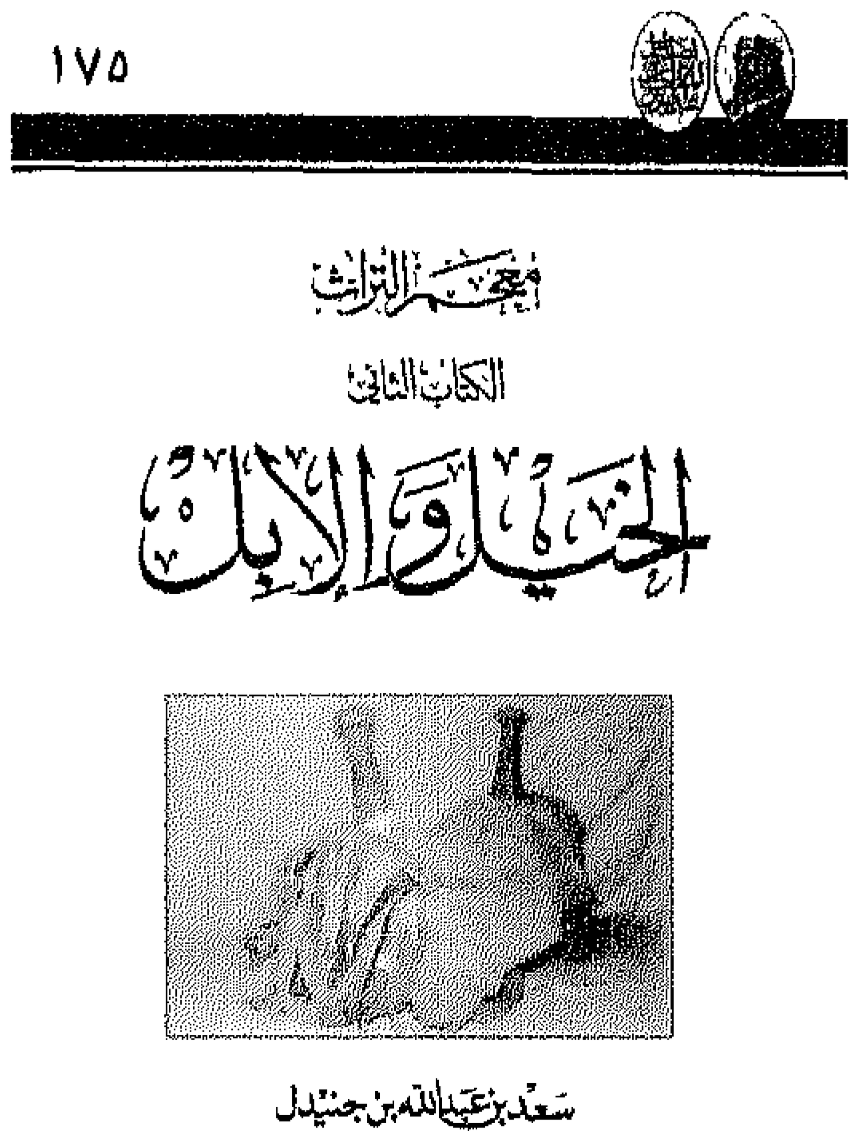
١- كاميليا سلوم عكاوي: كشكول المعارف والعلوم، دار الحرف العربي، ط١ بيروت، ٢٠٠٠م.
٢- محمد العايدي: موسوعة بنك المعلومات «١-٢»، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط١، عمّان، الأردن، ٢٠٠٢م.
٣- حمدو طماس: أهم الأحداث التاريخية، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ٢٠٠٣م.
٤- سمير شيخاني: التاريخ الصغير، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م.
٥- خليل البدوي: صدق أو لا تصدق، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان ، الأردن، ٢٠٠٢م.

الخيل والإبل

صدر ضمن سلسلة معجم التراث «الخيل والإبل» لمؤلفه الباحث سعد بن عبدالله بن جنيدل الكتاب الثاني- عن دارة الملك عبدالعزيز في الرياض، وتناول الكتاب أدوات الخيل والإبل لما لهما من أهمية تمثلت في ارتباطهما الكبير بحياة الإنسان في الجزيرة العربية.

وقد قسّم جنيدل كتابه إلى قسمين، تناول في الأول ستة عشر عنواناً هي: «جِلاَل، حذوة، رِسَن، سرج، سواديس، شبيلي، شيعة، طبل، عَلِيقة، عنان، قفل، مجول، مرشحة، مصراع، معرفة، مقود».

ثم عرض المؤلف في القسم الآخر من كتابه لستة وتسعين عنواناً، ذكر: «باكورة، بتيل، بو، جلمد، حبل، حصرة، خُرج، خيزرانة، دبدوب، دلو، رسن، رشا، سيسية، شبكة، شكيمة، عصا، عيبة، غبيط، مسامة، مضراس، مقط، نجير، نطع، هودج،....، وأخيراً وساقة».■



- اسم الكتاب: الخيل والإبل – الكتاب الثاني.
- المؤلف: سعد بن عبدالله بن جنيدل
- الناشر: دارة الملك عبدالعزيز – الرياض
- الطبعة والسنة: الرياض- ١٤٢٥هـ
- الصفحات: ٢٣٢ صفحة من القطع الاعتيادي
- العنوان: ص.ب: ٢٩٤٥- الرياض- ١١٤٦١، المملكة العربية السعودية
- البريد الإلكتروني:

info@darah.org.sa

** دوريات ** دوريات ** دوريات ** دوريات ** دوريات ** دوريات ** دو

الفن والتراث الشعبي

صدر العدد الحادي والعشرون لشهر يوليو / تموز ٢٠٠٦م لمجلة «الفن والتراث الشعبي" التي تصدر نصف سنوية عن جمعية النخيل للفن والتراث الشعبي في إمارة رأس الخيمة بدولة الإمارات العربية المتحدة.

وتصدر العدد الجديد كلمة مدير عام المجلة عبدالله راشد الصغير، ثم قدمت المجلة في باب البحوث والدراسات عشر دراسات: سبحان الذي أسرى بعبده، البيزرة بين الرواية والدراية، وصورة المرأة في الفنون الشعبية اليمنية، المواسم الشعبية في التراث، نفحات من الطيب والعطور، الماء وتحدياته في العالم العربي ودول مجلس التعاون، جمعية النخيل... عشرون عاماً، قصائد سعاد الصباح بين النسق الأنثوي وطرافة الترميز، ونشرت «الفن والتراث الشعبي» تحقيقاً مصوراً عن قرية التراث في جمعية النخيل للفن والتراث الشعبي. في حين عرضت في باب مراجعات ثلاث مراجعات هي: إيقاع الأمكنة- الأزمنة- سيمفونية المسرح، الشعر الشعبي في الدراسات العربية.

- اسم الدورية: الفن والتراث الشعبي
- الناشر: جمعية النخيل للفن والتراث الشعبي، رأس الخيمة
- العنوان: ص.ب ٥٨٢١، جمعية النخيل للفن والتراث الشعبي، رأس الخيمة، دولة الإمارات العربية المتحدة■

قراءة في السردية الشعبية اليمنية

تُعدّ الحكاية الشعبية أحد أشكال التعبير الإنساني، مثلها مثل الحكايات الشعبية في أي بلد من البلدان. وبغية سبر أغوار الحكاية الشعبية اليمنية بدراسة جديدة تستند في قراءاتها إلى الجهد الذي بذل من قبل باحثين يمنيين، قامت الباحثة اليمنية أروى عثمان بتأليف كتاب «قراءة في السردية الشعبية اليمنية ٧٠ حكاية شعبية» الصادر عن بيت الموروث الشعبي الذي أسسته وترأسه في العاصمة اليمنية صنعاء.

وعقدت المؤلفة كتابها من بابين، تناولت في الأول منها والذي توزع على أربعة أقسام



طائفة من الموضوعات، حيث جاء القسم الأول من مقدمة وسبعة موضوعات: المقدمة، الحكاية الشعبية اليمنية، المؤثرات الداخلية والوافدة على الحكاية الشعبية، حكايات الريف اليمني، حكايات المدن، حكايات الرجال والنساء، والمرأة والحكايات الشعبية. كما أوردت بالقسم الثاني موضوعين هما: سِمات الحكايات الشعبية، وبعض وحدات الحكاية الشعبية.

أما القسم الثالث من هذا الباب فعرضت فيه لتصنيف الحكايات الشعبية اليمنية: الحكاية الاجتماعية، حكاية الحيوان، حكاية المعتقدات الشعبية، حكاية الأمثال والتجارب، حكاية الألغاز، الحكاية المرحة «الفَكِهَة»، وحكاية الجِن. بينما عرض القسم الرابع «الأخير» لموضوعين: معوقات توثيق الحكاية الشعبية، وتعقيب وإشارات.

- اسم الكتاب: قراءة في السردية الشعبية اليمنية «٧٠ حكاية شعبية»
- المؤلفة: أروى عثمان
- الناشر: بيت الموروث الشعبي«٢»، صنعاء، اليمن
- الطبعة والسنة: الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- الصفحات: ٣٧٤ صفحة من القطع الاعتيادي.
- العنوان: ص.ب: ٣٣٠٨١، بيت الموروث الشعبي، باب البلقة، صنعاء، الجمهورية اليمنية.
- البريد الإلكتروني:

housefolk@gmail.com

**دوريات ** دوريات ** دوريات ** دوريات **

الرافـــــد

مجلة الرافد التي تصدر شهرياً عن دائرة الثقافة والإعلام في إمارة الشارقة خصصت ملف العدد ١٠٨ لشهر أغسطس / آب الماضي لـ (النقد السنوي) وتضمن الملف ستة مواضيع هي: الخطاب النقدي بين الأنثوي والذكوري، وشهرزاد من المحكي إلى الحكمي، إبداع المرأة بين التهميش والإلغاء، ورواية بديعة وفؤاد، وباسمة يونس في «علاقة خطرة»، ورواية «قلادة قرنفل». كما اشتمل عدد الرافد على مواضيع عديدة أخرى.

- اسم الدورية: الرافد
- الناشر: دائرة الثقافة والإعلام- الشارقة
- العنوان: ص.ب: ٥١١٩، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة.



سوالف بوراشد

الهامور والعنفوز

حكايات واقعية من الحياة يرويها:

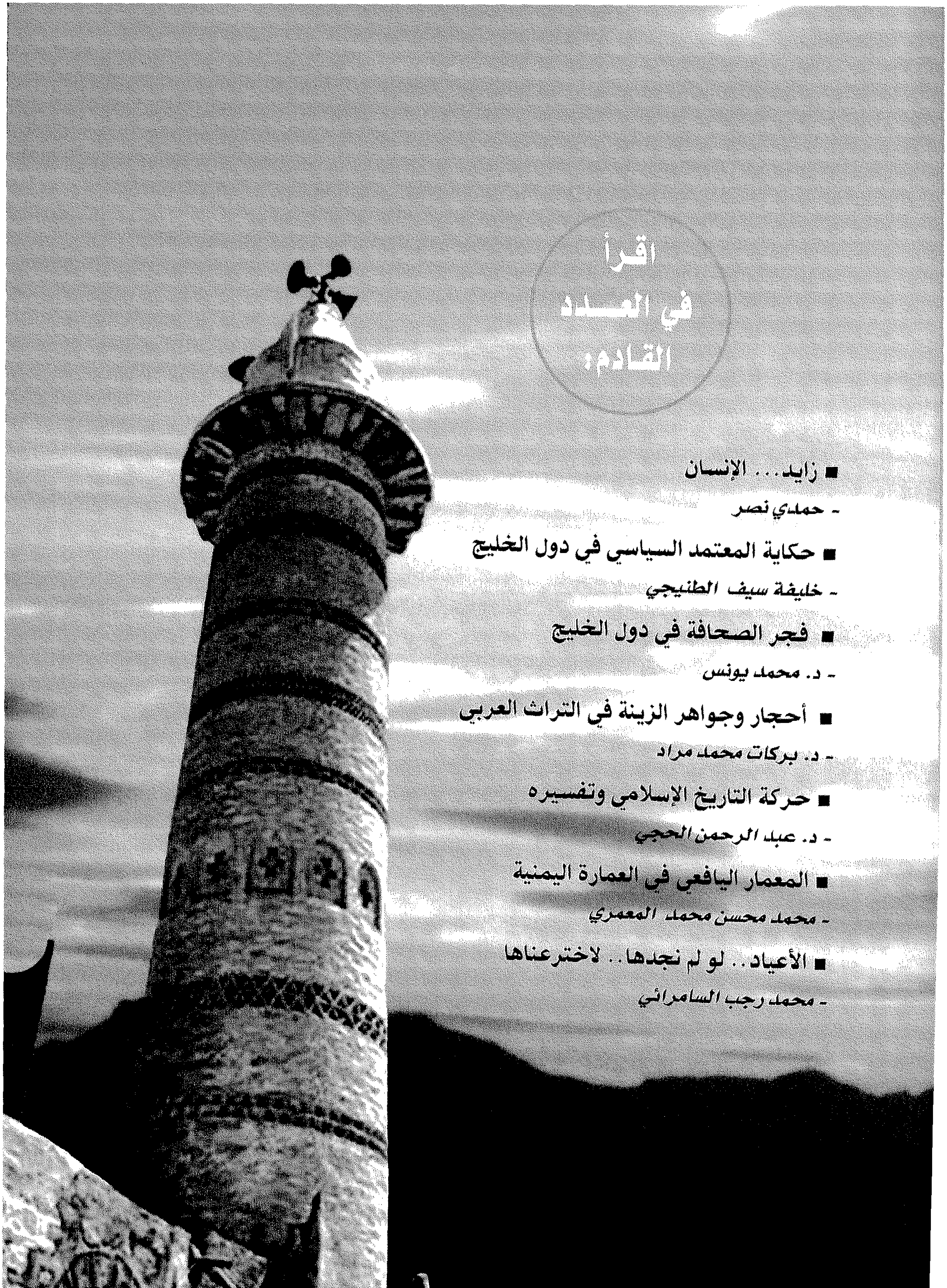
■ خميس بن زعل الرميثي

يقول الراوي خميس بن زعل الرميثي: السوالف التي نرويها لكم شهرياً في هذا المكان بعضها حصل لنا.. عايشناه ولمسناه وتأثرنا به.. وبعضها حصل لناس كنا نعيش معهم ويعيشون معنا فرأينا أثره أو سمعناه منهم مباشرة.. وبعضها رواه الآباء عما حدث معهم.. وعاشوا معاناته في ظل ظروف صعبة كانت في الماضي وانتهت والحمد لله.. لكن بعضاً مما يقولونه هو من وحي الخيال.. قصص نسجتها خيالاتهم لكنها مستمدة من واقع الحال والقصد منها ليس التسليه والضحك.. وإنما هي للعبرة والموعظة والتفكر.. وتوعية الجيل الجديد.. وكلنا كنا في يوم من الأيام جيلا جديدا قبل أن يتقدم بنا العمر.. لكن الفارق أننا كنا نجد من يرشدنا ويوجهنا بطريق مباشر أو بالتلميح وكل من له عقل يفهم التلميح دون التصريح.. وسالفة اليوم التي أرويها لكم عن الهامور والعنفوز من هذا النوع الخيالي.. لكنها للعبرة والنصح كما قلت.

والعنفوز هو سمكة صغيرة.. أما الهامور فهو كما تعرفون سمكة كبيرة قوية تلتهم السمك الصغير بلا هوادة.. وعندنا في اللهجة المحلية يطلقون على بعض التجار «الهوامير» لأنهم يلتهمون «صينية السوق» ويتركون الفتات لباقي صغار التجار.

المهم.. الهامور كان يراكض وراء العنفوز ليأكله.. وظلا يلفان ويدوران حول قرقور كان في الماء إلى أن تعب الاثنان.. العنفوز قال للهامور: ما رأيك لو دخلنا داخل القرقور لنتفاهم بدلا من الركض والتعب؟ الهامور قال في نفسه إنها فرصة جيدة لالتهامه لأن السمكة التي تدخل القرقور لا تستطيع الخروج منه.. وافق الهامور وقال للعنفوز: اتفضل دش (أدخل).. العنفوز زكي.. قال أعوذ بالله.. كيف أتفضل وأنت أكبر مني.. الحق لك.. قال الهامور: أنا أسامحك.. فرد العنفوز: وأنا لا أسمح لنفسي.. سأله الهامور والطمع يغطي على عقله ويتحكم في تصرفاته: «إذا دشيت أنا.. أنت بتدش»؟.. قال العنفوز: طبعاً.. وأنا لا يجوز أن أدخل قبلك.. أنت كبير.. وأهلي علموني.. لا يجوز للصغير أن يتقدم على الكبير.. استسلم الهامور قائلا: يعني عندما أدخل ستدخل أنت؟.. قال: طبعا.. قال الهامور للعنفوز: احلف.. قال العنفوز: «حالفن لك بالعلقة والطوق.. ما تقصر السيوب إلا أنت فوق».. والعلقة هي الحبل المربوط فيه الديين في رقبة الغيص.. والطوق هو حلقة الديين الذي يجمع فيه الغيص المحار.. المهم.. الهامور صدق كلام العنفوز ودخل القرقور.. وطلب منه أن يتبعه، فتلكأ العنفوز وأخذ يدور بخبث حول القرقور.. قال له الهامور مغتاظا: أنت حلفت يميناً ويجب ألا تحنث.. رد العنفوز قائلا: أنا ما حنثت ولن أحنث.. اصبر قليلاً وسترى أين تكون!.. وبعد قليل قصروا السيوب.. أي رفع الصيادون القرقور إلى الأعلى حتى صار فوق السفينة ليأخذوا السمك منه.. وراح الهامور يصرخ محتجاً بينما العنفوز يرقص فرحاً.. ساعتها أدرك الهامور أنه سقط ضحية خدعة لكن بعد فوات الأوان.. وهكذا ضحك العنفوز الصغير على الهامور الكبير.. طبعا فهمتم المقصد.. وسلمتوا.□





اقرأ في العـدد القادم:

- زايد... الإنسان
  - حمدي نصر
- حكاية المعتمد السياسي في دول الخليج
  - خليفة سيف الطنيجي
- فجر الصحافة في دول الخليج
  - د. محمد يونس
- أحجار وجواهر الزينة في التراث العربي
  - د. بركات محمد مراد
- حركة التاريخ الإسلامي وتفسيره
  - د. عبد الرحمن الحجي
- المعمار اليافعي في العمارة اليمنية
  - محمد محسن محمد المعمري
- الأعياد.. لو لم نجدها.. لاخترعناها
  - محمد رجب السامرائي